



٣٠١٠٢٠٠٠٠٠٠٨٢٩

جامعة دمشق
كلية الآداب
قسم اللغة العربية وآدابها

الاتجاه الشعبي في شعر القمهر العباسي الأول

١٠٠٢٨١٧

رسالة مقدمة لنيل درجة الماجستير



٨٢٩

إعداد
طاهر حجار خرفان

إشراف
د. محمود الربيدوي

دش ١٤٠١ هـ - ١٩٨١ م

الإهداء

للأزواج الطيبة مع كل عبي ..
والأخي عبد القادر الذي له أنسى فضله على ما عشت

طاهر

كلمة شكر

لأنَّ ان للكلمات قدرة على التعبير عن
مدى شكرى لاستاذى الدكتور
محمود الربداوى الذى ظل دائما وجهنى
بكل عطف وحافى والذى أخذت من
جهده ووقته الكثير الكثير

طامع محمد

فهرس المفسر فسات

الصفحة	
٦	المقدمة :
١٢ - ١٠٣	الباب الاول : عوامل الاتجاه الشعبي
١٣	التمهيد : نظرة على ثقافة العصر العباسى الاول .
٢٣ - ٤٧	الفصل الاول : الحالة الاقتصادية :
٢٥	أ - الصناعة والتجارة
٣٠	ب - الزراعة والاقطاع
٣٢	ج - موارد بيت المال
٣٤	د - الخراج
٤٥	هـ - ظاهرة الاستصفاء
٤٧ - ٧٢	الفصل الثانى : الحالة السياسية :
٤٩	١ - التمهيد
٥٥	٢ - الواجهة السياسية
٧٣ - ١٠٣	الفصل الثالث : الحالة الاجتماعية
٧٤	- تركية المجتمع العباسى
٨٠	١ - الفقير ومظاهره
٩٤	٢ - تمييز مال المسلمين ومظاهر الترف
٩٩	٣ - العدالة والقضاء
١٠٤ - ٣٠٤	الباب الثانى : الاتجاه الشعبى . .
١٠٥	التمهيد : تحديد مفهوم الاتجاه الشعبى

الصفحة

٢١٧ - ١٣١

الفصل الأول : اغراض الاتجاه الشعبي :

- ١ - الفقر ومظاهره ١٣٣
- ٢ - العمل ١٦٢
- ٣ - المدح والهجاء ١٧١
- ٤ - رثاء المتباعد ١٩٥
- ٥ - التعامل مع البيئة الشعبية ٢٠٠
- ٦ - الفكاهة والتنذر ٢٠٣
- ٧ - تسلط المال ٢١٣

٢٧٠ - ٢١٨

الفصل الثاني : خصائص الاتجاه الشعبي الفنية :

- أ - الاوزان ٢٢٠
- ب - القوافي ٢٣١
- ج - الالفاظ ٢٣٥
- د - في ثنايا الشعر ٢٤٨
- هـ - بناء القصيدة ٢٦٧

٣٠٤ - ٢٧١

الفصل الثالث : مواقف شعراء الاتجاه الشعبي

- ١ - الموقف اللائبي ٢٧٤
- ٢ - الموقف الجنائدي ٢٨٥
- ٣ - الموقف المتمرد ٢٩٩

٣٠٥

الخاتمة :

٣٠٩

فهرس المصادر والمراجع

المقدمة

=====

ان اختيارنا للعصر العباسي الاول ميدانا لبحثنا لم يأت اعتباطا بل جاء لاسباب كثيرة منها الاستقرار السياسي النسبي الذي عرفه هذا العصر والذي كان له دور كبير في بروز كل ما كان يختمر من قبل من اتجاهات وثيارات فكرية وفنية ، ومنها ان في هذا العصر بدأت تتضح معالم المجتمع الجديد اكثر من اى وقت سابق فقد كانت الدولة الاموية من قبل عربية في معالمها العامة بينما شارك في انشاء الدولة العباسية عدة شعوب ولم تكن هذه المشاركة صورية كما كانت من قبل بل كانت فعلية في الحكم والسياسة وما الى ذلك .

ان العصر العباسي الاول كان اهم عصر وضحت فيه بنى المجتمع الاسلامي الجديد بجميع تناقضاته لان ما قبله كان يعتمد على العنصر العربي وحده في تسيير الامور المختلفة في اغلب الاحيان ولان ما بعده كان عهد تفرقة وتشتت . ان هذا العصر هو العصر الذهبي في تاريخ الحكم العربي فقد امتد فيه نفوذ الخلافة العباسية على جميع الاقاليم باستثناء الاندلس وهذا ما جعل راية الاسلام مرفرفة على جميع تلك الاقاليم وبذلك ضاركت تلك الشعوب المنضوية تحت هذه الراية تمتزج بعضها ببعض وتتبادل التأثير فتنتج عن ذلك كله حضارة عربية اسلامية كبيرة قدمت للانسانية خدمات جليلة .

ومجتمع بهذا الاتساع والتنوع كان لابد ان يحدث فيه صراع او مصراعات عديدة سياسية واقتصادية واجتماعية وكل هذه الامور تساعد على تطور الفن وبالتالي على تطور الشعر . وليس غريبا ان نجد عدة ثورات في هذا العصر منها ما كان منطلقه السياسة ومنها ما كان منطلقه الاوضاع الاجتماعية للفئات الكادحة . وقد عظم امر بعض الثورات

حتى جعل الخلافة تأرق في بغداد وتهدد بالسقوط عدة مرات .

وما بحثنا هذا الا محاولة لمعرفة رأى الشعراء في تلك الاحداث وموقفهم منها، الا ان دراسة كهذه تعترضها صعوبات كثيرة منها مايلي :

١- جهلنا بكثير مما كان يعتمل داخل ذلك المجتمع العريض والمتنوع الجنسيات والاتجاهات لان كتب التاريخ التي وصلت الينا عن تلك الفترة كانت توءرخ فيمعظمها للاحداث والاشخاص وتهمل المجتمع وقآته المختلفة والمتعددة . ان المؤرخين القدامى ، وتبعهم في ذلك المحدثون ، لم يكونوا فيتواريخهم يحاولون معرفة الدوافع التي تقف وراء سلوك بعض الشخصيات فيتاريخنا وبالتالي لم يكونوا يبحثون في الاسباب والامور التي جعلت تلك الاحداث تحدث على ذلك النحو . وبعبارة اخرى لم يكونوا يبررون وقوعها بذكر اسبابها الحقيقية . لقد كانوا في معظم الاحيان يذكرون الحادثة مجردة من ابعادها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية وكانوا مثلاً يذكرون الثورات مجردة من كل اسبابها بحيث تصبح في منهجهم ذاك حادثة مبتورة تافهة .

وكان علينا لفهم الشعر الشعبي ، لسان حال الجماهير الكادحة في ذلك العصر ، ان نفهم المجتمع كله بتراكيبه المختلفة وبعاداته وتقاليده وكل ما يعتمل داخله من طموحات وصراعات وتضارب مصالح وتطاحن للطبقات فيما بينها . ومن هنا كان الشعر العربي عموماً يصلح ليكون مصدراً هاماً لكتابة تاريخ تلك الحقبة من تطور الامة العربية الاسلامية لان الشاعر كان محكوماً عليه ان يصدر عن مجتمعه وبالتالي فهو يوءرخ له بطريقة فنية .

٢- وزيادة على افتقار تلك الكتب التي ارخت للعصور القديمة الى منهج سليم وتبريرات معقولة فان الذين كتبوها كانوا بشراً قبل

كل شيء وهذا ما جعل بعضهم يتبع بعض الالهواء فيبرز ما يتلاءم مع اتجاهه ويهمل كل ما خالفه ، ويكفي هنا ان نتذكر موقف المؤرخين من الدعوة العباسية وانتصارها على بني امية ، فقد اختلف فيها المؤرخون بحيث راح بعضهم يرد كل الفضل في انتصارها الى العنصر الفارسي وحده . ومثل هذه الامور تجعلنا نشك في كثير من النصوص الموثقة في كتب التاريخ تلك ، ويمكن ان نقول الشيء نفسه عن كتب الادب فهي ايضا لم تكن بمعزل عما كان يجري في تلك الفترة .

٣- وفوق هذا فان تلك النصوص التي قد تفيدنا شيئا في هذا البحث قليلة جدا ونقص بها اشعار الشعراء الشعبيين لذلك العصر . وليست هذه الندرة نتيجة قلة في انتاجهم بل الاسباب اخرى منها ان المؤرخين والمصنفين كانوا يهتمون هذا الشعر لتفاهته في نظرهم لانه لا يتناول المواضيع الجادة والرصينة كما كانوا يريدون من الشعر . وهذا الاهمال ناتج بدوره عن العقلية السائدة آنذاك والتي لاتعير العامة وجهور الناس اى اهتمام بل تعتبر كل ماله علاقة بالعامية شيئا ساقطا لايستحق الذكر والنشر .

٤- ومن الصعوبات الاخرى ايضا اننا لم نجد دراسات من هذا النوع تدرس اداب الشعوب في تلك الحقب وتتخذ قدوة لنا وان وجد بعضها فهو لايفي بالغرض . وهذا ما جعلنا امام وضع صعب اذ كان علينا ان نتلمس الطريق دون مساعدة لان الدراسات التي تتناول الشعر في العصور القديمة كان اغلبها ينصب على الشعراء المشاهير وتجدد الاشارة هنا الى اننا لم نستطع الحصول على بعض المراجع والمصادر والتي كانت ستفيدنا في هذا البحث لانها في اقطار اخرى ودول اخرى او لانها مخطوطة لم تنشر النور بعد .

هذه مجمل الصعوبات التي واجهتنا في هذا البحث ونحن متأكدون

ان بعض الجوانب ناقصة فيه ولذا نرجو من القارئ الكريم ان يقدر هذه الظروف ويغفر لنا هذا النقص •

وبعد فاننا قسمنا هذا البحث الى باهين يتناول الباب الاول العوامل المؤثرة في الادب الشعبي للعصر العباسي • ويتناول الباب الثاني الشعر في حد ذاته • وقد مهدنا للباب الاول بنظرة بسيطة عن ثقافة العصر العباسي الاول حيث تطرقنا لنشوء الدراسات الدينية واللغوية وما يتبعها •

اما الفصل الاول من الباب الاول فقد مهدنا له هو الآخر باهميية دراسة الاوضاع الاقتصادية •

وكان الفصل الاول خاصا بالعوامل الاقتصادية التي تؤثر حتى في الانتاج الادبي وبالتالي في الشعر الشعبي ، فاعطينا لمحة عن الصناعة التي تطورت نسبيا في ذلك العصر بحيث ظهرت بعض المعامل في مناطق كثيرة من الامبراطورية الاسلامية اضافة لتطور الحرف اليدوية • ثم تناولنا الزراعة والاقطاع حيث بينا ان الدولة كانت تعتبر نفسها المالك الاكبر للارض تتصرف فيها كما تشاء وتقطعها من تشاء • ثم عرفنا موارد بيت المال كالزكاة والفيء والخمس الخ ... وركزنا على الخراج الذي كان اهم مورد لبيت مال المسلمين من حيث قوانينه وطرق جبايته والزيادة فيه وثورة الفلاحين والمزارعين بسبب ذلك ، ثم ذكرنا تبذير مال المسلمين من قبل الخليفة واتباعه في امور لا تعود على الرعية بفائدة ثم ذكرنا ظاهرة مصادرة اموال الاغنياء في ذلك الوقت •

وكان الفصل الثاني خاصا بالعوامل السياسية حيث تحدثنا باختصار عن تنظيم الدعوة العباسية ونجاحها وما تبعها من فتك بالامويين •

وبعدها اعطينا لمحة عن الواجبة السياسية العامة لتلك الفترة حيث عظم تدمير الناس من العباسيين بعد الفرج والابتهاج باقتمار تلك الدعوة ، ثم تعرضنا للأحزاب الكبرى فبذلك العصر حيث كان الحزب الحاكم هو ~~الحزب~~ احزاب المعارضة بكل عنف وكانت هذه الاحزاب بدورها تهتبل الفرصة للاطاحة بالنظام القائم حيث حدثت عدة ثورات للشيعه والخوارج ، حزبي المعارضة الكبيرين ، وكان بعضها خطيرا للغاية . ثم ذكرنا الثورات والانتفاضات الشعبية التي لم تكن تابعة لهذه الاحزاب والتي جاءت نتيجة للظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية لذلك العصر .

وجاء الفصل الثالث للتعريف بالاوضاع الاجتماعية لذلك العصر فبيننا اول الامر (الطبقات) والفئات التي يتكون منها المجتمع العباسي فبتلك الفترة ثم تحدثنا عن مظاهر الفقر وانعكاسها على الشعر الشعبي ثم مظاهر الترف والغنى واخيرا اعطينا لمحة عن ظروف القضاء والعدالة والحسبة .

اما الباب الثاني فقد مهدنا له بتحديد مفهوم الشعر الشعبي في ذلك العصر ففرقنا بينه وبين الشعر الرسمي وبينه وبين الشعر الذاتي . وقد بينا ان الشعر الرسمي يكون دائما داعية للسلطات القائمة شرط ان تكون هذه السلطات في تنافر مع الشعب أي مع الرعية ، وبيننا ان الشعر الذاتي ينطلق من وجدان الفرد الذاتي . اما في تعريف الشعر الشعبي فقد جعلنا الجماعية منطلقا لكل تحديد على ان يكون هذا الشعر نابعا منها بالدرجة الاولى وليس عسريا . وهنا تصدينا لبعض التعريفات الشائعة عن الادب الشعبي والتي تحمل في طياتها مغالطات واضحة كجعل الشعر الشعبي هو ما جاء مكتوبا بالعامية وكان مجهول المؤلف ، لان الكتابة بالعامية او بالفصحى ليست هي الدليل على شعبية الشعر بل الدليل هو محتوى ذلك الشعر، وهنا ناقشنا قضية الفصاحة والعامية

في اللغة واقترحنا ان مفهوم الفصاحة يجب ان يتغير عبر العصور
تبعا لتغير المجتمع الذي ينتج هذه اللغة او تلك * ثم بينا ان جعل
المؤلف او معرفته بالنسبة اليها لا يغير شيئا في هذه القضية * وبعد
ذلك ناقشنا بعض الآراء في شعبية الشعر عند بعض الباحثين *

وكان الفصل الاول خاصا باغراض هذا الاتجاه الشعرية كوصف الفقير
ومظاهره والحث على العمل والمدح والهجاء والرشاء ووصف تسلط المال
والتندر والفكاهة *

وكان الفصل الثاني منه خاصا بالخصائص الفنية لذلك الاتجاه
كالتجديد في الازان واستعمال القصير منها وتطور القصيدة والمبالغة
وما الى ذلك *

اما الفصل الثالث والاخير فكان خاصا بمواقف الشعراء الشعبيين
من الاوضاع المختلفة المحيطة بهم حيث استنتجنا ان مواقفهم كانت
ثلاثة: هي الموقف اللامبالي او الساخر والذي لم يكن يسير تلك المشاكل
اي اهتمام او هو يبدو وكأنه لا يعيرها اي اهتمام وانما كان في الحقيقة
يعبر عنها بطريقة الساخرة تلك واتخذنا لهذا الموقف مثالا ابادلame
زند بن الجون * وكان الموقف الثاني هو الحيادي السلبي وهذا يضم
شعراء الزهد لتلك الفترة الا بعض الاستثناءات في ذلك * وكان الموقف
الاخير هو الشاعر المتمرد الذي لم يكتف بالنقد والشعر والتعبير عما يتعاليق
منه الجماهير العريضة في ذلك العصر بل رفع السلاح فيوجه تلك الاوضاع
القاسية * وكان ابو عطاء السندی مثالنا لهذا الموقف *

.....

.....

*

الباب الاول عوامل الاتجاه الشعبي

=====

التمهيد : ثقافة العصر العباسي الاول

الفصل الاول : العوامل الاقتصادية

الفصل الثاني : العوامل السياسية

الفصل الثالث : العوامل الاجتماعية

=====

=====

=====

تمهيد

نظرة على ثقافة العصر العباسي الاول

نحن الان امام عصر تشكلت مختلف مناحيه فاكتملت له خصوصياته
 وبرزت معالمه واضحة للعيان . لقد انضوى عدد من الاجناس في ذلك
 العصر تحت راية الاسلام اذ اصبحت تلك الشعوب تنتمي الى مجتمع واحد
 بعد ان كانت من قبل متنافرة ودائمة الغارات والحروب ضد بعضها
 البعض . ساعد دخولها تحت هيمنة الاسلام اذ على وجود نوع من الاستقرار
 كان من قبل مفقودا في اغلب الاحيان . وطبيعي جدا في مثل هذه الحال
 ان يتم الاحتكاك بين تلك الشعوب بالمخالطة والمصاهرة مثلا او بالجوار
 او بالتحالف او بالموالاة الخ لقد انتشر الاسلام ايام الامويين
 انتشارا سريعا فشمط مناطق شاسعة تسكنها مجموعة من الشعوب مختلفة
 اللغات واللهجات . وبما ان الاسلام جاء بلغة العرب ، وخاصة القرآن
 الكريم ، فان تلك الشعوب وجدت نفسها مدفوعة لتعلم اللغة العربية
 حتى تستطيع القيام بأمورها الدينية والدينية معا خاصة اذا علمنا
 ان حكام الاقاليم في العهد الاموي كانوا من العرب . وكان لابد من نشر
 الاسلام وتعاليمه بتعليم القرآن والحديث والشرعة وما الى ذلك .
 وهكذا نشأت العلوم الدينية في وقت مبكر اى في الوقت الذي
 احتاجت فيه الشعوب الداخلة حديثا في الاسلام الى مشرعين لهذا الدين
 ومعلمين له . حدث هذا في البدايات الاولى اما في العصر العباسي ، بعد
 ان استقرت الأحوال والناس الاوضاع الجديدة ، فقد تطورت الأمور
 واصبحت الشريعة مقننة مدونة تعاليمها . وكان من اهم نتائج ذلك الوضع
 السياسي والاقتصادي والاجتماعي الجديد ان ظهرت المذاهب الاربعة (الحنفي ،
 المالكي ، الشافعي ، الحنبلي) . وقد كان للحديث اثر كبير على نشوء

تلك العلوم الدينية ، فقد نال الحديث الشريف وهو أحد مصادر التشريع الاسلامي ، القسط الوافر من الدراسات والتصنيف والتبويب وما الى ذلك حيث ظهرت في العصر العباسي الاول مجموعة من المصنفين منهم : عبد الملك ابن عبد العزيز بن جريح (١٥٠ هـ) ومعمار بن راشد (١٥٣ هـ) وسعيد بن ابي عروبة (١٥٦ هـ) والريعي بن صبيح (١٦٠ هـ) وحماد بن سلمة (١٦٥ هـ) وسفيان الثوري (١٦١ هـ) وعبد الرحمن الاوزاعي (١٥٧ هـ) والليث بن سعد (١٧٥ هـ) ومالك بن انس (١٧٩ هـ) وسفيان بن عيينة (١٩٨ هـ) وعبد الرزاق المنعاني (٢١١ هـ) وعبد الله بن مبارك (١٨١ هـ) وهشيم بن بشير (١٨٣ هـ) ويحيى بن زكريا بن ابي زائدة (١٨٣ هـ) ومحمد بن فضيل بن غزوان (١٩٨ هـ) ووكيع بن الجراح (١٩٦ هـ) وعبد الله بن وهب وغيرهم كثير (١) ...

وقد تناول هؤلاء المصنفون الحديث بتنظيمه وتبويبه وتأكيده وتفسيره اضافة الى شرح القرآن وتفسيره وذكر اسباب نزوله وما الى ذلك من العلوم الدينية الكثيرة جدا .

وكانت هذه الدراسات الدينية من الاسباب الهامة في تطور الدراسات اللغوية لدى العرب دون ان يكون لاي ثقافة اجنبية دور مباشر في ذلك خاصة في البدايات الاولى لان الامور فيما بعد تطورت اذ تأثرت تلك العلوم بثقافات اجنبية وخاصة الثقافة اليونانية .

لقد قلنا ان الدراسات الدينية كانت من اهم الاسباب في نشوء الدراسات اللغوية وذلك " لحاجة الشعوب الاجنبية التي دخلت في الاسلام الى تعلم لغة القرآن الكريم ثم ما كان من شيوع اللحن على السنة الموالي المستعربين وعلى السنة بعض العرب انفسهم لاختلاطهم بالعناصر الاجنبية وما حدث من ضعف سلاقتهم بسبب تحضرهم " (٢) .

(١) شوقي ضيف : العصر العباسي الاول ص : ١٢٧ دار المعارف بمصر ط ١ قاهرة ١٩٧٦
(٢) شوقي ضيف : المرجع نفسه ص : ١١٨

لقد برز الاهتمام بهذه الأمور منذ العصر الأموي وربما قبل ذلك كما في الرواية التي ترد نشأة النحو إلى علي بن أبي طالب وأبي الأسود الدؤلي .

لكن ازدهار هذه العلوم اللغوية (اللغة - الشعر - النحو - الصرف الخ . .) قد تم فعلاً في العصر العباسي الأول حيث انتظمت الدراسات فخصص بعض القوم في مختلف ميادينها . وقد نالت مدينتا البصرة والكوفة قصب السبق في ذلك ، حيث حدث احتكاك كبير فيهما بين مختلف الثقافات ، وهكذا حدثت حركة تأليف كبيرة في هاتين الحاضرتين كان من أعلامهما بالبصرة في علم اللغة أبو عمرو بن العلاء (١٥٤ هـ أو ١٥٩ هـ) وهو أحد القراء السبعة ، وخلف الأحمر (١٨٠ هـ) والأصمعي (٢١٢ هـ أو ٢١٤ هـ) وأبو زيد القرشي وأبو عبيدة ومحمد بن سلام الجسعي ، أما في الكوفة فقد برز حماد الراوية والمفضل الضبي وأبو عمرو الشيباني وابن الأعرابي ، والخليل بن أحمد الفراهيدي (١٧٥ هـ) . أما علماء النحو فقد اشتهر منهم في البصرة عيسى بن عمرو الشقفي (١٤٩ هـ) وسيبويه صاحب الكتاب ، أما في الكوفة فأبو جعفر الرواسي ومعاذ بن سلم الهراة والكسائي (١٨٩ هـ) والقراء (٢٠٧ هـ) وغيرهم كثير (١) .

ألفت مصنفات عديدة في هذه المجالات بقي منها مجموعة لا بأس بها ، وإن دلت على شيء فانما تدل على مدى التطور الحضاري الذي حدث في ذلك العصر .

كان انتشار الإسلام سريعاً في بقاع عديدة فتعرب أهلها لساناً وفكراً بسرعة أيضاً ، ودلينا على ذلك كثرة المتخصصين في العلوم اللغوية والدينية من غير العرب ، فقد كان عدد منهم من الفرس ومن غيرهم من الجنسيات إضافة إلى أن الذين بقوا على دينهم تعلموا العربية أيضاً وألفوا بها (٢) .

(١) - شوقي ضيف : العصر العباسي الأول ص : ١١٩ - ١٢٤

(٢) - المرجع نفسه : ص ٨٩ - ٩٢ .

ان هؤلاء القوم الذين تعلموا العربية لم ينسوا علومهم وثقافتهم التي كانت موجودة قبل الاسلام ولم يهملوها بل حاولوا نقلها الى العرب بجميع الطرق ، وهكذا ساعد الاحتكاك المباشر بين العرب وغيرهم على دخول كثير من المفاهيم والمعارف على الثقافة العربية زيادة على حركة الترجمة التي كان لها دور كبير فينشوء بعض العلوم وفي تطور بعضها الاخر وازدهاره . لقد بدأت حركة الترجمة منذ عهد مبكر زمن الامويين واغلب الظن انها بدأت منذ الفتوحات الاولى التي قام بها المسلمون خارج جزيرة العرب كفارس ومصر . لكن الذي ولى الينا ان ماسرجويه ، السرياني اليهودي ، نقل الى العربية كتاب اهرن القس بن اعين ، ايام الخليفة الاموي مروان بن الحكم ، كما نقلت بعض كتب الطب والتنجيم والكيمياء لخالد بن يزيد بن معاوية الذي كان يبحث عن الذهب (١)

ولعل السبب في قلة الترجمة في ذلك العصر ان الدولة الاموية كانت دولة عربية خالصة بمعنى انها تعتمد في كل امورها على العرب وعلى المعارف العربية فقط ، ولعلها كانت ترى في الترجمة ما ينقص من هيبتها زيادة على ان العربية لم تكن قد تغلغلت بعد في نفوس المستعربين . اما في زمن العباسيين الاوائل فقد تغيرت الامور واصبحت الترجمة احدى ميزات ذلك العصر الهامة ، وربما كان للدور الذي قام به الموالي على الصعيدين العسكري والسياسي دخل كبير في ذلك ، فاننا نعرف جميعا ان الثورة العباسية نجحت على اكتاف الموالي والفرس منهم خاصة وهذا ما ازاح ذلك الحاجز الذي كان يشل حركتهم ويمنعهم من المشاركة الفعلية في الحياة بجميع مناحيها . ان الثورة العباسية ردت الاعتبار لاولئك الموالي وربما كانت الشعبية احدى النتائج الهامة لرد الاعتبار هذا .

(١) محمد نبيه حجاب معالـم الشعر واعلامه ص : ٢٧ دار المعارف بمصر ٢
القاهرة ١٩٧٣

وشوقي ضيف المرجع السابق ص ١٠٩ .

ان الاسلام دين يشجع على طلب العلم ونشره ، ولذا كان من واجـب المسلمين الأوائل الفاتحين ان ينشروا العلم وان يشجعوا الناس عليه ، فقد كانوا كلما فتحوا مصرا من الامصار ينشرون علمهم اولا ثم يأخذون ما وجدوه من علوم لدى تلك الشعوب . وقد كان بعض تلك الشعوب ذا حضارات عظيمة كال يونان والفرس والهند ، وهكذا راح العرب ينهلون من ذلك المعين الخصب على شرط الا يتعارض مع تعاليم الاسلام الحنيف . وفعلوا ، فقد ترجموا ما يخدم الاسلام فقط ومن ذلك اهمالهم للادب اليوناني الذي كان فيه الكثير من الخروج على الروح الاسلامية ، وحتى الفلسفة اليونانية التي اولعوا بها جعلوها تتماشى مع الاسلام بدليل ان بعض الفلاسفة المسلمين حاول التوفيق بين الفلسفة والدين .

ان اهم ثقافة اشرت في الفكر الاسلامي هي الثقافة اليونانية وكل ذلك عن طريق الترجمة (١) المباشرة او غير المباشرة . وقد كان لمنطق ارسطو الحصة القصوى في ذلك التأثير اذ تأثرت به جميع العلوم العربية (٢) . اما الثقافة الفارسية فقد اشرت في السلوك العربي ايما تأثير اذ اخذ العرب عن الفرس كل ما يفيدهم في الحياة من نظم وعادات وتقاليـد ومطعم وملبس (٣) الخ وبعبارة اخرى فانهم اخذوا عنهم الجانب المادي من حضارتهم بدليل كثرة المصطلحات الحياتية التي دخلت اللغة العربية عن طريقهم . وكان الفرس من جهتـهم اكثر الشعوب تأثرا بالاسلام وبالعرب ، فقد اقبلوا على الثقافة العربية ينهلون منها بنهم وشغف كبيرين ، فتمسكوا اللغة وانتقلوها حتى ساروا من اشهر العلماء فيها وكان

(١) شوقي ضيف : العصر العباسي الاول ص ٩٦

(٢) محمد نبيه حجاب : معالم الشعر واعلامه ص ٣٠

(٣) شوقي ضيف : المرجع السابق ص ٩٥

بعضهم ما زال يحافظ على لغته الفارسية فقاموا بنقل بعض علومهم إلى العربية (١) .

أما الهند فقد كانت هي أيضا ذات حضارة عظيمة تجلت في الدراسات اللغوية والفلسفية والسحر والتنجيم والقصص الشعبي . وقد تأثر بها العرب أيضا عن طريق الترجمة أو الاحتكاك المباشر (٢) فقد كان للعرب ولح شديد بالقصص الهندية ككتاب كليلة ودمنة والفليلة وليلة وقصة هبوط آدم والسندباد الخ (٣) .

وقد كانت الفلسفة الهندية قريبة من الإنسان على خلاف الفلسفة اليونانية التي اتجهت نحو السماء وقد كانت كثيرا ما تأتي في شكل حكم مجوكة اهتم بها العرب كثيرا واستفادوا منها (٤) .

لقد انتقلت تلك المعارف والعلوم إذا عن طريق الترجمة التي كان للخلفاء دور كبير فيها ، إذ شجعها العباسيون . وقد اشتهر من الخلفاء في هذا المجال أبو جعفر المنصور والمأمون ، ففي عهد المنصور ترجم كتاب السند هند وهو كتاب في حركات الكواكب (٥) قام بترجمته إبراهيم الفزاري . ولما هضر المنصور بمعدته استدعى الطبيب جورجيس بن بختيشوع الذي ترجم له عدة كتب في هذا المجال خاصة وأن جورجيس هذا كان يعرف من اللغات العربية واليونانية والفارسية والسريانية (٦) .

-
- (١) محمد نبيه حجاب : معالم الشعر وأعلامه ص ٣٢
 - (٢) شوقي ضيف : العصر العباسي الأول ص ٩٤
 - (٣) محمد نبيه حجاب : المرجع السابق ص ٣٨
 - (٤) محمد نبيه حجاب : المرجع السابق ص ٣٨
 - (٥) أنور الرفاعي : الإسلام في حضارته ونظمه ص ٥٣٠-٥٣١ مط دار الفكر ١٩٩٣
 - (٦) أنور الرفاعي : المرجع نفسه ص ٥٣٠-٥٣١

وكذلك ترجم له كليلة ودمنه والسند هند الانفي الذكر وترجمت
ايضا كتب ارسططاليس في المنطق وكتاب المجسطي لبطليموس وكتاب الارشما طيقي
وكتاب اوقليديس الخ ٠٠٠ (١) ومن اشهر المترجمين قبل خلافة المأمون
يوحنا البطريق ومحمد الفزارى وعبدالله بن المقفع الذي ترجم اضافة
الوكليلة ودمنة كتب المنطق الثلاثة (المقولات) و (العبارة او
القضايا التمديقية) و (القياس) كما ترجم كتاب المدخل المعروف
بابساغوجي لفورفوروريوس المورى . وكذلك هورجيس بن جبريل ويوحنا بن
ماسويه ومالح بن بهلة ، صاحب الرشيد ، ومنكه طبيبه الهندي (٢) . ونقل
كذلك الحجاج بن مطر في عهد الرشيد كتاب اقليدس كما نقل بعض كتب افلاطون
واهم كتب جالينوس في الطب (٣) ٠٠٠

اما الترجمة في عهد المأمون فقد قفزت قفزة عظيمة وجبارة لان
ال خليفة اهتم بها اهتماما استثنائيا فقد كان مولعا بالعلوم كما نعرف
وكانت مجالسه تزخر بالعلماء من جميع الاصناف وقد خصص للترجمة دورا
وجلب اليها امهر المترجمين كما بحث في الافاق يطلب الكتب واجرى على القائمين
بتلك العملية ارزاقا حتى يتفرغوا لعملهم فقط (٤) .
لقد تطورت الترجمة في عهده كما و نوعا فمن حيث الكم ترجمت كتب عديدة
جدا في جميع التخصصات ومن حيث النوع اهتم المترجمون بالنقل السليم
للافكار ولم تعد العملية مجرد نقل حر في كما كانت من قبل . واهم
المترجمين في عهده هم قسطا بن لوقا البعلبكي وعبدالمسيح بن ناعمة
الحممي وحنين بن اسحق وابنه اسحق وثابت قرّة وحبش بن الاعسم (٥) ٠٠٠

(١) شوقي ضيف : العصر العباسي الاول ص ١١٠

(٢) محمد نبيه حجاب : معالم الشعر واعلامه ص ٢٨

(٣) انور الرفاعي : الاسلام في حضارته ونظمه ص ٥٣١

(٤) انور الرفاعي : المرجع نفسه ص ٥٣٢

(٥) محمد نبيه حجاب : المرجع السابق ص ٢٩

واحمد بن محمد الفرغاني ويختيشوع جورجيس والحسن بن سهل بن نوبخت
وموسى بن شاعر وبنوه محمد واحمد والحسن وغيرهم (١) ٠٠٠

وهكذا ساعدت الترجمة على تبلور بعض العلوم العربية التي ظهرت
بعد الاسلام ويسببه كعلم الكلام وعلوم اللغة عامة لان المسلمين لم
ينشروا الاسلام وحده فقط بل كانوا اينما حلوا يبنون المساجد ، والمسجد
في القديم هو المدرسة التي تخرج منها الاف العلماء في جميع التخصصات ،
فبعد ان انتخب الامر للمسلمين في البقاع المفتوحة ، "انشأوا في جميع
المدن المهمة مراكز للتعليم" (٢) ٠٠٠ والامر الذي ساعد ايضا على
ذلك هو شيوع الورق وظهور المكتبات العامة ، فقد انشأ الفضل بن يحيى
البرمكي مصنعا للورق في بغداد وانشئت دار الحكمة منذ عهد الرشيد
وهي عبارة عن مكتبة ضخمة كانت تهتم بالكتب المترجمة يرتادها
طلاب العلم والمعرفة ، ومن ذلك ايضا مكتبة اسحاق بن سليمان العباسي
ومكتبة يحيى بن خالد البرمكي ومكتبة الواقدى المؤرخ المشهور (٣) ٠٠
وشيء كهذا كان لابد ان يؤثر في المسار الثقافي لتلك الحقبة
من تطور العرب والحضارة العربية خاصة وان العرب لم يقفوا عند ما ترجموه
لان الذي حدث انهم استفادوا كثيرا من ذلك التراث ثم تجاوزوه على عكس
ما حدث لاروپة في العصور الوسطى (٤) ٠٠٠
وتعددت مجالات التطور في ذلك العصر فظهرت في شكل علوم كثيرة ، فقد
ظهرت مثلا كتب التاريخ والسير والمغازي ، واشهر من كتب فيها قاضي

(١) انور الرفاعي الاسلام في حضارته ونظمه ص ٥٣٣

(٢) غوستاف لويون: حضارة الغرب ص ٤٣٠ ترجمة عادل زعيتري مط البابي

(٣) شوقي ضيف: العصر العباسي الاول ص ١٠٣

(٤) غوستاف لويون : المرجع نفسه ص ٤٣٤

المأمون محمد بن عمر الواقدي (٢٠٧ هـ) وتلميذه محمد بن سعد. (٣٠ هـ) (١)
 أما الفلك فقد بلغ أوجه فیتلك الأيام ، ومن أشهر علماء ذلك العصر
 في هذا المجال البتاني" الذي كان له من الشأن بين العرب ما لبطلیموس
 بين الاغارقة" (٢) ٠٠ ونبغ فيه كذلك ابناء موسى بن شاكر الثلاثة الذين
 عينوا مبادرة الاعتدالین بضبط لم يكن معروفا من قبل ووضعوا تقاویم
 لاماكن النجوم وقاسوا عرض بغداد وقيدوه ٣٣ درجة و ٢٠ دقيقة ای برقم
 یصح بعشر ثوان تقريبا (٣) ٠ وقد اسس المأمون مرصدا كبيرا اوكل
 اشرافه الى يحيى بن ابي منصور واشتغل فيه مجموعة من مشاهير الفلكیین
 مثل علي بن عيسى الاسطرابي ومحمد بن موسى الخوارزمي والعباس بن سعيد
 الجوهري ، وكان هذا المرصد بمثابة مدرسة كبيرة في الفلك تخرج
 المتخصصين في هذا العلم (٤) ٠٠

أما الرياضيات فقد كانت من الشهرة ما جعلها تنتشر بسرعة بين الناس
 وقد كان للعرب فضل كبير على الانسانية في هذا المجال، فقد عرفت اربعة
 الجبر عن طريقهم وعن طريق كتاب محمد بن موسى الذي امره المأمون ان
 يؤوله بعبارة سهلة حتى يستفيد منه الناس (٥) ٠٠ اسافى الهندسة
 فقد ادخلوا المماس الى علم المثلثات واقاموا الجيوب مقام الاوتار
 وطبقوا علم الجبر على الهندسة وحلوا المعادلات المكعبة وتعمقوا في مباحث
 المخروطات وحولوا علم المثلثات الكرية بردهم حل مثلثات الاضلاع الى
 بضع نظريات اساسية تكون قاعدة له" (٦) ٠٠٠

(١) شوقي ضيف : العصر العباسي الاول ص ١٢٥

(٢) غوستاف لويون : حضارة العرب ص ٤٥٧

(٣) غوستاف لويون : المرجع نفسه ص ٤٥٧

(٤) شوقي ضيف : المرجع نفسه ص ١١٥

(٥) غوستاف لويون : المرجع نفسه ص ٤٥٥

(٦) غوستاف لويون : المرجع نفسه ص ٤٥٥

ولاداعي لتعداد كل المجالات الاخرى التي برز فيها العرب كالطب والفيزياء والكيمياء والميكانيكا وماشابه ذلك ، فالمراد ان نبين مدى التطور الذي حصل في ذلك العصر بسبب تمازج الثقافات المختلفة مع بعضها بعض ..

وسوف يكون الشعر باعتباره مجالا من مجالات الثقافة متأثرا حتما بهذه العلوم والاكتشافات فهو لايعيش بمعزل عن البيئة التي نشأ فيها . وهذا ما سنراه في الفصول القادمة .

ان هذه الحركة الكبيرة النشطة في مختلف المجالات جاءت نتيجة ظروف وعوامل اجتماعية وسياسية واقتصادية مختلفة بحيث تضافرت كلها علوانجاح الحضارة العربية وتطورها

.....

.....

الفصل الاول

الحالة الاقتصادية في العصر العباسي

الاول

=====

• - اهمية دراسة الاوضاع الاقتصادية

آ - الصناعة والتجارة

ب - الزراعة والاقطاع

ج - موارد بيت المال

د - الخراج :

١ - تعريف الخراج

٢ - طرق الخراج

٣ - التشدد في الخراج

٤ - الزيادة في الخراج

٥ - خراج الاقاليم

هـ - ظاهرة الاستملاء •

XXXXXXXXXXXXXXXXXXXXX

XXXXXXXXX

مدخل: أهمية دراسة الأوضاع الاقتصادية

=====

تقاس المجتمعات في رقيها وانحطاطها بمستوى اقتصادها ومدى توزيع
فراغ هذا الاقتصاد على مختلف فئات الشعب ، فإذا حدث هذا
كان المجتمع راقيا يشعر فيه الجميع بالسعادة والرفاه والافهو مجتمع
محكوم عليه وعلى حكامه بالانحطاق والتدهور .
ان الظروف الاقتصادية تلعب دورا هاما في تشكيل عقلية المجتمعات ولذا
كانت دراستها والقاء الضوء عليها ضرورة في بحث كالذي نتناوله لاننا
سنركز اهتمامنا على جماعة من الشعراء قاسمهم المشترك هو المعاناة من الاختلال
الاقتصادي في عصرهم .

ولابد ان نحدد في البداية نموذج الاقتصاد في ذلك العصر اي بعبارة
اخرى ماهي ملامحه ومعالمه ؟ هل كان عبوديا او اقطاعيا او رأسماليا
ام كان كل هذه مجتمعة ؟ ان المتتبع لطواهر الاقتصاد في ذلك العصر يرى
ان الطابع المهيمن هو " اسلوب الانتاج اقطاعي المتداخل مع بقايا العبودية
المنحلة والقطاع التجاري المتنامي الى جانب نمو الصناعات الحرفية
المتطورة نسبيا . . . (١) فالقطاع اذا كان يلعب الدور الاكبر في ذلك
العصر ، لا لكونه يحكم زمام الامور بواسطة فئة تحافظ على مصالحه بل
لان البرولة نفسها كانت هي المالك الاكبر والمستثمر الاول للاراضي المتمثلة
في قطاع الخليفة واهله واعوانه من وزراء وقواد وجميع رجالات الدولة (٢)

(١) حسين مروة: النزعات المادية في الفلسفة العربية الاسلامية ج ٣ ص ٣٨ دار

الفارابي ط اولى بيروت ١٩٧٨

(٢) حسين مروة: المرجع نفسه ج ٢ ص ١٣ دار الفارابي ط اولى بيروت ١٩٧٩

ومن أجل هذا كانت الدولة تقوم من حين لآخر باستملاحات مختلفة وتقيم أنظمة سقاية ذات حجوم ونوعيات عالية (١) لم تأت لصالح الإقطاعيين المتوسطين والفلاحين الصغار بل جاءت لصالح الدولة نفسها حتى تزيد من إنتاج أراضيها. وهذا الاهتمام بالزراعة كان على حساب القطاعات الأخرى كالصناعة والتجارة فخلت بالرغم من أنها - أي هذه القطاعات - عرفت انتعاشا ملحوظا في ذلك العصر مما أدى إلى تطور الاقتصاد النقدي وازدهار رأسمال تجاري قوى ، الأمر الذي كان له دور كبير في تطور الدولة العباسية (٢) وكل هذه الأوضاع الجديدة تركت بصماتها واضحة على الحياة الاجتماعية في جميع ميادينها مما في ذلك الفن بجميع أجناسه المعروفة في ذلك العصر والفن أيضا لا يمكن إلا أن تنعكس عليه ظواهر عصره ومنها "الاعتبارات الاقتصادية المهيمنة للظروف التي ينتعش بها" (٣) ولاداعي للاستشهاد هنا بالنظريات التي جاءت في هذا الصدد إذ يكفي أن في شعرنا القديم إشارات كثيرة إلى هذا الواقع سوف نتعرض لها فيما يلي من فصول .

آ- الصناعة والتجارة

=====

إلى جانب الحرف اليدوية التي تطورت كثيرا في العصر العباسي الأول نجد صناعات متطورة منتظمة نسبيا في مصانع منتشرة على امتداد الإمبراطورية الإسلامية شرقا وغربا (٤) . فقد برزت صناعة السكر في

(١) طيب تيزيني: مشروع رؤية جديدة للفكر العربي في العصر الوسيط ص ١٨١ مط دار دمشق دمشق ١٩٧١

(٢) طيب تيزيني: المرجع نفسه ص ١٨٢

(٣) محمد نجيب البهيتي: تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري ص ٣٧٤ مطبعة دار الكتب القاهرة ١٩٥٠ .

(٤) طيب تيزيني: المرجع السابق ص ١٨٢ .

فارس ، وظهر الزجاج في سورية وفلسطين ، كما انتج الملون منه في بغداد
والبصرة ، وطور العرب صناعة الورق التي اخذوها عن الصينيين فظهرت
بأشكال مختلفة كالورق الحريري وورق الكتابة والورق المقوى الخ ...
وازدهرت صناعة الروائع والعمود وهي تتطلب معارف كيميائية دقيقة (١) ...
وتفننوا أيضا في صناعة الذهب كما استخرجوا " الفضة والنحاس والحديد
والخزف والمرمر ... والملح والكبريت ... والقار والنفط (٢)
وانشئت أيضا دور للطراز والسجاجيد والمنسوجات الصوفية (٣) على
اختلاف أنواعها ، واشتهر نبيذ شيراز فصدر الى البلاد البعيدة (٤) وبذلك
اصبحت بغداد عاصمة الخلافة " مركز منطقة واسعة تضم مدنا صناعية
عديدة " (٥) وكانت هذه المصانع كلها تشغل يدا عاملة متنوعة من عرب
وموال ينتمون الى الشعوب التي دخلت في الاسلام حديثا .

(١) ي : هل : الحضارة العربية ص ٩٣ ترجمة احمد العدوي مكتبة الانجلو
المصرية القاهرة ١٩٥٦ و حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام الاجتماعي
والسياسي والثقافي ج ٢ ص ٣٠٨ - ٣٠٩ مكتبة النهضة المصرية
ط رابعة القاهرة ١٩٦٤

٢- سيديو : خلاصة تاريخ العرب : ص ١١٣ مط مصطفى فندي ط اولى القاهرة
١٣٠٩ هـ

(٣) حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ج ٢ ص ٣٠٨ - ٣٠٩

٤ - غوستاف لويون : حضارة العرب ص ١٧٣٠

٥ - ريجارد كوك : بغداد مدينة السلام ج ١ ص ٦٩ - ٧٠ ترجمة فؤاد

جميل مط شفيق ط اولى بغداد ١٩٦٢ .

ويمكن تقسيم تلك الصناعات الى المجموعات التالية :

آ - الصناعات المعدنية في دمشق والموصل ، ففي الاولى صنعت الاسلحة وفي الثانية صنعت الادوات النحاسية . (١)

ب - الصناعات النسيجية : حيث اشتهرت الانسجة الحريرية المشجرة في الشام وفارس والانسجة الكتانية في مصر وفارس كذلك والاقمشة القطنية في العراق وخراسان (٢) .

ج - الصناعات الغذائية : فقد صنع الزيت وماء الورد في الشام وفارس زيادة علم صناعة العطور (٣) .

د - الصناعات المختلفة : فقد اشتهر الزجاج والمابون المصنعان في الشام والبصرة ، والخزف والفخار في مصر وفارس والجلود والسروج في الشام ايضا ومصر وكذلك صناعة القوارب والمراكب ... الخ (٤) .

اما المعادن فقد كانت تستخرج من مناطق عديدة توزعت كما يلي :

- المغرب العربي : الذهب والفضة والمرجان .
- مصر والسودان : الذهب والفضة والزبرجد والشب والنطرون .
- الشام : الحديد والرخام والكبريت .
- الكويت وعمان : اللؤلؤ .
- الحجاز : الذهب .
- اليمن : العقيق والعنبر .
- كرمان : الذهب والفضة والحديد والنحاس والنشادر .

(١) انور الرفاعي : الاعلام في حضارته ونظمه ص : ٣٠٢

(٢) المرجع نفسه ص ٣٠١

(٣) المرجع نفسه ص ٣٠٢

(٤) المرجع نفسه ص ٣٠٣

- فارس : الفضة والحديد والرصاص والكبريت .
- بلاد ماوراء النهر : الذهب والفضة والزئبق والفحم الحجري .
- خراسان : الذهب والفضة والفيروز والرخام وطين الختم والنشادر والزئبق (١) .

ويبدو ان هذه الصناعات لم تكن كلها ملكا للدولة بل كانت ملكا خاصا لبعض الناس دليل الضرائب التي كانت تفرض عليها . وتجدر الملاحظة ايضا الى ان هذه الصناعات كان اغلبها يتبع الطرق البدائية ان لم نقل كلها وهذا يعني استخدام اليد العاملة بكثرة الامر الذي يولد على امتداد الامبراطورية الاسلامية فئة كبيرة للعمال من المفروض ان يكون لها دور في الاحداث الكبيرة التي عرفتها المنطقة في ذلك العصر . ولكن هذا لا يعني اننا نتناسى الفترة التاريخية اى ان القوة العاملة في تلك المرحلة لم تكن تملك الوعي الكافي باهميتها وبدورها في المجتمع ، ومن المؤسف ان المصادر القديمة لم تشر الى هذه الفئة ولا الى الظروف التي كانت تعمل فيها ولا الى الاساليب المتبعة في العمل في مثل تلك الورشات .

وطبعي لدى وجود صناعة كهذه ان تنشط الحركة التجارية بين اقاليم الدولة الاسلامية اولا وبين هذه الدولة ودول اخرى ثانيا ، فقد اصبحت العاصمة بغداد " محطة البضائع المجلوبة ... وسوقا يتم فيه تبادلها وشراؤها " (٢) .

ولهذا تعددت طرق التجارة بين هذه الاقاليم والدول ويكفي ان نتذكر رحلات التجارة التي كانت العرب تقوم بها صيفا وشتاء على الرغم من قسوة المساحة التي كانوا يحتلون بها بالمقارنة مع ما صارت عليه الدولة الاسلامية من اتساع وتنوع في العصر العباسي الاول .

(١) انور الرفاعي: الاسلام في حضارته ونظمه ص ٢٩٦

(٢) ريجارد كوك : بغداد مدينة السلام ج ١ ص : ٦٩ - ٧٠

وهذه قائمة بالمواد التي كانت تجلب من البلدان المختلفة إلى بلاد الاسلام :

- آ - كانت تجلب من الهند مواد كالذهب والقصدير والحجارة الكريمة والعاج وخشب الصندل والتوابل (١) والياقوت والاماس والعقاقير والارز (٢) .
- ب - وكان يجلب من الصين المسك والكافور والعود والحجارة الكريمة والخزف (٣) وكثرت مواد الصناعة الصينية حتى اقيم بسبب ذلك في شرقي بنگاد سوق صيني كامل (٤) .
- ج - وكان يجلب مما يعرف الان بالاتحاد السوفييتي السمور الاسود وجلود الخنزير والثعالب والبلور والرقيق (٥) .
- د - ومن بلاد ما وراء النهر كان يجلب الورق والسمور والسنجاب والثعالب والمسك (٦) .
- هـ - ومن فارس الادهان والزيوت العطرية والقطن والصوف والحريير وسباك الفضة والخفاف والسمور والامشاط والبسط (٧) .
- و - ومن الحبشة العقيق والعاج والجلود المدبوغة (٨) .

-
- (١) انور الرفاعي: الاسلام في حضارته ونظمه ص ٣٠٩ - ٣١١
- (٢) انيس المقدسي : امراء الشعر العربي في العصر العباسي ص ٥١ دار العلم للملايين ط ١١ بيروت ١٩٧٧
- (٣) انور الرفاعي : المرجع السابق ص ٣٠٩ - ١١
- (٤) ي - هل : الحضارة العربية ص ٩١
- ٥ - انور الرفاعي: المرجع السابق ص ٣٠٩ - ٣١١
- ٦ - ٧ - ٨ - انور الرفاعي: المرجع السابق ص ٣٠٩ - ٣١١

- ي - ومن سواحل افريقيا الشرقية العطور والاطياب وخشب الابنوس وريش النعام والذهب والعاج اضافة الى الرقيق الاسود (١) ...
- ك - ومن ارمينية البسط والوسائد والمقاعد (٢)
- ل - ومن مصر الحمر (٣) .
- ونظرا لكثرة هذه الواردات وتنوع مصادرها فقد فرضت على الاسواق ضريبة كالتى فرضت على الارض ويروى (٤) ان اول من فعل ذلك هو الخليفة ابو جعفر المنصور .

ب - الزراعة والاقطاع

كانت الزراعة هي العمود الفقري في اقتصاد العصر العباسي الاول ولم تكن هذه ميزة خاصة به وحده بل ان الانسانية كلها كانت تمر في ذلك الزمن بالمرحلة نفسها تقريبا ، حيث كان اعتمادها الاساسي على الزراعة قبل كل شيء ، وكذلك الحال في العصر العباسي مع العلم ان الانسانية على الرغم من التطور النسبي لم ترق الى المستوى الذى يجعلها تأخذ الصدارة ، وكانت الزراعة ايضا اكبر مصدر لجلب الاموال الى السلطة الحاكمة عن طريق الضرائب المطبقة عليها . ومن هنا نعرف مدى الاهمية التى اعطيت للزراعة كتشجيعها بجميع الوسائل (٥) ، حيث كانت الدولة ، كما قلنا سابقا

١٠ - ٢ - انور الرفاعي: الاسلام في حضارته ونظمه ص ٣٠٩ - ٣١١

٣ - انيس المقدسي : امراء الشعر العربي في العصر العباسي ص ٥١

٤ - محمد ضياء الدين الرئيس : الخراج والنظم المالية للدولة الاسلامية ص ٤٣١ مطب الانجلو المصرية ٢ القاهرة ١٩٦١

٥ - حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام الاجتماعي والسياسي والثقافي الخ .

ج ٢ ص ٢٧٧ وانيس المقدسي : امراء الشعر العربي في العصر العباسي

هي المالك الأكبر للأرض تتصرف فيها كما تشاء وكذلك تتصرف في المشتغلين فيها . ويمكن هنا ان نذكر قضية الاقطاعات المعروفة في ذلك العصر فقد ذكرت لنا مصادر التاريخ ان مناطق بكاملها كانت تقطع لبعض الاشخاص كتعويض على ولائهم للسلطان (١) .

وكانت الاراضي تؤخذ عنوة اذ كان بعض الولاة يفتصبها من اصحابها ويقطعها آخرين (٢) نظرا للاستغلال الذي كانوا يتمتعون به في اطار الدولة الواحدة . وهذا ما يسميه حسين مروة بالاقطاعية اللامركزية (٣) مما يساعد الولاة والعمال على التحول العملاكين كبار للارض ، ومن اجل المحافظة على مراتبهم تلك راحوا يرشون مركز السلطة في دار الخلافة بالاموال والهدايا التي اخذوها بالقوة من اصحابها ، فمن ذلك ان هارون الرشيد كان مرة جالسا للنظر في الهدايا وكان بجانبه يحيى البرمكي ، فقال الرشيد : " اين كانت هذه الاشياء ايام ابنك الفضل؟ فقال يحيى : اطلال عمر امير المؤمنين ، لقد كانت هذه الاشياء ايام ولاية ابني الفضل في بيوت اهلها في مدن العراق وخراسان " (٤) . وكانت هذه الهدايا التي تحدث عنها الرشيد كثيرة جدا وربما غالى الرواة فيها بعض الشيء لكنها مع ذلك تبين لنا ان الولاة كانوا يأخذونها من اصحابها ويرشون بها الخليفة حتى يحافظوا على مراتبهم . وهذا يعني من جهة اخرى انهم كانوا يستعملون جميع الوسائل الممكنة للحصول على الاموال حتى

(١) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج ١ ص ٨٥ - ٨٦ مكتبة الخانجي ط اولي القاهرة ١٩٣١ .

(٢) ابو يوسف : كتاب الخراج ص : ٧٢ المطبعة السلفية القاهرة ١٣٤٦ هـ

(٣) حسين مروة : النزعات المادية ج ٢ ص ٢٤

(٤) البيهقي : تاريخ البيهقي ص ٤٤٢ - ٤٤٣ ترجمة يحيى الخشاب وصادق

نشأت مك الانجلو المصرية ١٩٥٦ .

اشقلوا كواهل الفلاحين وجماهير الكادحين بالضرائب زيادة على سوء طرق
جبايتها .

ج - موارد بيت المال

=====

اهم موارد بيت المال في ذلك العصر هي الخراج والعشور (١) والزكاة
والغنيمة والجزية والفيء والمكوس واحياء الموات واستخراج المعادن
الخ ... (٢) ويمكن ان نعرف هذه الامور باختصار كما يلي:

١ - اما العشر فهو ضريبة على الارض مقدارها عشر غلتها نقدا او عينا
وهي تؤخذ على الاراضي التي اسلم اهلها وهم عليها بدون حرب، والتي
ملكها المسلمون عنوة وقسمها الخليفة عليهم وارض الموات اذا
كانت في ارض عشر الخ (٣) ..

ب - اما الزكاة : فهي ضريبة فرضها الله على المسلمين جميعا وهي
احد اركان الاسلام الخمسة التعبدية وهي ذات مصادر خمسة هي:

١ - زكاة السوائم والمواشي .

٢ - زكاة النقد (الفضة والذهب ، بعد ان يحول الحول ومقدارها
 $1/40$ او ٢٥ ٪ .

٣ - زكاة التجارة ومقدارها $1/40$ او ٢٥ ٪ بعد بلوغ النصاب
ويعد ان يحول عليها الحول .

٤ - زكاة المعادن والركاز اي المعادن الغفل والكنوز .

٥ - زكاة الزرع والثمار بعد بلوغ حد معين (٤)

ويتم انفاق الزكاة حسب قوله تعالى : " انما الصدقات للفقراء

(١) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام ج ٢ ص ٢٧٧

(٢) غوستاف لوبون : حضارة العرب ص : ١٧٢

(٣) انور الرفاعي : الاسلام في حضارته ونظمه ص ٢٢٣ - ٢٢٥

والمساكين والعاملين عليها والمولفة قلوبهم وفي الرقاب والفارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم" (١).

ج - اما الغنيمة فهي ما يكسبه المسلمون في الحرب وهي تتكون من اربعة اقسام هي : (اسرى ، سبي ، ارضين ، اموال) (١)

د - واما الجزية فهي مبلغ من المال يدفعه اهل الذمة مقابل حماية المسلمين لهم وهي تقابل الزكاة عند المسلمين وتسقط اذا اسلموا ولا تؤخذ على النساء والصبيان والشيخوخاء والطاعنين والعميان والمجانين ورجال الدين الخ .. (٢)

هـ - اما الفبيء فهو كل مال وصل من المشركين الى المسلمين عفوا من غير قتال الخ ... (٣)

و - اما المكوس فهي ضريبة عن كل تجارة برا او بحرا وهي اعشار السفن واعشار البضائع الواردة الى بلاد الاسلام واخماس المعادن الباطنة وغلة المستغلات والاموال التي لا وريث لها وما يخرج من البحر الخ" (٤)

ونظرا لاهمية هذا القطاع فقد اهتمت الدولة العباسية بالمسائل المالية اهتماما بالغاً ، ووضح دليل على ذلك هو البيانات المفصلة التي وصلت اليها عن دخل الدولة العباسية والتي ذكرتها مصادر عديدة عربية واجنبية (٥) . واما بيت المال ، نقدية او عينية ، كثيرة جدا حتى تبدو خيالية لاتكاد تصدق ، فلو عرفنا فقط تركت الخلفاء ، وهي مبالغ كانوا يقتطعونها من بيت المال ، بل كان بيت المال بيوتهم يتصرفون فيه كما يشاؤون ، لاندعشنا لتلك المبالغ . فقد ذكر ان تركة المنصور كانت ستمئة مليون درهم واربعة عشر مليون دينار فاذا فرضنا الدينار مساويا خمسة عشر درهما كان المجموع (٨١٠) مليون درهم واذا فرضنا الدرهم يساوي اربعة قروش مصرية ونصف القرش حاليا او خمسة

١ - ٢ - ٣ - ٤ - انور الرفاعي : الاسلام في حضارته ونظمه ص ٢٣٣ - ٣٢٢

٥ - ي - هل : الحضارة العربية ص : ٨٩

٦ - سورة التوبة ، آية (٦٠)

عشرة قرشا سوريا كان المجموع خمسمئة الف ليرة سورية ومئة وواحد وعشرين مليون ليرة سورية (١٢١٥ ٠٠ ٠٠٠) وهو مبلغ عظيم في ذلك الوقت ولاستبعد امكانية المغالاة فيمثل هذه الأرقام لكن الدولة في ذلك الوقت امتدت رقعتها شرقا وغربا وشملت مناطق غنية ولم يكن الحصول على تلك المبالغ شيئا مستحيلا .

ويروى (١) ايضا ان الممول اليريت المال فيعهد الرشيد كان سبعة الاف وخمسة قنطارا سوريا وذلك يعادل الكثير غير الضريبة العينية التي تشمل الحبوب والانسجة وغيرهما وقد بلغ دخل الدولة الاجمالي في عهد الرشيد في بعض السنين (٥٣٠ ٣١٢٠٠٠) درهما و (٤٥٠٠٠٠٠) ديناراً (٢) هذا وكانت تركة الرشيد على الرغم من التبذير والاسراف اللذين شهرا بهما تسعسة مليون درهما (٩٠٠٠٠٠٠٠) درهما (٣) .

وكان اهم مورد لجلب المال هو الخراج ولذا سنتوقف عنده بعض

الشيء .

د - الخراج

أ- تعريف الخراج :

هو مقدار معين من المال او من المحصول او منهما معا يؤخذ عن الارض التي فتحها المسلمون عنوة اذا ما عد الخليفة عن تقسيمها على المحاربين ، ويؤخذ عن الارض التي افاء بها الله على المسلمين

(١) احمد شلبي : في قصور الخلفاء العباسيين ص ٦٦-٦٧ مك الانجلو المصرية القاهرة ١٩٥٤

(٢) احمد فريد رفاعي : عصر المأمون ج ١ ص ١٣٥ مط دار الكتب المصرية طبعة رابعة القاهرة ١٩٦٨ .

(٣) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٢٨٨ تحقيق مصطفى السقا ، مصطفى البابي الحلبي ط اولى القاهرة ١٩٣٨ .

فملكوها ومالحوها أهلها على أن يتركوهم بخراج معلوم يؤدونه إلى بيت المال (١) أما الأرض التي لأخراج عليها فتسمى عشيرة حيث تأخذ الدولة عشر منتوجها .

٢- طرق الخراج :

كان الخراج منذ فجر الدولة الإسلامية إلى عهد الخليفة المهدي يستعمل طريقة المساحة ومعناها ضريبة معينة تقدر على مساحة معينة من الأرض تجبى سنوياً دون النظر إلى العوامل الطبيعية والظروف الخاصة بالأرض وأصحابها (٢) والتي كانت تؤثر على إنتاج الأرض كثيراً ما كانت تختلف كميات المحصول من سنة لأخرى، لكن الدولة لم تكن تراعي ذلك حيث بقيت الضريبة ثابتة ، وفي هذا أجحاف وضرر لأهل الخراج .

ولما تولى المهدي الخلافة أراد أن يبدأ عهده بتحسين ظروف معيشة الرعية حتى يمتص غضبها ونقماتها وحتى لا يترك للخصوم فرصة يؤلبون بها الناس على السلطة أو منفذا للداعيين إلى العدالة يدخلون منه في صراع مع العباسيين ونفوذهم . بدأ عهده إذا بالعدول عن نظام المساحة والعمل بنظام المقاسمة (٣) ، فحدث بذلك تطور بالغ الأهمية بين السلطة والرعية لأن هذا النظام كان عموماً ومن حيث المبدأ ، في صالح الفلاحين والمزارعين ، حيث تتقاسم الدولة مع الأفراد المنتجين ما ينتج من محصول ينسب متفق عليها بغض النظر عن مقدار المساحة وبهذا يتغير الخراج بتغير كميات المحصول (٤).

(١) حسن إبراهيم حسن : النظم الإسلامية ص ٢٦٥ مكتبة النهضة المصرية ط ١ الأولى القاهرة ١٩٣٩

(٢) ضياء الدين الرئيس : الخراج والنظم المالية في الدولة الإسلامية ص ٤١٧

(٣) ضياء الدين الرئيس : المرجع نفسه ص ٤١٦ - ٤١٧

٤- ضياء الدين الرئيس : المرجع نفسه ص : ٤١٧

وقام بتنفيذ هذا النظام ابو عبيد الله ، وزير المهدي ، فحدد نسب المقاسمة كما يلي : النصف على الاراضي التي تسقى سيحا (١) والثلث على الاراضي التي تسقى بالدوالي * والربع على تلك التي تسقى بالدوالي (٢).

٣- التشدد في الخراج :

رأينا من قبل ما امتلأت به خزائن الدولة من مبالغ ضخمة وكان أغلبها جاء من الخراج الذي كان ينقل سنويا الى مركز الخلافة بعد ان يصرف شيء منه على الاقاليم وكان في كل اقليم عامل او عمال يقومون بحماية الخراج وكانت مهمتهم هي الحصول على الضريبة المفروضة بشتى الوسائل والطرق ومنها التعذيب الجسدي بجميع اصنافه ، فقد ذكر الجهشيارى (٣) ان المهدي امر ان يعامل اهل الخراج باللين واليسر ويحث بالرسل الى جميع العمال برفع العذاب عنهم ، وهذا دليل واضح على ان المزارعين كانوا يعذبون في جميع الاقاليم . لم يستفد المزارعون من هذا القرار العادل لان المصادر التاريخية تنبئنا انهم بقوا يعذبون على امتداد الدولة الجاسية . كان هذا القرار شعاع نور بسيط في ليل طويل من الظلم والاضطهاد والتعسف في جباية الخراج ، جعل خزائن الدولة تمتلئ بالدراهم وبدنانير الذهب على حساب الجماهير الكادحة . وبهذا وقعت الدولة فينطأ كبير ، فانها كها للمزارعين هو انهاك لها ايضا ، اذ جلا اكثر الناس عن الاراضي بسبب القهر وثقل الضرائب فتركوها خرابا . ولعل اصدق تعبير عن هذه الفكرة ما قاله جعفر بن يحيى من ان :

(١) سيحا : اي تسقى بالماء الجاري (لسان العرب)

* الدوالي : جمع دالية وهي شيء يتخذ من خوص خشب يسقى به بحال تشد في رأس جذع طويل (كتاب الخراج ليحيى بن آدم تحقيق ابي الاشبال احمد محمد شاكر ص ١١٥ المطب السلفية القاهرة ١٣٤٧ هـ .

(٢) ضياء الدين الريس الخراج والنظم الاسلامية ص (٤٢)

(٣) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ١٤٢-١٤٣

" الخراج عماد الملوك ٠٠٠ واسرع الامور في خراب البلاد تعطيل الارضيين وهلاك الرعية وانكسار الخراج من الجور ، ومثل السلطان اذا اجحف بأهل الخراج حتى يضعفوا عن عمارة الارضين مثل من يقطع لحمه ويأكله من الجوع ، فهو ان شبع من ناحية فقد ضعف من ناحية اخرى ، وما ادخل على نفسه من الضعف والوجع اعظم مما دفع عن نفسه من الم الجوع
واذا ضعف المزارعون عجزوا عن عمارة الارضين فيتركونها فتخرب الارض ويهرب المزارعون فتضعف العمارة ويضعف الخراج وينتج من ذلك ضعف الاجناد واذا ضعف الجند طمع الاعداء في السلطان" (١) .

ولاهمية الخراج طلب هارون الرشيد من ابي يوسف ، قاضي القضاة ان يؤول له كتابا في هذا الشأن ، وموضوعات هذا الكتاب تغنيانا عن التعليق عليه حيث تتناول موارد بيت المال والطرق المثلي لجبايتها والشؤون التي تصرف فيها . لكن الذي يهمنا منه ان صاحبه شاهد معاصر على الاساليب البشعة التي كان يتبعها عمال الخراج في الحصول على الاموال حين يقول : " انهم - (عمال الخراج) - يأخذون ذلك فيما بلغني بالعسف والظلم والتعدي" (٢) ويقول ايضا : " انهم يقيمون اهل الخراج في الشمس ويضربونهم الضرب الشديد ويعلقون عليهم الجرار مويقيدونهم بما يمنعهم من الصلاة وهذا عظيم عند الله ، شنيع في الاسلام" (٣) .
حدث كل هذا بعد ان اصدر المهدي امره بالكف عن تعذيب المزارعين الذين كانوا قبله يعذبون بالسباع والزنابير والسنانير. (٤)

(١) الابشيهي : المستطرف في كل فن مستظرف : ج ١ ص ١٠٨ مطدار الفكر بيروت مصورة عن مط الاستقامة مصر ١٣٧٩ هـ .

(٢) ابو يوسف : كتاب الخراج ص ١٢٨

(٣) ابو يوسف : المرجع نفسه : ص ١٣١

(٤) الجبشيارى : الوزراء والكتاب ص ١٤٢ - ١٤٣

ونجد على امتداد العصر العباسي الاول نصوصا كثيرة تدل على التشدد واستعمال جميع الطرق والحيل لاختاد اموال الناس ، ففي سنة (١٥٥ هـ) لجأ المنصور الرحيلة اراد بها معرفة عدد سكان البصرة والكوفة حتى يجيبهم عن اخرهم ، فأمر ان يقسم فيهم خمسة دراهم لكل فرد ، فلما عرف عددهم امر بجبايتهم اربعين درهما لكل فرد فقال شاعر منهم بسخرية مؤلمة: (١)

من امير المؤمنين

يا القوسي ما لقينا

وجانا الاربعينا

قسم الخمسة فينا

ويذكر الكندي (٢) ان موسى بن مصعب تشدد في استخراج الخراج بمصر وزاد على كلفدان ضعف ما تقبل به ولجأ الى الرشوة في الاحكام وجعل هدية على الاسواق والدواب مما جعل الشاعر يقول :

يفعله موسى وايوب

لويعلم المهدى ما الذي

بأرض مصر حين طلبها لم يتهم فيها لنمخ يعقوب

وطبعي ان امرا كهذا كان سيواجه من قبل المزارعين والفلاحين بالرفض الذي يتمثل عادة في الامتناع عن دفع الخراج اولا ثم الثورة على صاحب تلك القوانين الجائرة ثانيا .

وهذا الخليفة هارون الرشيد نفسه عندما عاد مرة الى بغداد من

احدى رحلاته اخذ الناس بالبقياء فتم استخراجها بالضرب والحبس. (٣)

وفي عهده ايضا اساء واليه على المؤمل ، يحيى بن سعيد ، السيرة في اهلها وظلم الناس وطالبهم بخراج سنين مضت فجلا اكثر اهل البلد . (٤) وفي عهد الرشيد كذلك عين على خراج مصر اسحاق بن سليمان الهاشمي

(١) الطبري تاريخ الرسل والملوك: ج ٨ ص ٤٦ تحقيق محمد ابي الفضل ابراهيم دار المعارف بالقاهرة ١٩٦٧ وابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٦ ص ٥ مط دار صادر ودار بيروت ١٩٦٥

(٢) الكندي: الولاة والقضاة ص ١٢٥ مط الالباء اليسوعيين تهذيب رفن كست بيروت ١٩٠٨

(٣) الطبري : المصدر السابق ج ٨ ص : ٢٧٢

(٤) ابن الاثير : المصدر السابق ج ٦ ص : ١٥٣

بعد عزل عبدالله بن المسيب ، فاختد اسحاق هذا فيا عادة النظر في امر
اخراجها فلم يرضه ما كان يؤخذ منهم من قبل وزاد عليهم زيادة فاحشة
فكرهه الناس لذلك ساء موه فخرجت عليه جماعة من اهل الحوف من قبيلتي
قيس وقضاة فحاربهم . (١) وكان علي بن عيسى الذي قتل
اهلها وجمع اموالاً جلييلة وحمل الى الرشيد الفبدرة حريرة فيها عشرة
الان درهم . (٢) وفي زمن الواثق بالله كان محمد بن عبد الملك الزيات يعذب
المصادرين والناس في تنور به مسامير . (٣) *

هذه فكرة بسيطة عن الاساليب التي كان يلجأ اليها عمال الخراج
والولاة في استخراج الخراج من المزارعين ، وامر كهذا كان لابد ان يعود
على الاقتصاد الوطني للدولة الاسلامية بنتائج سلبية لان تلك القوانين
الباخرة والتي اثقلت كاهل الفلاحين جعلتهم يرحلون ويتخلون عن
فلاحة الارض زيادة على الثورات التي تسببت فيها تلك المعاملات القاسية *

٤- الزيادة في الخراج :

هذا التشدد فيجباية الخراج مرده الى ان المزارعين لم يكونوا
يستطيعون دفع ما فرض عليهم من الضرائب التي كان بعض العمال او الولاة
يزيدون فيها باستمرار ، فنتج عن ذلك كثير من التذمر الذي تلتته الانتفاضات
والثورات .

(١) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج ٢

ص ٨٧ دار الكتب المصرية ط اولى القاهرة ١٩٣٠

(٢) الجبشيارى : الوزراء والكتاب ص ٢٢٨

(٣) ابن الطقطقي : الفخرى في الاداب السلطانية ص ٢١٤ المط الرحمانية

والامثلة على تلك الزيادة المجحفة في الخراج كثيرة جدا فكما ذكرنا سابقا لم يرض والي مصر ، اسحاق بن سليمان ، بما كان يؤخذ من قبل فزاد على القوم زيادة ادت بهم الى الخروج عليه ومحاربتة (١) وامتنعوا مرة اخرى على اداء ضريبة الخراج في ولاية الحسين بن جميل مما اضطر الدولة العمريتهم واخذها بالقوة (٢) وحتى الخليفة المأمون نفسه له قصة مع اهل قم الذين طمعوا في ان يخفض عنهم الخراج كما فعل مع اهل الري ، لكنه لم يستجب لطلبهم ، فامتنعوا عن تاديبه ما فرض عليهم فوجه المأمون اليهم الجيوش وزاد عليهم في الخراج فجمعوا سبعة الاف الف درهم بعد ان كانوا يتظلمون من الفي الف درهم (٣) .

ولاداعي للاكثار من الامثلة ففي هذا الكفاية ، والملاحظ ان المصادر ذكرت لنا احوال اهل مصر اكثر من غيرهم حتى بدوا وكأنهم هم وحدهم الذين كانوا يشعرون على تلك القوانين الضريبية الظالمة ، لكن ممن المؤكد ان سكان الاقاليم الاخرى كانوا يلجؤون ايضا الى الثورة اذا ما احسوا بالظلم على الرغم من ان المصادر لم تذكر ذلك الا قليلا لان الكتب التي وصلت اليها كتبها اما مصريون او عراقيون بمعنى اخر كتبها من كانوا يسكنون مصر او العراق ولم يقيض للاقاليم الاخرى رجال ليكتبوا عنها او ان ما كتب عنها قد ضاع لان العادة عند المؤلفين القدامسى جرت على كتابة تواريخ الاقاليم كتاريخ الموصل وتاريخ واسط وما

الذلك .

(١) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ٢ ص : ٨٧

(٢) الكندي : الولاة والقضاة : ص : ١٤٣

(٣) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٨ ص ٦١٤

٥ - خراج الاقاليم :

كان خراج الولايات اما نقديا او عينييا اوهما معا . وكان هذا الخراج يوءى به الدار الخلافة ببغداد في اوقات محددة . ويذكر لنا الثعالبي نماذج من ذلك ، فقد كان يحمل سنويا ثلاثون الف تفاعه مع خراج حمص ودمشق الذى بلغ اربعمئة الف دينار (١) . وكان خراج الاهواز سنويا خمسة وعشرين الف درهم مع ثلاثين الف رطل من السكر (٢) ، وكان يحمل مع خراج ارمينية والذى قدره ١٣ الف الف درهم ثلاثون بساطا محفورا وثمانون قطعة من الرقم وثلاثون بازيا ، وكان خراج اصبهان واحدا وعشرين مليون درهم مع عشرين الف رطل من العسل ومثلها من الشمع (٣) . ويبلغ خراج الموصل اربعة وعشرين مليون درهم مع عشرين الف رطل من العسل (٤) وحمل من الرى مئة الف من الرمان والف رطل من الخوخ المقدد مع خراجها الذى كان اثنى عشر مليون درهم (٥) . اما مصر فقد كان يضرب بها المثل في الكثرة عينا ونقدا ، فقد كانت الخيل والدواب ودق الطرز مع خراجها الذى بلغ في بعض السنين اربعة ملايين دينار (٦) .

(١) الثعالبي: ثمار القلوب فيها المضاف والمنسوب ص: ٥٣٢ تحقيق محمد ابي

الفضل ابراهيم ، دار نهضة مصر ١٩٦٥ م

(٢) المرجع نفسه ص ٥٣٧

(٣) الثعالبي : المرجع نفسه ص ٥٣٨

(٤) الثعالبي : المرجع نفسه ص ٥٣٨

(٥) الثعالبي: المرجع نفسه ص ٥٣٩

(٦) الثعالبي : المرجع نفسه ص ٥٣٠

وربما كانت هذه الأرقام مبالغاً فيها غير أن كتب التاريخ حفلت
لنا قاعدتين للخراج في عهد الرشيد والمأمون تؤكدان الوجد هذه الأرقام.
والملاحظ أن القاعدتين متشابهتان وربما كانتا في عهد خليفة واحد ، وهما :

أولاً : مورة لقائمة من قوائم الخراج في عهد الرشيد (١) :

١ -	اثمان وغلالت السواد :	٨٠ ٧٨٠ ٠٠٠	درهم
٢ -	ابواب المال بالسواد :	١٤ ٨٠٠ ٠٠٠	=
٣ -	كسكر :	١١ ٦٠٠ ٠٠٠	=
٤ -	كوردجلة :	٢٠ ٨٠٠ ٠٠٠	=
٥ -	طوان :	٤ ٨٠٠ ٠٠٠	=
٦ -	الاهواز :	٢٥ ٠٠٠ ٠٠٠	=
٧ -	فارس :	٢٧ ٠٠٠ ٠٠٠	=
٨ -	كرمان :	٤ ٢٠٠ ٠٠٠	=
٩ -	مكران :	٤٠٠ ٠٠٠	=
١٠ -	السند وما يليها :	١١ ٥٠٠ ٠٠٠	=
١١ -	سجستان :	٤ ٦٠٠ ٠٠٠	=
١٢ -	خراسان :	٢٨ ٠٠٠ ٠٠٠	=
١٣ -	جرجان :	١٢ ٠٠٠ ٠٠٠	=
١٤ -	قومس :	١ ٥٠٠ ٠٠٠	=
١٥ -	طبرستان والريان ودنياوند :	٦ ٣٠٠ ٠٠٠	=
١٦ -	الري :	١٢ ٠٠٠	=
١٧ -	اصفهان :	١٢ ٠٠٠	=
١٨ -	همدان ودستبي :	١١ ٨٠٠ ٠٠٠	=
١٩ -	البصرة والكوفة :	٢٠ ٧٠٠ ٠٠٠	=

(١) الجيشاري : الوزراء والكتاب ص ٢٨١ حتى ص ٢٨٨

٢٠ -	شهرزور ومايليها	٢٤.٠٠٠ ٠٠٠	درهم
٢١ -	الموصل ومايليها	٢٤ ٠٠٠ ٠٠٠	=
٢٢ -	الجزيرة والديارات والفرات :	٣٤ ٠٠٠ ٠٠٠	=
٢٣ -	اذربيجان	٤ ٠٠٠ ٠٠٠	=
٢٤ -	موقان وكرخ	٣٠٠ ٠٠٠	=
٢٥ -	جبلان	(مئة رأس الخ ٢٠٠)	
٢٦ -	ارمينية	١٣ ٠٠٠ ٠٠٠	درهم
٢٧ -	قنسرين والعواصم	٤٩٠ ٠٠٠	دينار
٢٨ -	حمص	٣٢٠ ٠٠٠	=
٢٩ -	دمشق	٤٢٠ ٠٠٠	دينار
٣٠ -	الاردن	٩٦ ٠٠٠	=
٣١ -	فلسطين	٣٢٠ ٠٠٠	=
٣٢ -	مصر	١ ٩٠٠ ٠٠٠	=
٣٣ -	برقة	١ ٠٠٠ ٠٠٠	درهم
٣٤ -	افريقية	١٣ ٠٠٠ ٠٠٠	=
٣٥ -	اليمن سوى الثياب	٨٧٠ ٠٠٠	دينار
٣٦ -	مكة والمدينة	٣٠٠ ٠٠٠	=

ويكون الورق * مع العين اوقيمة العين : خمس مئة الف الف
 وثلاثين الف الف وثلاث مائة الف واثنى عشر الف درهم اوبلغة عصرنا :
 خمسة مئة وثلاثون مليون درهم وثلاث مئة واثنى عشر الف درهم *
 صورة اخرى لقائمة من قوائم الخراج ولكن في عهد المأمون : (١)

* الورق : الدراهم المضروبة وربما سميت الفضة ورقا (لسان العرب)

(١) احمد فريد الرفاعي : عصر المأمون : ج ١ ص ٣٢٠ - ٣٢٢

درهم	٢٧٨٠٠٠٠٠٠	١ - السواد
=	١١٦٠٠٠٠٠٠٠	٢ - كسكر
=	٢٠٨٠٠٠٠٠٠٠	٣ - كوردجلة
=	٤٨٠٠٠٠٠٠٠٠	٤ - حلوان
=	٢٥٠٠٠٠٠٠٠٠٠	٥ - الاهواز
=	٢٧٠٠٠٠٠٠٠٠٠	٦ - فارس
=	٤٢٠٠٠٠٠٠٠٠٠	٧ - كرمان
=	٤٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠	٨ - مكران
=	١٦٥٠٠٠٠٠٠٠٠٠	٩ - السند وسايليه
=	٤٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠	١٠ - سبستان
=	٢٨٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠	١١ - خراسان
=	١٢٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠	١٢ - جرجان
=	١٥٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠	١٣ - قومس
=	٦٣٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠	١٤ - طبرستان والريان ودنياوند
=	١٢٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠	١٥ - السرى
=	١١٣٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠	١٦ - همدان
=	١٠٧٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠	١٧ - البصرة والكوفة
=	٦٧٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠	١٨ - شهرزور
=	٢٤٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠	١٩ - الموصل ومايلها
=	٤٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠	٢٠ - اذربيجان
=	٣٤٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠	٢١ - الجزيرة
=	١٣٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠	٢٢ - ارمينية
=	١٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠	٢٣ - برقة
=	١٣٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠٠	٢٤ - افريقية

دينار	٤٠٠ر٠٠٠	٢٥ - قنسرين
=	٤٢٠ر٠٠٠	٢٦ - دمشق
=	٩٧ر٠٠٠	٢٧ - الاردن
=	٣١٠ر٠٠٠	٢٨ - فلسطين
=	٢٩٢٠ر٠٠٠	٢٩ - مصر
=	٣٧٠ر٠٠٠	٣٠ - اليمن
=	٣٠٠ر٠٠٠	٣١ - الحجاز

ويكون المجموع بالدرهم بعد تحويل الدينار على اساس ان الدينار يساوي ١٥ درهما : اربع مئة وثمانية وتسعين مليون وثمان مئة وخمسة وخمسين الف درهم اي : (٤٩٨٨٥٥٠٠٠) درهم .

و - ظاهرة الاستصفاة

=====

انها ظاهرة قلما نجا منها وزير حتى في العصور المتخلفة للدولة العباسية ولعل السبب في ذلك بدون تعميم - يعود العتكال بالاولئك الوزراء على جمع الاموال بشتى الطرق مطبقين بذلك مبدأ الخليفة المنصور نفسه حين اوصى ابنه المهدي بانه لا يزال عزيزا مادام بيت ماله عامرا (١) وهي ظاهرة قديمة بدأت مع فجر الدولة الاسلامية فقد كان عمر بن الخطاب يحاسب الولاة لدى عزلهم ويأخذ منهم ما زاد على اموالهم الاصلية ، اما في العصر العباسي الاول فانها سنة سنّها ابو جعفر المنصور بعزل وزيره المورياني ومصادرته واستصفاة ماله وجسه (٢) ولا تهمنا كثيرا الاسباب

(١) ضياء الدين الريس : الخراج والنظم المالية للدولة الاسلامية ص ٤١٥

(٢) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ج ٢ ص ٢٤

التي كان الخلفاء يعزلون من اجلها وزراءهم فريما كانت وجيبة كشكوى
الناس من ظلم بعضهم ويطشعه وربما كانت ذاتية او لظروف سياسية
معينة او فقط من اجل الحصول على المال لان هذه الظاهرة عمت بعد ذلك
سائر رجالات الحكومة بل وحتى الرعية واصبحت اسرع مصدر للحصول
على المال (١) لكن الذى يهمنى هو تلك الاموال المكسدة التي وجدت
عندهم لدى عزلهم واستصفاهم . من اين اخذوها وكيف تحصلوا عليها ؟
فقد عزل المهدي ابراهيم بن صالح واليه علم مصر واخذ منه ومن عماله
ثلاث مئة الف دينار . (٢) اما جعفر بن يحيى فقد وجد فيداره بركة
فيها اربعة الاف دينار وزن كل واحد منها مئة دينار ودينار كتب على
الوجه الاول منه :

وامفر من دار الملوك يلوح على وجهه جعفر

وعلى وجهه الثاني كتب :

يزيد على المئة واحدا اذا ناله معسريسر (٣)

ويروى ايضا ان عثمان بن عمار كان على سجستان ايام الرشيد فطولب
بخمسة الاف درهم وحبس (٤)

وفي عهد المأمون طغى والي اذربيجان ، علي بن هشام ، طغيانا
شديدا فظلم الناس واخذ منهم الاموال مما حمل المأمون على قتله (٥)

(١) احمد فريد رفاعي: عصر المأمون ج ١ ص ٣١٢

(٢) ابن تغرى بردى : المرجع السابق ج ٢ ص ٤٩ وما بعدها

(٣) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ٢٤١

٤ - ابن الجراح : الورقة ص ١٦ تحقيق عبدالوهاب عزام وعبدالستار فراج

مط دار المعارف ، الطبعة الثانية القاهرة ١٩٥٣

٥ - ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٦ ص ٤٢٦

وفيها يام المعتمد عزل الوزير الفضل بن مروان وصادر فأخذت منه أموال كثيرة يقول البيهقي (١) أنها بلغت مليوناً وستمائة ألف دينار بينما يقول ابن تغري بردي (٢) أنها كانت عشرة آلاف دينار .

أما الواثق فقد التفت إلى الكتاب فحبسهم وفقد أخذ من أحمد بن إسرائيل ثمانين ألف دينار ومن سليمان بن وهب أربعة عشر ألف دينار، ومن إبراهيم بن رباح وكتابه مئة ألف دينار ومن أحمد بن الخصيب وكتابه مليون دينار ومن نجاح ستين ألف دينار ومن أبي الوزير مئة وأربعين ألف دينار (٣) .

كما لاحظنا من قبل كانت الأموال التي تأتي إلى دار الخلافة كثيرة جداً ومع ذلك فقد كان الخلفاء يلجؤون إلى ظاهرة الاستمحاء هذه وذلك لأنهم كانوا بحاجة إلى المال باستمرار وهذا ناتج عن سوء التخطيط لأنهم لم يعرفوا كيف يستفيدون من تلك الأموال ثم أنهم كانوا يبذرونها في وجوه لانفع عاماً فيها بل كان بعضهم يصرفها على ملذاته ويهمل حق الشعب في تلك الأموال ، هذا مع العلم أن الفقه الإسلامي حدد وجوه صرف أموال المسلمين . وكانت هذه التحديدات معروفة لكن أحداً لم يكن يطبقها من الخلفاء العباسيين إلا في بعض الأمور النادرة .

(١) البيهقي : المحاسن والمساوي ص ٥٣٠ دار صادر بيروت ١٩٧٠

(٢) ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ٨٣٣

(٣) ابن الأثير : المصدر السابق ج ٧ ص ١٠

الفصل الثاني الحالة السياسية

- ١ - تمهيد :
- آ - تنظيم الدعوة العباسية
- ب - القتلى الامويين

- ٢ - الواجهة السياسية :
- آ - تذمر الناس من بني العباس
- ب - الحزب الحاكم : العباسيون
- ج - احزاب المعارضة :
- ١ - الشيعة
- ٢ - الخوارج
- د - الثورات والانتفاضات .

تمهيد :

دام حكم بني امية حوالي مئة عام اى منذ مقتل علي بن ابي طالب كرم الله وجهه الى ان انتصر السفاح على مروان بن محمد ، لكن في الحقيقة دام حكمهم اكثر من ذلك ، فمنذ ان اصبح عثمان بن عفان خليفة وشوكتهم تزداد قوة ، فجعلوا من الشام مركزا لهم وبقي معاوية ابن ابي سفيان فيها مدة طويلة يتصرف وكأنه هو الخليفة .

لقد عانى الشعب خلال حكمهم وعرف الولايات تلو الولايات وخاصة اولئك الوافدون الجدد على الاسلام اذ كانت دولة بني امية تتعصب للعرب ولعل هذه المقولة التي اطلقها الجاحظ فيها شيء من المبالغة لان العرب لم يستفيدوا من بني امية اللهم اولىئك الاغنياء الذين هم في اغلب الاحيان رؤساء قبائل ، اما عامة العرب فكانت كغيرهم من الموالي .
لقد ناقض الامويون تعاليم الاسلام باحيائهم عصبية القبيلة ويكفي ان نتذكر نقاش جرير والفرزدق والاعرج ومدي انتشار انصار كل واحد منهم بين الناس لمعرفة مدى تلك الهوة التي حفرها بنو امية حتى يستطيعوا السيطرة على الملك لانهم كانوا يضربون العصبية بعضها ببعض فيلهو القوم عن المطالبة بتحسين اوضاعهم وما شله ذلك .

ثم ان بني امية هم اول سلالة حكمت المسلمين والعرب و جعلت الخلافة وراثية فيا سرة واحدة مما جعل الثورات عليهم تزداد يوما بعد يوم وخاصة من قبل الخوارج والشيعة حتى او هنوهم وتسببوا في انهزامهم اخيرا امام بني العباس .

آ - تنظيم الدعوة العباسية

=====

ليس في نيتنا ان نخوض في هذه المسألة التي تحدث عنها عدد كثير من الباحثين لكننا مع ذلك نقول ان الدعوة العباسية استفادت جدا من الحركات الثورية قبلها واعتبرت بها فتجنبت الاخطاء التي وقعت فيها تلك الثورات ؛ كانت الحركات من قبل تأتي محدودة في الزمان والمكان اعانها تنحصر في منطقة كالحجاز او الشام وترتكز في غالبيتها على العنصرية العربية . ولم تكن لها الجيوش الكافية والمنظمة تنظيما يساعدها على مواجهة القوات الحكومية على الرغم من شجاعة افرادها وصحة مبادئهم ومبكلمة واحدة كان ينقصها التخطيط الكافي المتناسي الذي ياخذ بالحسبان جميع الاحتمالات ويحتاط لشتى الظروف حتى يكسب لها النجاح .

الحركة العباسية قديمة فبالزمن اى ليست وليدة الفترة التي طفت فيها على السطح . كان القائلون عليها يخططون في صمت متبعين مبدأ التوقيّة حتى حانت الفرصة المناسبة فانقضوا على اعدائهم وخصومهم الامويين ولولا كفاءتهم لما استطاعوا التغلب عليهم ، فمن ذلك انهم اهتبلوا الفرصة التي كان فيها البيت الاموي ضعيفا منقسما على نفسه .

لنريد ان نبحث في الاسباب التي جعلت الثورة العباسية تقتصر لكن لا بأس لو قلنا انها كانت اى الثورة العباسية ، اعلنت برنامجا خاصا ساعدها على الانتصار بحيث استطاعت بفضلها ان تكسب الجماهير وان تجلب اليها العديد من المتذمرين ، واهم ما في هذا البرنامج هو تغيير الاوضاع التي كان يعيشها المجتمع العربي الاسلامي آنذاك فقد كانت الدولة تعامل المسلمين من غير العرب على انهم في مستوى اقل من العرب ، وكانوا

يحرمون من المناصب والمسؤوليات ، اما العرب فقد كانوا يقاسون من الظلم
ايضا وعدم تطبيق الشريعة الاسلامية في جميع الامور زيادة على الاوضاع
الاقتصادية المتردية التي كانوا يعانون منها جميعا ، عربا وغير عرب

واستغل العباسيون ورقة اخرى رابحة وهي قرابتهم من الرسول
صلى الله عليه وسلم ، ونحن نعرف مدى احترام الناس لهذه القرابة
وكيف كانت وما زالت مشغلا يحرك الجماهير ويدفع في قلوبهم الشجاعة
والحرارة والطمأنينة ، كانوا يتبركون بهذه القرابة ويرون فيها خلاصا
لهم ولأنهم ان شعار الدعوة العباسية كان : " الرضا من آل محمد " .

وكان ظاهر البرنامج براقا فقد كان العباسيون ينادون بحقوقهم
الوراثية في الخلافة على الرغم من ان الرسول (ص) نفى ان يورث
الانبياء ، وكانوا يروجون ان بني امية سلبوا السلطة وليسوا بأهل
لها وانهم ظلموا الناس وقهروهم واثقلوا عليهم بالخراج ، استغل
العباسيون اذا كل تلك الاوضاع ، فقد وجدوا في السخط العام على بني
امية خير معين يستقون منه الانصار ويكونون منه الجيوش ويجمعون الاموال
الامر الذي جعل هذه العناصر التي دخلت حلبة الحكم والسياسة ومنهم
الفرس - تلعب في مستقبل الدولة العباسية ادوارا خطيرة وتحتل المناصب
العالية حتى استحوذت على السلطة في اخر المطاف .

واشترك اخيرا في الثورة الفقراء والمعدمون من فلاحين وعبيد ،
والاغنياء المتوسطون الذين لم يكن لهم نفوذ في العهد الاموي ، والعرب
وغير العرب اضافة للجميع الفئات التي كانت شائرة من قبل على
الامويين .

بعد انتصار الثورة حصر العباسيون السلطة فيهم بعد ان كانوا
ينادون للرضا من آل محمد فابعدوا الشيعة بمختلف فروعها . ويدهشي

انهم جعلوا هذا الرضا منهم ، وكان عليهم حينئذ ان يظهروا بمظهر
 الائمة الاتقياء ، الأمرين بالمعروف والنهي عن المنكر ، وعلى هذا
 الاساس كان لخلفاء بني العباس وجهان بعد تلك الدعاية الضخمة التي
 قاموا بها اثناء ثورتهم من ان اولئك الملوك الامويين ابتعدوا بالخلافة
 الاسلامية عن اصولها وجعلوها كسوية وراثية ، وبعد كل هذا نجس
 للعباسيين حياتين ، عامة وخاصة . فمن جهة كان حكمهم يتخذ صيغة
 (التيوقراطية) بمعنى انهم خلفاء الله في ارضه وكانت هذه الصيغة
 هي : الشكل التاريخي (الايديولوجي) لهذه السيطرة (١) ومن جهة
 ثانية كانت لهم " شخصية مستورة هي شخصية الملوك المترفيين
 المدفوعين اجتماعيا وموضوعيا لان يستمتعوا بكل ماتحت ايديهم من
 الخيرات المادية التي تجبى لهم من جهد الآخرين " (٢) .

وقد وقع العباسيون في المزالق نفسها التي وصوابها النظام السابق ،
 فقد ادى نظامهم الى " حكم استبدادي من طراز اكاسرة الفرس السابقين " (٣) .

(١) حسين مروة : النزعات المادية في الفلسفة الاسلامية ج ٢ ص ١٩٨

(٢) المرجع نفسه : ج ٥ ص ١٩٨

(٣) ي - هـ : الحضارة العرقية ص : ٨١

ب - الفتك بالامويين

كانت معركة الزاب هي الفيصل في الصراع الذي برز الى السطح بين عباسيين والامويين ، فيومها انهزمت جيوش مروان بن محمد اخر خلفاء بني امية وتفرقت فلوله وبدأ الانتقام الكبير من المتهزمين حتى ان بعض الموءرخين يسمي اول خليفة عباسي بالسفاح لكثرة ماسفك من دماء بني امية واعماله السيف فيهم (١) وان كانت هناك تفسيرات اخرى لهذا اللقب .

وامر السفاح ولاته في الامصار والاقاليم بتتبع الامويين والقضاء عليهم اينما كانوا ، واستغل بعض الشعراء هذه المناسبة فراحوا يحرضون على قطع شجرة بني امية واستعمالها ، فقد ذكر ابن الاثير ان سديفا الشاعر دخل على السفاح وعنده سليمان بن هشام بن عبد الملك وقد اكرمه فقال سديف :

ان تحت الضلوع داء دويبا

لايفرنك من ترى من رجال

لاترى فوق ظهرها امويبا

فضع السيف وارفع السوط حتى

فقال سليمان : " قتلتني يا شيخ " . ودخل السفاح واخذ سليمان فقتل (٢) . وهناك رواية اخرى تحكى ان الشاعر العبدى دخل على عبد الله بن علي بفسطين وعنده من بني امية لؤثان وثمانون رجلا فانشد الشاعر قائلا :

(١) سيديو: خلاصة تاريخ العرب ص ١٠٦

(٢) ابن الاثير : الكامل ٤٢٩/٥ وابن الطقطقي : الفخرى في الاداب السلطانية

اما الدعاة الى الجنان فهاشم
بنو امية دوحة ملعونة
أُمي مالك من قرار فالحقي
ولئن رحلت لترحلين ذميمة
وبنو امية من دعاة النار
ولهاشم فيا لناس عود نزار
بالجن صاغرة بأرض وبار
وكذا المقام بذلة وصغار
فأمر عبدالله جنده فوضعوا علي بني امية العمدة حتى ماتوا • (١)
وثمة رواية اخرى حول عبدالله بن علي بفلسطين حين دخل عليه شبل بن
عبدالله مولى بني هاشم وعنده من بني امية ثمانون رجلا فانشد
شبل هذه الابيات وهم على الطعام: (٢) •

لاتقبلن عبد شمس عشارا
اقصمهم ايها الخليفة واقطع
ذلها اظهر التودد منها
ولقد غاظني وغاز سرائي
واقطعن كل نقلة وغراس
عنك بالسيف شافة الارجاس
وبها منكم كحر الهواسي
قربهم من نما رق وكراسي
انزلوها بحيث انزلها الله بدار الهوان والاتعاس

وقال احد شيعة بني العباس كذلك: (٣)
اياكم ان تلبينوا لاعتذارهم
لو انهم امنوا ابدوا عداوتهم
اليس في الف شهر قد مضت لهم
فليس ذلك الا الخوف والطمع
لكنهم قمعوا بالذل فانقمعوا
سقوكم جرعا من بعدها جرعا

-
- (١) ابن رشيقي : العمدة في صناعة الشعر ٤٧/١ تحقيق محمد محي الدين
عبد الحميد مط حجازي ط ١ القاهرة ١٩٣٤
(٢) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ٤٣/٥ ونسبها ابن المعتز الى سديف
ابن ميمون (طبقات الشعراء ص ٣٩ دار المعارف ط ٢ القاهرة ١٩٦٨
(٣) الاصفهاني: الاغانى ج ٤ ص ٣٥١ طبعة مصورة عن دار الكتب •

حتى اذا ما انقضت ايام مدتهم
هيهات لابد ان يسقوا بكأسهم
اياكم ان يقول الناس انهم
متوا اليكم بالارحام التي قطعوا
ريا وان يحصد الزرع الذي زرعوا
قد حكموا ثم ماضوا ولا نفعلوا
ولكن يجب الا نظن ان هؤلاء الامويين قتلوا بسبب هذا الشعر فما قول
سديف وشبل الا حلقة بسيطة في سلسلة الانتقام التي كان يبيت
لها العباسيون منذ زمن طويل والتي اوجبتها ظروف موضوعية وذاتية
معاً في مراحلها المختلفة

٢- الواجهة السياسية

آ- تذمر الناس من بني العباس :

قبل ان نتحدث عن الاحزاب السياسية في العصر العباسي الاول لابد
لنا من نظرة سريعة عن موقف الناس من العباسيين والذي يمكن ان
يدفعهم لان يتضموا لهذا الحزب او لذاك . لقد انتصر العباسيون بسبب
برنامجهم المعلن وهو (الدعوة للرضا من آل محمد) حيث يجلب هذا
الرضا الطمأنينة للعباد ويقيم العدل والعدالة بينهما ويرسي
المساواة التي نادى بها الاسلام والتي خرج عنها بنو امية فينظر
الكثير من الشعوب الداخلة في الاسلام حديثا ، فمن ذلك ان نشطت
ظاهرة استفحلت فيما بعد وهي ظاهرة الشعوبية التي ينظر اليها
الكثير من الباحثين على انها سلبية وهي كذلك غير انها جاءت نتيجة
ظروف معينة تسببت فيها سياسة الامويين من قبل والعباسيين من بعد ،
وكأن من بعض معانيها الاستقلال الوطني او الوطنية .
جاءت الدعوة العباسية اذا مطمحا لمختلف الشعوب التي كانت تهيم

عليها السيادة الاموية ، دعوة تفاعل الناس بقرابة القائمين عليها
من الرسول (ص) ، وكانت آمالهم عريضة في التغيير من ذلك الوضع
ونشدان المثل الاعلى للعدالة والمساواة .

وبعد فترة استتب الامر للحكام الجدد وهلل الناس لذلك لكن انكشف
الامر في فترة قصيرة وجلا كل خفي فتبين للقوم ان ليس " جور النظام
العباسي وعسفه ... بأقل من النظام الاموي " (١) فبعد سنة واحدة
فقط من تولي بني العباسي السلطة بقيادة السفاح " خرج شريك بن شيخ
المهري ببخارى على ابي مسلم ونقم عليه وقال : ما على هذا اتبعنا آل
محمد ، ان تسك الدماء وان يعمل بغير الحق ، وتبعه على رأيه اكثر
من ثلاثين الفا ... " (٢) وهكذا بدأ التذمر ينتشر شيئا فشيئا
بين الناس حتى تحول فيما بعد الى ثورات كثيرة انهكت الدولة العباسية .
فقد ذكر الاصمعي ان المنصور " لقي اعرابيا بالشام فقال : احمد الله
يا اعرابي الذي رفع عنكم الطاعون بولايتنا اهل البيت ، قال : ان
الله لا يجمع علينا حشفا وسوء كيل ، ولا يتكم والطاعون " (٣) .
وهذا دليل واضح على ان الناس لم يكونوا راضين عن ولاية بني العباس
والاسباب التي دعت الناس الى السخط كثيرة منها ظلم الولاة في جباية الخراج
والزيادة فيه كما ذكرنا سلفا ومنها الزيادة في الاسعار مثلا حيث يقول
ابو العطاء السندي :

شاكر مصطفى : دولة بني العباس ج ١ ص : ١٧٠ - ١٧١ طبع وكالة المطبوعات

ط الاولى الكويت ١٩٧٣

(٢) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٥ ص ٤٤٨

(٣) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٤٧ مط دار الفكر ١٩٧٤

بنى هاشم عودوا الى نخلاتكم فقد قام سعر التمر ما ما يدرهم
فان قلتهم رهط النبي وقومه فان النصارى رهط عيسى بن مريم (١)

ولاننى ان هذا الشاعر مدحهم فيما لبداية ثم انقلب عليهم حين لم يجد
في حكمهم خيرا مومن حقه ان يكون كذلك فعوض ان يزيد العباسيون
من رفاهية الرعية باتباع سياسة حكيمة في الامور الاقتصادية ، وجدنا
ال خليفة المنصور يلزم الناس بلبس القلانس الطوال التي كانوا يعملونها
من القصب والورق ويكسونها بالسواد ، شعار العباسيين ، حتى قال ابودلامة
ساخرا : (٢)

وكنا نرجي من امام زيادة فزاد الامام المصطفى في القلانس
تراها عليهم الرجال كأنها دنان يهود جللت بالبرانس
وخيب العباسيون كذلك رجاء القوم في اقامة العدل والمساواة بينهم
حتى قال ابو العطاء السندی مرة اخرى : (٣)

يا ليت جور بني مروان دام لنا وليت عدل بني العباس في النار

(١) يوسف خليف : حياة الشعر في الكوفة الى نهاية القرن الثاني الهجري
ص ٤٣٩ دار الكتاب العربي للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٨ م

(٢) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ج ٨ ص ٤٢ وابن الاثير : الكامل
٦١/٥ والحصري القيرواني : جمع الجواهر في الملح والنوادر (ذيل
زهر الاداب) ص ١٠٧ مط عيسى البابي الحلبي ط ١ القاهرة ١٩٥٢
وابن تغري بردى النجوم الزاهرة ٢/٢ .

(٣) شاکر مصطفى : دولة بني العباس ج ١ ص ١٧١

ويمثله حسرة مطيح بن اياس حين يقول : (١)

حبذا عيشنا الذي زال عنا حبذا ذاك لاجذا ذا
اين هذا من ذاك سقيا لذا ك ولسنا نقول سقيا لهذا

وتتساوى الامر فيعين المستهل بن الكميت حين رأى ان العباسيين لم
يغيروا شيئا من شقاء الناس وخوفهم حين يقول : (٢)
اذا نحن خفنا فهزمان عدوكم وخفناكم ان البلاء لراكد

هذا الحنين الذي نلمسه في شعره هو لآل الشعراء الى العهد السابق
ليس في الحقيقة حنيننا الى الماضي وتتمنيا برجوعه لكنه يأس من الحاضر
ومرارة منه لانهم حين شعروا بالظلم اثناء الحكم السابق ثاروا عليه
واستطاعوا ازاحته ، اما الحكم الجديد فقد خدعهم بشعاراته بحيث
ساعدوه على الاستيلاء على السلطة ومن هنا جاءت خيبتهم لان لهم يدا في
هذا الوضع الجديد ، حينئذ شعروا بالمسؤولية فاحتد المزارع في انفسهم
وراحوا في لحظات اليأس الكبرى يتمنون عودة الحكم السابق ويبكونه .
لكنهم مع ذلك تحلوا بشجاعة نادرة عند اعلامهم على سخطهم . وتعددت الامثلة
في التمدد للسلطان لدى عامة الناس فقد ذكر الطبري ان المهدي خطب
يوما فقال : " عباد الله ، اتقوا الله ، فقام اليه رجل فقال : وانت
فاتق الله ، فانك تعمل بغير الحق " (٣) ولقي مرة شعيب بن حرب
هارون الرشيد فقال له : " يا هارون ، قد اتعبت الامة والبهاشم ، فقال :
ممن الرجل؟ فقلت : رجل من المسلمين " (٤) .

(١) البهيتي : تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري ص ٣٧٣

(٢) ابن الجراح : الورقة ص ٨٣

(٣) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ١٨١/٨

(٤) شوقي ابو خليل : هارون الرشيد ص ٤٨ دار الفكر ط اولى دمشق ١٩٧٧

ولم ينحصر هذا السخط في الخلفاء فحسب بل تعداهم الى كل من له علاقة بالسلطة من امراء وقواد وعمال وولاة الا ان الناس كانوا يرجعون اللوم كله الى الخليفة ، رأس السلطة ، الذي عينهم جميعا كما قال احد الشعراء : (١)

ان الامير اذا استعان بخائن كان الامير شريكه في المأثم
وقريب من هذا المعنى ما قاله احمد بن ابراهيم : (٢)

اميرنا يرتشي وحاكمنا يلوط والراش شر ما رأس
وانفجر هذا السخط لديه حتى قال من القصيدة نفسها : (٣)

انطقني الدهر بعد اخراس لناثيات اطلن وسواسي
لا احسب الجور ينقضي وعلى الامة وال من آل عبيد اساس
ويثور بعنهم الاخر على النظام الملكي من اساسه ويرى فيه الشر اينما
حل مستفيدا بذلك من اى القرآن الكريم كما يقول الشاعر (٤) .
ان الملوك بلاء حيثما حلوا فلا يكن لك في اغناهم ظل

-
- (١) ابن عبد البر القرطبي : بهجة المجالس : ق ١ ص ٥٧٤ تحقيق محمد مرسى الخولي الدار المصرية للتأليف والترجمة
(٢) المسعودى : مروج الذهب ومعادن الجوهر ج ٢ ص : ٣٢٩ المطبعة البهية المصرية القاهرة ١٣٤٦ هـ
(٣) المسعودى : المصدر نفسه ج ٢ ص : ٤١
وابن العماد : شذرات الذهب في اخبار من ذهب / ٤١/٢
(٤) ابن عبد البر القرطبي : المصدر السابق ق ١ ص ٣٤٠ .

ب : الحزب الحاكم : العباسيون

=====

ان التركيبة السياسية في العصر العباسي متشعبة متعددة معقدة كتعقيد مجتمعهم نفسه ، لكننا لو نظرنا الى واجهتهم السياسية لوجدناها تزخر بما يلي : حزب حاكم واحزاب معارضة فيها الثوري وفيها المسالم وفيها السري وفيها الذى يعمل في وضخ النهار ، لان بني العباس لم يلقوا ابدا التأييد الكامل اللهم الا في ايامهم الاولى حيث كان لهم انصار كثيرون ، وبفضل قوة اولئك الانصار استطاعوا ان يعتزلوا العرش لمدة من الزمن طويلة لانجد لها مثيلا لدى السلالات الاخرى التي وصلت الى الحكم في تاريخ العرب ، وان كان عصرهم الذهبي يتمثل في القرن الاول لخلافتهم الممتدة ما بين حكومي السفاح والواثق حيث كان الخليفة هو صاحب الكلمة المطلقة وصاحب الامر والنهي دون منازع ، وكان مطاعا تنفذ او امره بقوة السيف في جميع الاقاليم التابعة لامبراطوريته لا يكاد يشاركه في الرأي احد ، وكان مستبدا يقتل من يشاء ويمنح الحياة لمن يريد ، يفتي من يشاء ويفقر من يشاء . كان له في ذلك القرن مهابة كبييرة فينفوس الناس لكنه تحول مع الايام الى لعبة طيعة في يد الطامعين في الحكم والمتسلطين عليه من ترك وفرس وغيرهم حتى صار القواد العسكريون يعينون الخليفة ويعزلونه ما ارادوا ذلك فوضع الخليفة كرمز لاغير لاسباب سياسية دون ان يكون له ادنى نفوذ .

ومنذ البداية وحتى في عصرهم الذهبي كان الصراع حادا وشرسا بين العباسيين انفسهم حول السلطة ، وقد بلغ عددهم كما يذكر ابن الاثير في عهد المأمون ثلاثة وثلاثين الفا (١) وطبيعي ان يدخل الطمع الى نفوس بعضهم وما الذي يمنعهم وهم الاسرة الحاكمة ؟ وهم رهط الرسول

(صلى الله عليه وسلم) وقومه ؟ لقد امتلأت فترة حكمهم بالدسائس والمؤامرات وتلك شجرة دخل منها الوهن اليهم واسهم في تحطيمهم وفي جعلهم في النهاية لعبة بين ايدي العسكريين ، وكان للخلفاء انفسهم اليد الطولى في ذلك دون ان يشعروا ، فمن كقاعص نظامهم انهم لم يضعوا قواعد ثابتة لولاية العهد ، ان كانت حسب المصادفة وليس حسب قواعد ثابتة وقوانين واضحة ، حيث لم تكن ولاية العهد لابن الاكبر دائماً بل كانت احيانا لابن الاوسط والاخر دون الاكبر وقد تكون لسلخ او لابن الاخ او العم او ابن العم الخ... زيادة على انها لم تكن تحصر في شخص واحد بل كان يعهد بها في الوقت نفسه لاثنتين او ثلاثة بالتسلسل . ولعل عذرهم في هذا هو خوفهم مما يخبئه الخد فقد يحدث مكروه لولي العهد دون ان يسمي ولي عهده حين يتولى السلطة كما حدث للهادي *

والان لو نستعرض بسرعة مشكلة ولاية العهد في العصر العباسي الاول وما حدث بسببها ، من مؤامرات ودسائس وحروب وما انعكس عنها من وييلات على الرعية لعرفنا مدى الخطأ الذي وقع فيه النظام العباسي ، فقد عهد ابو العباس السفاح بولاية العهد لاختيه ابي جعفر المنصور ومن بعده لابن اخيه عيسى بن موسى بن علي الملقب بالمرتضى (١) غير ان ابا جعفر نقض العهد كما هو معروف ولجأ الى جميع الوسائط من تهديد ومراوغة وضغط وترغيب حتى اضطر المرتضى ان يتنحى في النهاية فبايع المنصور لابنه محمد وسماه المهدي . واما في عهد المهدي فقد بدأت المؤامرات في حياته حول السلطة فقد سمى ابيه الهادي وهارون بالتسلسل مما اضطره في النهاية الى تنحية ابنه الاكبر تحت الحاج زوجة واعوانها غير ان الابن رفض الامر فخرج الاب اليه لكنه مات في الطريق . وما ان وصل الهادي الى الحكم حتى بدأ مناورات من اجل تنحية اخيه هارون الرشيد وتعيين

(١) عبد المنعم هاجد : العصر العباسي الاول : ص ١٢٣ مكتبة الانجلو المصرية
طبعة اولى القاهرة ١٩٧٣ .

ابنه بدله ، لكن المنية عاجلته هو الآخر قبل ان يتم له ذلك فآلت
الخلفة الى الرشيد (١) .

وعلى الرغم من ان الرشيد عانى من مشكلة تعدد اولياء العهد
الا انه لم يعتبر بها حتى عرف الناس اكبر مخنة بسببه حين عين ابناؤه
الثلاثة الامين والمأمون والقاسم حتى قال بعض الشعراء في ذلك : (٢)
اقول لغمة في النفس مني ودمع العين يطرد الظلالا
خذى للجهول عدته بحزم سنلقى ما سيمنعك الرقاعا
فانك ان بقيت رأيت أمرا يطيل لك الكآبة والسهادا
رأى الملك المهدب شر رأى بقسمته الخلافة والبلالا
رأى ما لو تعقبه بطم لبيض من مفارقة السوادا
اراد به ليقطع عن بنيته خلاقم و يبتذلوا السودا
فقد غرس العداوة غير آل واورث شمل الفتهم بدادا
والقح بينهم حرا عوانا وسلس لامتنا بهم القيادا
فويل للرعية عن قليل لقد اهدى لها الكرب الشادا
والبسها بلاء غير فان والزمها التضعع والفسادا
ستجرى من دماهم بحور زواجر لا يرون لها نفسادا
فوزر بلائهم ابدا عليه اغيا كان ذلك ام رشادا

وكما قال الشاعر فان الضحية الاولى لذلك الصراع هي الرعية
لأنها ليس لها من يحميها من المتصارعين . لقد كانت الرعية ميدان
صراعهم مع ان الرعية لم يكن يهمها لمن يؤول الامر لأنها كانت تعلم
ان ذلك الصراع لن يعود عليها بخير سواء انتصر هذا الفريق ام ذاك .

١ - عبد المنعم ماجد : المرجع السابق ص ١٢٣ وما بعدها

٢ - الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٨ ص ٢٧٧

وربما كان هذا موقفا سلبيا من الرعية لكننا لانلومها لو عرفنا ان الظروف لم تساعدنا بحيث لم توجد لها قيادة يمكن لها ان تستغل الظروف وتنقض على السلطة لتعيدها الى الشعب ، لان الرعية في جميع العصور تحتاج الى قيادة توجهها نحو اهداف معينة . لكن في ذلك العصر نجد ان هم الرعية قد دوما في ان تعيش في سلام وفي ان تتوفر لها اسباب الحياة الكريم كما قال الشاعر : (١)

اذا العيش ساعدنا سنا نبالي من كان الامامنا
لأنها فعلا لم تريح من الصراع الدائر حول السلطة الا المتاعب
فقد كثر الفقر والبضائع كما قال عمرو بن عبد الملك الوراق : (٢)

لم يبق في بغداد الا روع حافلة الفقر كثير العيال
ان صار ذا الامر الرحد صار الى القتل علوكل حال
ما بالنا نقتل من اجلهم سبحانه اللهم يا ذا الجلال

واحسن وصف للدمار الذي لحق بالناس هو ما قاله الاعمى من قصيدة رائعة : (٣)
تقطعت الارحام بين العشائر واسلمهم اهل التقى والبصائر
فذاك انتقام الله من خلقه بهم لما اجترموا من ركوب الكبائر
فلا نحن اظهرنا من الذنب توبة ولا نحن املحنا فساد الضرائر
ولم نستمع من واعظ ومذكر فينجع فينا وعظناه وآمـر
فأبك على الاسلام لما تقطعت عراه ورجى ضره كل كافـر

(١) مصطفى هدارة : اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ص ١٨٤
مط دار المعارف القاهرة ١٩٦٣

(٢) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٨ ص ٤٦٠

(٣) الرفاعي : عصر المأمون ج ٣ ص ٣٠٥ - ٣٠٦

فأصبح بعض الناس يقتل بعضهم
وصار رئيس القوم يحمل نفسه
فلا فاجر للبر يحفظ حرمة
تراهم كأمثال الذئاب رأّت دما
وأصبح فساق القبائل بينهم
فأبك لقتلى من صديق من أخ
ووالدة تبكي بحزن على ابنها
وذات خليل أصبحت وهي أيسم
تقول له قد كنت عزا وناصرا
وأبك لأحراق وهدم منازل
وأبراز ربات الخدور حواسرا
تراها حيارى ليس تعرف مذهبا
كان لم تكن بغداد أحسن منظرا
بلى هكذا كانت فأذهب حسنبا
وخل بهم ما حل بالناس قبلهم

فمن بين مقهور عزيز وقاهر
وصار رئيسا فيهم كل شاطر
ولا يستطيع البر دفعا لفاجر
أمته لا تلوى عا زجر زاجر
تسل على أقرانه بالخناجر
كريم ومن جار ق مجاور
فبيكي لها من حمة كل ظائر
وتبكي عليه بالدموع البوار
فغيب عني اليوم عزي وناصري
وقتل وأنهب اللهي والذ ظئر
خرجني لا خمر ولا مآزر (١)
ثوافر أمثال الطباء النوافر
وملهي رأته عي لاه وناظر
ويدد منها الشمل حكم لقادر
فأضحوا أحاديثا لباد وحاضر

ان هذه القصيدة تبين لنا مدى بشاعة الحرب الاهلية التي يختفي فيها
النظام وتتعطل فيها جميع النشاطات كما قال الخريمي : (٢)

الكرخ اسواقه معطلة يستن عيارها وعابرها

وهناك قصيدة اخرى تصف لنا حياة الناس اثناء تلك المحنة وهي شبيهة
بقصيدة الاعمى ولكن لامانع من ذكرها وهي لاحد فتيان بغداد (٣) :

(١) الشطر الثاني في هذا البيت مكسور وربما كانت (ولا بمازر)

(٢) المسعودي : مروج الذهب ومعادن الجوهر ج ٢ ص ٣١٠

(٣) الرفاعي : عصر المأمون ج ٣ ص ٣٠٧ - ٣٠٨

فقدت غصارة العيش الانيق	بكيت دما على بغداد لما
ومن سعة تبدلنا بضييق	تبدلنا هموما من سرور
فأفنت اهلها بالمتجنيق	اصابتها من الحساد عين
ونائحة تنوح على غريق	فقوم احرقوا بالنار قسرا
وباكية لفقدان الشفيق	ومأعجة تنادى واصباحا
مضمخة المجاسد بالظسوق	وحوراء المدام ذات كل
ووالدها يفر الى الحريق	تفر من الحريق الى ا
مضاحكها كلالاة البروق	وسالبة الغزالة مقل
عليهن القلائد في الخسوق	حيارى كالهدايا مبك
وقد فقد الشفيق من الشفيق	ينادين الشفيق ولاشفيق
متاعهم يباع بكل سوق	وقوم اخرجوا من كل دني
بلا رأس بقارعة الطريق	ومشرب قريب الدار ملقى
فما يدرون من اى الفريق	توسط من قتالهم جميعا
وقد هرب الصديق من الصديق	فلا ولد يقيم على ابيه

وفي الحقيقة ان هذه القصائد تغنيها عن ذكر الاحوال التي تعرضت
لها الجاهل اثناء تلك المحنة والتي لم يسلم منها احد .

ج - الاحزاب المعارضة :

١ - الشيعة :

لعل الشيعة اقدم حزب سياسي عربي تطور مع تطور الدولة العربية منذ
عهد آخر الخلفاء الراشدين وحتى الان على الرغم من انقسام الشيعة
الى عدة فرق تبدو مختلفة في ظاهرها لكنها متفقة في الجوهر والهدف .
نشأت هذه الفرقة بسبب الصراع على الخلافة التي كانت ترى ان احقيتها

تمود الى علي بن ابي طالب كرم الله وجهه وولده بعده لأن عليا وولده يمثلون النسل المباشر للرسول (ص) عن طريق ابيه فاعلمة الزهراء .

وقد كان للشيعة دور كبير في الثورات التي قامت ضد بني أمية فلحققتهم بسبب ذلك مصائب جمة فمات منهم خلق كثير قتلا وغدرا وكانت مصارعهم مآسي عظيمة حتى كتب ابو الفرج الاصفهاني - وهو أموى الولاء - كتابا بعنوان " مقاتل الطالبين " .

وكان لهم كذلك دور كبير في انتصار العباسيين على أساس أن الدعوة كانت للرضا من آل محمد ، ولم يكونوا يشكون في أن هذا الرضا منهم غير أن الظروف والمصادفات لعبت دورها في انتقال رئاسة تلك الثورة منهم الى العباسيين ، وبعد ما أنفرد بنو العباس بالسلطة وتبين كل شي وظهروا ما كان خفيا ثار الشيعة من جديد لكن هذه المرة على بني عمومتهم غير أن كل ثوراتهم باءت بالاخفاق على الرغم من أن بعضها كان عارما واجتاح مناطق عديدة كما بقي بعضها مدة طويلة نسبيا وكل هذا كان يؤرق السلطة المركزية في بغداد لأنها تعرف ان اخطر خصومها هم بنو عمومتها .

لم تكن ثورة الشيعة من أجل السلطة فقط بل صارت كما كانت في العهد الاموى أمل الرعاية في خلاصها من الكابوس المبهين على رأسها والاضطراب في الحكم العباسي ، فقد رأينا فيما سبق كيف بدأ التذمر من بني العباس وكيف انتشر وتطور حتى أصبح ثورات جارفة وعارسة .

وأول ثورة للشيعة في العصر العباسي الأول كانت ثورة النفس الزكية بالحجاز فاستولى على المدينة المنورة ومكة المكرمة (سنة ١٤٥ هـ) وبأيعه أهل خراسان ومصر والشام وكذلك السند ولكن سرعان ما قتل محمد النفس الزكية مع أخيه بعد مدة قليلة من ثورتها وكان هذا الاخ ، وهو ابراهيم ، قد استولى على البصرة في السنة نفسها ^(١) ويبدو أن النفس

(١) - عيد المنعم ماجد : العصر العباسي الاول : ص : ٨٧ حتى ٩٦

الزكية تسرع بعض الشيء ولم يعتبر بالثورات التي انطلقت من الحجاز وهو اى الحجاز بقليل العدد ولا يمكن ان يوفر عناصر كثيرة تسهم في الحرب مع العلم ان العدد وحده لا يكفي . ثم ان التنسيق بينه وبين اخيه لسم يكن محكما بدليل ان اخاه ابراهيم شارك بعده بفترة ولم يثورا في وقت واحد حتى يشتت جيوش الخلافة العباسية .

وخرج الحسن بن علي (سنة ١٦٩ هـ) وأعلن ان حركته تستهدف منسح الظلم وسمي بماحب فح لانه قتل بها في العام نفسه (١) .

ولعل اخطر ثورة لهم تلك التي قامت (سنة ١٩٩ هـ) بقيادة ابي السرايا او السرى بن منصور فقد حرض هذا الاخير شخصية علوية هو محمد بن ابراهيم المعروف بابن طباطبا الا ان هذا الاخير مات فجأة وربما قتل ، بعد ان نجحت دعوته في الكوفة وفقد التحق به خلق كثير من اعراب الكوفة ونواحيها . وبعد ابن طباطبا وجهت الدعوة الى محمد بن محمد ليتزعم الحركة . واستولى ابو السرايا على البصرة مستعينا بعلوى آخر اسمه زيد النار ، وامتدت الحركة الى الحجاز لكن ابا السرايا هزم بعد ما تدخل جيش المأمون بقيادة هرثمة بن اعين . (٢)

والملاحظ كذلك ان هذه الثورة لم تستغل الخلافت العباسية في ذلك

الوقت .

وفي السنة نفسها ائفي (١٩٩ هـ) خرج علوى اخرياليمن واسمه ابراهيم ابن موسى الكاظم من احفاد جعفر الصادق فتمكن من اخلاء اليمن ، وقيقت تحت سيطرته طوال مدة بقاء المأمون بخراسان . (٣) ويبدو ان التنسيق لم يكن موجودا بين هاتين الثورتين .

(١) عبد المنعم جاد : العصر العباسي الاول : ص ١٨٠ وما بعدها

(٢) المرجع نفسه ص ٣٠٨ وما بعدها

(٣) المرجع نفسه ص ٣١٣ - ٣١٤

٢- الخوارج

=====

ظل الخوارج منذ تكونت منظمته رافعين لواء الديمقراطية وكانت ثوراتهم لهذا السبب تندلع من حين لآخر على خلفاء بني أمية ينتصرون فيها شيئا من الزمن ثم تدور عليهم الدوائر فيخمدون على ان يقوموا مرة اخرى عندما تتوفر لهم الشروط اللازمة . لقد كانت قضيتهم منذ البدء سياسية لكنها مع مرور الايام اصبحت سياسية اجتماعية ، كانوا يشعرون لمشكلة الحكم فصار العدل الاجتماعى ورفض الظلم والدفاع عن الضعفاء من عقائدهم المحركة ، (١)

وهكذا ما ان كاد العباسيون يلتقطون انفسهم حتى عاد الخوارج الى الظهور في جنوب شرق الجزيرة العربية بقيادة رجل اسمه شيبان بن عبد العزيز ويكنى ابا الدلفاء وذلك عام (١٣٤ هـ) ثم امتدت حركته الى فارس وجزيرة كاوان بالخليج العربي (٢) ودامت هذه الحركة حتى خلافة ابي جعفر المنصور .

وظهر خارجي اخر في الجزيرة التي كانت دائما منطلقا ووكرها لهم اسمه ملبد بن حرقلة الشيباني عام (١٣٨ هـ) .
ورفض هذا القائد مئة الف درهم قدمها اليه حميد بن قحطبة ليكيف عن القتال ، وبقي يهزم الجيش تلو الجيش من جند الخليفة حتى تمكن خازم منه في الاخير . (٣)

وفي المكان نفسه ظهر بعد عشر سنوات خارجي آخر اسمه حسان بن الصفرية ، (٤) واما اول انتفاضة لهم بسجستان فكانت عام (١٥٢ هـ) ثم عادوا مرة اخرى سنة (١٥٨ هـ) . (٥)

(١) شاکر مصطفى : دولة بني العباس ج ١ ص ٢٢٧
(٢-٣-٥) عبدالمنعم ماجد : العصر العباسي الاول ص ١٢٩ وما بعدها

ولم ينج المغرب العربي من ثوراتهم بل كان اكثرها امتدادا حيث
ظلوا هناك وما زالوا حتى اليوم في جنوب الجزائر بمدينة (غار الداية)
التي نزحوا اليها بعد سقوط دولتهم الرستمية التي كانت عاصمتها تيهرت
والفرقة التي هناك من الاباضية ، وما زالوا كذلك بجزيرة جربة بتونس .
وقد كانت حروبهم هناك كثيرة فقد ذهب زعيم الاباضيين في المشرق
واسمه ابو الخطاب الى المغرب فجمع خوارج طرابلس وطرد العرب منها عام
(١٤٠ هـ) ثم استولى على القيروان عام (١٤١ هـ) وبذلك ظهرت اول دولة
اباضية كبيرة . (١) لكن جند الخلافة تغلب على الخوارج سنة (١٤٤ هـ)
فقتل ابو الخطاب وخلفه ابو حاتم يعقوب بن لبيد الملزوزي فتمكن
من حصار القيروان مرة ثانية وحالفه في ذلك زعيم الخوارج المفرية
ابو فرة الذي جاء في زناتة وفرعها بني افرن لمشاركته في الحروب
وهكذا افتتحت القيروان . (٢) ثم تفرقوا بعد ذلك في الامصار وخبا نجمهم .

١- عبد المنعم ماجد : العصر العباسي الاول : ص ١٣٤ - ١٣٥

٢ - المرجع نفسه ص ١٣٦ - ١٣٧

د - الثورات والانتفاضات

=====

تمكن البيت العباسي من السلطة ورسخ نفسه فيها بجميع الوسائل على الرغم من تدمير الناس المستمر والمتصاعد . وكثرت الانتفاضات في القرن الاول من حكمهم فقابلوها بالقمع والبطش حتى تحول جيش الدولة الى اداة طيعة فييد السلطة لاختداد اية ثورة او اى تحرك مشبوه . لكن القضاء على الانتفاضات والثورات غير ممكن بل كان مستحيلا لان الاسباب الموجبة لها لم تنتف ولم تنته ، فقد ظل الناس يشعرون بالظلم وعدم المساواة لذا نجد ان " الدافع الاجتماعي هو المحرك الغالب لمعظم الانتفاضات والثورات . " (١) التي شهدت الصور العباسية المختلفة بدليل مشاركة مختلف الفئات فيها من فلاحين وعبيد وعمال وعرب واعاجم . واكبر ثورة نجدها في ذلك العصر هي ثورة بابك الخرمي التي بدأت تحركاتها الاولى عام (٢٠١ هـ) في الجاويدانية . (٢) وسرعان ما انتشرت وامت مناطق واسعة وشاركت فيها قوميات عديدة من فرس وكرد وارمن وروم وغيرهم من قبائل ما وراء القفقاس (٣) والسبب في جلب هذا العدد الفقير من الانصار هو برنامج هذه الثورة الواضح فمن اهم بنوده نزع الاراضي والاقطاعات الكبيرة من مغتصبيها وتوزيعها على الفلاحين المحتاجين . (٤) لكن هذه الثورة مع ذلك تعرضت للعديد من محاولات الطمس والتحريف ،

-
- (١) حسين مروة : النزعات المادية في الفلسفة العربية الاسلامية ج ٢ ص ١٢
 - (٢) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٦ ص ٣٢٨
 - (٣) حسين مروة : النزعات المادية ج ٢ ص ١٥
 - (٤) حسين مروة : المرجع نفسه ج ١ ص ٦٩

فالمؤرخون لم يذكروا منها الا الجوانب السلبية او يتجاهلونها او يشوهونها (١) وهي من اطول الثورات بحيث دامت عشرين سنة كاملة .

وتقد سبقت هذه الثورة حركة المقنن التي بدأت سنة ١٤١ هـ وانتهت في اواخر ايام المهدي وكانت خراسان ميدانا لها (٢) .

اما المطوعة فسبب ظهورهم ان فساق بغداد وشارها استفحل امرهم واذوا الناس اذى شديدا فقطعوا الطريق واخذوا الناس والصبيان علانية دون ان تتدخل الدولة لمنعهم . ونفهم من كلام ابن الاثير (٣) والطبري (٤) ان السلطان كان يستعين بهم . وكونوا عصابات عديدة كان بعضها يجبي المارة (٥) .

وتزعم المطوعة رجل من ناحية الانبار يقال له خالد الدريوش فدعا جيرانه واعبيته واهل محله على ان يعاونوه على الامر بالمعروف والنهي عن المنكر فاجابوه العذك ، فشد على من يليه من الشطار والفساق فمنعهم مما كانوا يصنعون فامتنعوا عليه وارادوا قتاله فقاتلهم فهزمهم واخذ بعضهم فضربه وجسه ودفعه العالسلطان (٦) وخلفه رجلا

(١) عبد المنعم ماجد : العصر العباسي الاول ص ٤٠٠

(٢) ابن الاثير : المرجع السابق ج ٦ ص ٣٢٤ - ٣٢٦

(٣) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٨ ص ٥٥٢

(٤) المرجع نفسه ج ٨ ص ٥٥٢

(٥) المرجع نفسه ج ٨ ص ٥٥٢

(٦) المرجع نفسه ج ٨ ص ٥٥٢

من اهل الحرية يكنى ابا حاتم وزاد على الدريوش ان دعا الناس جميعا
الى الامر بالمعروف والنهي عن المنكر " الشريف منهم والوضيع ، بني
هاشم ومن دونهم وجعل له ديوانا يثبت فيه اسم من اتاه منهم
فأتاه خلق كثير فبايعوا " (١)

كل هذا زيادة على الانتفاضات التي كان سببها قسوة عمال الخراج
والاجحاف في زيادة الضرائب والتي اشرنا اليها في الفصل الاول .

.....

(١) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٨ ص ٥٥٢

الفصل الثالث

الحالة الاجتماعية

تمهيد : تركيبة المجتمع الباسي

آ - الفقر ومظاهره

ب - التبذير ومظاهر الترف

ج - العدالة والقضاء

.....

....

تمهيد :

لم تتضح الطبقات في العصر العباسي الاول وضوحا دقيقا بسبب المرحلة التاريخية التي كانت تمر بها البلاد عصره غير ان هذا التداخل كان واضحا بالمقارنة مع نموذج الاقتصاد في ذلك العصر ، فقد رأينا بانه كان يمثل خليطا من الاقطاعية وبقايا العبودية المنحلة مع تطور نسبي للمصناعات والحرف . وعلى هذا الاساس يصعب تقسيم المجتمع لكننا مع ذلك نلمس وجود فئتين او بالاحرى طبقتين مختلفتين كل الاختلاف ، طبقة الحكام وطبقة المحكومين ، طبقة الاغنياء وطبقة الفقراء ولايكاد يوجد بينهما شيء .

لقد كانت طبقة الحكام تتمتع بكل شيء وتستمتع به لانها مدفوعة اجتماعيا ، اعموموعيا ، لان تكون كذلك نظرا لانها تملك كل الخيرات وتملك حق التصرف بها كما يحلو لها مما جعلها تغدق على ملذاتها الاموال الطائلة المجبة بمختلف الوسائل من الطبقة الثانية . وكانت الطبقة المحكوم عليها بالفقر تشعر بالفوارق التي كانت بينها وبين الاولى دون ان تمتلك الوعي الطبقي الكافي لتحليل الاوضاع والوصول الى النتيجة الحتمية التي سوف تقضي بموجها على الاسياد الاغنياء ، وكان بعض عامة الناس يرد ذلك كله الى مشيئة الله والله منه براء ؛ نتج ذلك عن العقلية السائدة آنذاك والتي شارك اولو الامر على ترسيخها في عقول الناس حتى يظنوه قدرا محتوما ، مع العلم اننا لانجسس بحيث نجعل كل اغنياء ذلك العصر مفسدين في الارض .

ومن الطبيعي ان تظهر الى الوجود بعض بوادر الصراع بين الطبقتين وما التعرض شعرا او نثرا لتلك الاوضاع الا ضرب من الصراع ، وان لم يصل الودروته الا فيما بعد عندما تفتتت تلك التركيبة التي لم تعد تلائم تتطور المجتمع العربي الاسلامي .

تجد في ذلك العصر وفي مؤلفاته اشارات تقترب حينا من القصص وتبتعد عنه حينا اخر وتكون واضحة طورا وطورا تلتف في صيغ غيبية او اخلاقية ، لكنها تتحدث جميعها عن طبقات المجتمع العباسي وفئاته وشراخه في ذلك العصر ، فهذا ابو العتاهية يقول مثالا : (١)

واشتد بفي الناس في الارض وعلو بعضهم على بعض

وعلى الرغم من غلاف الحكمة الذي يلف هذا القول فاننا نلاحظ تنبيه ابي العتاهية الى الصراع الدائر في عصره بين الناس ، وهذا الصراع طبعا لم يكن شديدا ولا قويا الى الدرجة التي تجعل احدى تلك الطبقات نصفي غيرها نهائيا ليخلو لها الجو . صحيح ان المصالح كانت تتحكم في مواقف تلك الطبقات لكن لا يجوز بأي حال من الاحوال ان نطلق عليها مفهوم الطبقات المعروف في عصرنا هذا لان العناصر والارهاصات المؤدية لوجود الطبقات بمفهومنا الحديث لم تكن موجودة بل كانت هناك بوادر ونزعات خفيفة لا يمكن ان تؤدى الى الثورة بمفهومنا المعاصر . فابو العتاهية قد تنبه الى هذه البوادر او الى الظواهر الناتجة عن سوء تفسييم الثروات في ذلك العصر ، فهو يرى ذلك الصراع في شكل سطو طبقة على اخرى وهذا العلو مرهون بالوسائل المادية والسياسية التي تملكها هذه الطبقة او تلك . كان يراه اختلافا في ظروف المعيشة بين الذين هم في اعلى السلم الاجتماعي وبين الذين هم في اسفله ، فهاهو يقول مرة اخرى : (٢)

الناس في الدين والدنيا ذوو درج والمال ما بين موقف ومختلج

(١) ابو العتاهية : الديوان ص ٢٠٠ تحقيق شكرى فيصل مط جامعة دمشق ١٩٦٥

(٢) ابو العتاهية : المصدر نفسه ص ٩٠

فالشر الاول يدل دلالة واضحة على مانحن بصدده .

اما خالد بن صفوان فيقول : " الناس ثلاث طبقات : طبقة علماء ،

وطبقة خطباء ، وطبقة ادباء ، ورجحة بين ذلك يفلون الاسعار ، و

يضيّقون الاسواق ويكدرون المياه . " (١) وهذا كلام نفهم منه ان مفهوم

الطبقة كما نعرفه اليوم لم يكن معروفا ، فعلى الرغم من اشارته الى بعض

المشاكل الاقتصادية والمعيشية لذلك العصر فان كلامه يبقى عائما ولا يفي

بالغرض الا من جهة واحدة وهي ان بين تلك "الطبقات" - والتي هي في

الحقيقة شراخ اجتماعية - رجحة يفلون الاسعار الخ واعمال

هذه "الرجحة" دليل على الصراع القائم انذاك . ويقول الخليفة

المأمون : " الناس اربعة : ذو سيادة ، او صناعة ، او تجارة ، او

زراعة ، فمن لم يكن منهم كان عيالا عليهم " (٢) ويقول مرة اخرى عند

ذكر اصحاب المصانع : " السوق سفلى والصناع انزال ، والتجار بخلاء

والكتاب ملوك بين الناس " (٣) وليس بين القولين اى تناقض كما يبدو

للهولة الاولى ، ففي القول الاول كان المأمون يتحدث من مركز الحاكم

الذي يضع مصلحة النظام فوق اى اعتبار وذلك بالحط من كل ما يمس هذا

النظام ، ولذا نجده يرى الفائدة الا من اصحاب التجارة او الزراعة

او الصناعة لان هذه يؤخذ على اصحابها ضرائب ، اما تلك الفئة العريضة

التي لاتملك شيئا فهو يراها عيالا على غيرها ، لكنه يدين نفسه بنفسه

حين يجعل الحكام مرتبطين باصحاب الحرف والمصانع لان الحكام في النهاية

هم العيال الحقيقيون في ذلك العصر على الفئات المنتجة . اما في المقولة

(١) ابن عدي : العقد الفريد : ج ٢ ص ٢٩٣

(٢) البيهقي : المحاسن والمساوي ص ١٠٣ ط دار صادر بيروت ١٩٧٠

(٣) البيهقي : المصدر نفسه ص ١٠٣

الثانية فقد اختلف الامر لان اصحاب الصناعات ، نظرا لمركزهم الخطير ، كانوا يكونون ضغطا مستمرا على الحكام ، ومن هنا جاءت تلك النعوت التي وصفهم بها كندالة الصانع ويخل التجار وان كان في كلامه بعض الصدق . وهو كعادته يحط من قيمة الجماهير العريضة التي لاتملك شيئا فيقول السوق سفل ، وهنا نراه قد جمع بين شيئين اولهما تسمية تلك الجماهير بالسوق لاحتقاره لها وثانيهما الدرجة السفلى التي الصقها بهم . اما الكتاب الذين نجوا من كلامه فلا عنهم بالاحول ولا قوة امام نفوذه لانهم مجبرون ان يكونوا تابعين له ولانهم مضطرون الى الاشتغال في دواوين الدولة .

واذا تركنا هذه المظاهر العامة وتسللنا الى التركيبية الاجتماعية في العصر العباسي الاول لوجدنا لوحة متعددة الالوان حيث اختلطت الاجناس واللغات والديانات والثقافات المختلفة التي بدأ احتكاكها يعطي ثماره بشيء من الوضوح . وبالطبع كان هذا المجتمع يتكون من العنصر العربي (صاحب السيادة) وبعدهم الموالي وهو الاسم الذي اصبح يطلق على كل من دخل الاسلام من دون العرب وقد كان لهذا الاسم دلالات اخرى ايضا . (١) وكان عدد الموالي كبيرا يفوق عدد العرب ولذلك كان تأثيرهم كبيرا جدا في المجتمع الجديد وجعله يتسم بصفات غريبة احيانا عن العقلية العربية . وقد كان هؤلاء الموالي في العصر الاموي يعدون مواطنين من الدرجة الثانية حتى جاءت الثورة العباسية فدخلوا فيها افواجا وبذلك حققوا لانفسهم مكانة كبيرة في السلطة . وقد ارتبطت حركة الشعوبية بهؤلاء الموالي والتي ظهرت بوادرها منذ اواخر العصر الاموي لكنها ازدادت تطورا في العصر العباسي الاول لان بعض الموالي اتجهوا الى

(١) انور الرفاعي : الاسلام في حضارته ونظمه ص ٢٥٠

" مناواة العربية بعصبية اخرى عرفت باسم الشعوبية وهي نضال اجتماعي وفكري دافع به الموالي عن انفسهم " (١) لانهم كانوا يطالبون العرب الحاكمين بالمساواة التي نادى بها الاسلام والتي تغاضى عنها كثير من الخلفاء خاصة وان هو لا الموالي دخلوا الاسلام وماروا عربا في لغتهم وافكارهم واعمالهم فقد برز منهم عدد كبير من العلماء في مختلف الميادين .

وثاني شيء في تلك التركيبة هم اهل الذمة وهم اليهود والنصارى والزرادشتيون والمابثة فقد كانوا يمثلون جزءا لا بأس به من المجتمع الجديد وكان لهم دور كبير في ثقافته وذلك في الترجمات التي قاموا بها . وقد كان الاسلام منذ ابداية يعامل اهل الذمة معاملة خاصة كما نص القرآن الكريم على ذلك . وقد كان اندماج المسيحيين اكثر من اندماج اليهود في المجتمع الجديد (٢) .

وثالث شيء نجده في هذه التركيبة هو الرقيق فقد ازدهرت في ذلك العصر تجارة الرقيق لاسباب كثيرة كالحروب والفتوحات والغزوات ، فقد كان للنخاسة اسواق في كل بلد من البلاد الاسلامية تدعى احيانا دار الرقيق كما في بغداد وعليها مشرف هو (قيم الرقيق) . وكان للنخاسين عملاء هم وشهرتهم وقوا فلهم كما كانت النخاسة منعة قائمة بذاتها . (٣) وقد كان هذا الرقيق يجلب من اماكن عديدة ومختلفة كالسودان وشرقي افريقيا عموما وتركيا وتركستان وروسيا والمغرب العربي الخ ولهذا فقد كان هناك

(١) انور الرفاعي : الاسلام في حضارته ونظمه ص ٢٥٣

(٢) المرجع نفسه ص ٢٥٦ حتى ٢٦٣

(٣) المرجع نفسه ص ٢٦٧

مزيج من الرقيق الحبشي والتركي والفارسي والبربري والرومي والشركسي والامني والمقلبي * ، وقد كان هؤلاء الرقيق يقومون باعمال كثيرة منها ان الزوج كانوا يعطون الاعمال الصعبة والشاقة كفلاحة الارض ولباس ان نتذكر هنا ثورة الزوج التي كان اغلب جندها من الزوج العاملين في فلاحه الارض وقد اشتهر الصقالبة بالاعمال المنزلية الخ
كما استغل بعضهم في الخدمات العسكرية (١) وقد كانوا جميعا يعيشون حياة صعبة قاسية ليس لهم فيها اي حق او مهادنة . اما النساء فقد كن يجلبن لامور اخرى كالتسرى او الجوارى والقيان ، وكان لهن فضل في اختلاط الاجناس في ذلك العصر حتى كثر ما يسمى بالهجناء وحتى اننا لانجد من خلفاء ذلك العصر من ولد من ابوين عربيين الا ثلاثة هم السفاح والمهدي والامين (٢) وقد ساعدت القيان علما انتشار الغناء وتطوره فكثرت تعليمهن هذه الصنعة وبيعهن باسعار مرتفعة للاغنياء (٣) .

* مقلبي : اصبح يعني العبد في الاندلس ومنه كلمة (ESCLAVE)

انوار الرفاعي الاسلام في حضارته ص ٢٦٨

(١) المرجع نفسه ص ٢٦٨ - ٢٦٩

(٢) المرجع نفسه ص ٢٦٩

(٣) المرجع نفسه ص ٤٨٠

أ- الفقر ومظاهره

كانت الطبقة الفقيرة تشكل الغالبية العظمى في العصر العباسي الاول، ولذا تعددت مظاهر الفقر والبؤس والحرمان كما تعددت بالمقابل مظاهر الثنى والترف . وجاء الشعر العباسي الشعبي معبرا عن ذلك التناقض بكل وضوح على الرغم من ان مؤرخي الادب ، قدامى ومحدثين ، سكتوا عن شعراء الطبقة المحرومة تلك " وان كنا نرى اللوحة عنهم تمر عرضا والاشارة توميء الى فاقتهم " (١) وقد جمعنا لهم ما استطعنا من اشعار والتي سنذكر بعضها في طيات هذا البحث لكننا يمكن منذ الان ان نعرف ما كانوا يعانون منه * كان الفقر المدقع معاناتهم جميعا فتحدثوا عنه في جميع المناسبات بطرق مختلفة . وهذا امر طبيعي لان الشاعر انسان قبل ان يكون شاعر ، فهو يعيش عصره ويتفاعل معه ويمتزج باحداثه فيؤثر فيها وتؤثر فيه وفي النهاية يصوغ حوملة ذلك الاندماج بعصره ويمشاكله بطريقة فنية فيعطينا قصيدة شعر نابضة بالحياة . ثم ان معالجة ذلك تختلف من شاعر الى شاعر انطلاقا من انصهار خصوصيته بعموميات العصر . فهم اذا يكونون كلا متكامل لا تنمحي فيه معالم الفرد الخاصة لكنها تصب في إطار العام بحيث تكون تلك الروافد قاسما مشتركا بين الشعراء ، فمنهم من عالج الموقف بأسلوب جاد ومنهم من لجأ الى السخرية وحتى الى البهلوانية حتى يستدر عطف الناس وان كان في سخريته ينظر الى الدنيا بمنظار قاتم السواد ومنهم من ثار على ذلك الوضع ونقم عليه محاولا تغييره بشتى الطرق .

(١) احمد كمال فركي : الحياة الادبية في البصرة الونهاية القرن الثاني الهجري

ففي النوع الاول نجد شاعرا كابن يسير يتألم لوضعه وبلغت به مأساته
حدا تمنى معه الموت لابنة اخته التي كان يحبها كثيرا حتى لا تكون ضحية
للفقر ، حين يقول (١) :

لولا البنية لم اجزع من العدم	ولم اجب في الليالي حنّس الظلم
وزادني رغبة في العيش معرفتي	ذل اليتيمة يجفوها ذوو الرحم
أخشى فظافة عم اوجفـاء اخ	وكنت أخشى عليها من اذى الكلم
اذا تذكرت بنتي حين تندبني	جرت لـعبرة بنتي عبرتي بسـدم
تهوى بقائي واهوى موتها شققا	والموت اكرم نزال على الحـرم

انهافلا لقمة المأساة ان تهوى له البقاء ويهوى موتها شققا عليها
من الجوع والحرمان والذل .

واهم ما يطمناه الفقير ان يجد ما يعيل به عياله ، من ذلك ما قاله
الشاعر ابن سيابة نشر : " اذا كانت فيجيرانك جنازة وليس في بيتك دقيق
فلا تحضر الجنازة فان المصيبة عندك اكبر منها عند القوم وبيتك اولى
بالماتم منهم " (٢)

اما مزج الواقع المر بالفكاهة فقد كان ابو فرعون الساسي وابـو
الشمقمق من اربابه ، فأما ابو الشمقمق فيقول : (٣)

-
- (١) ابن المعتز : طبقات الشعراء المحدثين ص : ٢٨٢ - ٢٨٣
(٢) الاصفهاني : كتاب الاغاني ج ١٢ ص ٩٠ ط مصورة عن دار الكتب
(٣) ابن المعتز : المرجع السابق ص ١٢٧ - ١٢٨

ما جمع الناس لدنياهم انفع في البيت من الخبز
والخبز باللحم اذا نلته فانت في امن من التمرز *
والقلز من بعد على اثره فانما اللذات في القلز **

واما ابو فرعون الساسي فيقول: (١)

انا ابو فرعون فأعرف كنييتي حل ابو عمرة *** وسط حجرتي
وحلنسج العنكبوت برمتسي اعشب تنوري وقلت حنطتي

ووقف شاعر آخر ، واسمه عاذر بن شاكر المعروف بابي المخفف شعره كله على وصف الرغيف وله فيه اشعار ومقطوعات كثيرة فيها شيء من الهزل .
وقد نام هذا الشاعر بثورة على الاساليب الشريفة على غرار ثورة ابي نواس حين استخف بذكر الاطلال وابدلها بالخمير ، لكن ما خبنا استبدالها بالرغيف فهو يرى ان السفاهة في وصف الاطلال والنساء والخمور ، والصواب كل الصواب في وصف الرغيف ، من ذلك قوله : (٢)

دع عنك رسم الديار ودع صفات القفار

* التمرز : الموت والهلاك (لسان العرب)

** القلز : ضرب من الشرب (لسان العرب)

(١) ابو حيان التوحيدي : الامتاع والمواضع ج ٢ ص ٥٣ تحقيق احمد امين
واحمد الزين مط مكتبة الحياة مصورة عن دار الكتب بدون تاريخ

*** ابو عمرة : العرب تسمي الفقرا ابو عمرة .

(٢) ابن الجراح : الورقة ص ١٧٣

وعد من ذكر قوم قد اكثروا في العقار
ودع صفات الزنايير في خصور العذارى
وصف رغيفا سرييا حكته شمس النهار
او صورة البدر لما استتم في الاستعداد
فليس يحسن الا في وصفه اشعارى

وحين كان الامر يشتد على هؤلاء الفقراء كانوا يلجؤون الى الاماني والامال
يعبرون بها عن ضيقهم وينفسون بها عن شقائهم وكرههم ، ويعيشون بها لحظات
من السعادة وسط حياة كلها غم وهم ويوءس ، ويقول احدهم فبتلك الاماني التي
كان يعرف انها اضغاث احلام فقط لاتغني ولاتسمن من جوع : (١)

منى ان تكن حقا تكن احسن المنى والا فقد عشنا بها زمنا رغدا
وكثيرا ما كانت المنى رأس مال المفلسين من الناس فهم يرون انفسهم فيها
وقد هبطت عليهم الاموال الطائلة كما قال احدهم : (٢)

اذا تمنيت مالا بت مقتبطا ان المنى روس اموال المفاليس
لولا المنى مت من هم ومن حزن اذا تذكرت ما في داخل الكيس
ويجد آخر مخرجا لهمومه في التمني حين يقول : (٣)

اذا ازدهمت همومي في فؤادي طلبت لها المخارج بالتمني
اما ابو الشقمق فيفضل ما يتمناه من دنياه باسلوب ساخر وان كان يقطر فيه

(١) الجاحظ : الحيوان ج ٥ ص ١٩١ تحقيق عبدالسلام هارون مط الحلبي ط ٢
القاهرة ١٩٦٦ / ١٩٦٥

(٢) الجاحظ : المصدر نفسه ج ٥ ص ١٩١

(٣) الراغب الاصبهاني : محاضرات الادباء ومحاولات الشعراء البلغاء م ١ ج ٢ ص ٤٥
بدون تاريخ ولاذكر للطبع

دما بقوله : (١)

مناى من دناى هاتى التى	تسلح بالرزق على غيرى
الجردق الحاضر مع بضعة	من ما عز رخص ومن طيـر
وجبة دكناى فضاضا	وطيلسان حسن النـيـر
ويثلة شباى طيـارة	تطوى لى البلدان فى السـيـر
ويدرة مملوءة عسجدا	ما بالذى اذكر من ضيـر
ومنزل فى خير ما جيرة	قد عرفوا بالخير والميـر

لكن اولئك الشعراء كثيرا ما ينتبهون من غفوة المنعوي يتنبهون الى ان المنى لاتداوى الخاصة ابدا كما قال احدهم : (٢)

ولقد علمت - وان نصبت لى المنى - ان الخاصة لاتداوى بالمنى

كان الشاعر يفيق من احلامه ، وهو المعبر الصريح عن تلك الجماهير الواسعة ،
ليجد نفسه يتخبط ثانية في مشاكله اليومية والملحة في آن واحد ، فيبعد تلك
الاموال الطائلة التي تدفقت عليه في الحلم وملائجيوه يلدغه الجوع
ليبحث عما يسكن به ذلك الالم البغيض ، ويتبادر الى ذهنه ان في السوق بعض
مبتغاه . لكن الجيب خال والاسعار ترتفع باستمرار مما حدا به الى التحدث
عنها في كثير من المناسبات ، فمدح ابي العتاهية التي رفعها الى الخليفة
هارون الرشيد تعد ظالمة تشهد على تدهور الاسعار في ذلك العصر وقلة سبل العيش
المتوفرة لدى العامة ، اذ يقول : (٣)

(١) الجاحظ : القول في البغال ص ١٢٧ / تحقيق شارل بللامط الباي ط اولى
القاهرة ١٩٥٥

(٢) ابن عبد البر القرطبي : بهجة المجالس : ق ١ ص ١٦٨

(٣) ابوالعتاهية : الديوان ص ٤٨٧

اني ارى الاسعار اسعار الرعيعة غالية
وارى المكاسب تنزرة وارى الضرورة فاشية

ويذكر الطبرى كذلك ان الاسعار غلت " ببغداد والبصرة والكوفة حتى بلغ
سعر القفيز من السحنة بالهاروني اربعين درهما الخمسين بالقفيز الملجم (١)
وزيادة على المشاكل الاقتصادية تظهر مشكلة اخرى وهي تحول بغداد
واشباها من النواضر الكبيرة في العصر العباسي الاول الى مجتمع قريب
من المجتمع الاستهلاكي . فنحن نعرف ان اساس الاقتصاد في ذلك العصر هو الزراعة
اي ان الريف هو الذي كان المعول عليه ، اما المدن فقد كانت تنتج ما يمكن
ان نسميه بالكماليات . وهكذا صار سكان المدن عالة على البوادي والارياف
اذ كانوا يستهلكون دون ان ينتجوا ما يستهلك غذائيا ، ومع ذلك فقد كثر
الوافدون على المدن لتمرکز السلطة فيها وجميع المصالح الاجتماعية وغيرها
فنشطت هجرة الاقاليم وفرغت الارياف من سكانها لاسباب كثيرة اخرى كظلم عمال
الخراج اضافة العمغريات المدن الكبيرة . ومن نتائج ذلك كله ان تعاضم
دور التبادل النقدي وبالتالي تعاضم دور المال بعد ان كانت التجارة من
قبل تتم عن طريق المقايضة اي تبادل بضائع معينة ببضائع اخرى او بمنتجات
غذائية .

وطبعي ان يتأثر الناس بهذا التغير في المبادلات وينعكس ذلك على
سلوكهم وتصرفاتهم ، فقد اصبح المال مقياسا للرجال واصبحت كميته هي
التي تحدد مركز الانسان في السلم الاجتماعي ؛ وفي هذا يقول عاصم المبرسم (٢) :

(١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك : ج ٨ ص : ٥٩٦

(٢) ابن الجراح : الورقة ص ٧٤

لله در ابيك اي زمان
كل يعاطيك المودة داعيا
فاذا رأى رجحان حبة خربل
انها المسالح تفعل في الناس هذا الفضل .

وفي دور النقود الهام يقول احد الشعراء مثبتا ما ذكرناه آنفا: (١)

بعثت في حاجتي رسولا
ولو سواه بعثت فيها
يكنى لبادرهم فتمت
لم تحظ نفسي بما تمنعت

واصبح صاحب المال محترما ذا نفوذ ، مسموعا قطاعا كما قال ابو العتاهية: (٢)

اجلك قوم حين صرت الى الغنى
اذا مالت الدنيا الى المرء رغبت
وكل غني في العيون جميل
اليه ومال الناس حيث يميل

وكان أن عاش صاحب المال في رغد من العيش بينما رزح المعدمون تحت نير
العوز والحرمان ، فمدينة كبداد لا مكان فيها للمفلس ابدا كما قال احدهم: (٣)

سقى الله بغداد من جنة
على انها منية الموسرين
غدت للورى نزهة الانفس
ولكنها حسرة المفلس

ويقول ابو العتاهية في المضمار نفسه: (٤)

-
- (١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٢ ص ١٢٧
(٢) الشريف المرتضى : امالي المرتضى ج ٢ ص ٢٢٨-٢٢٩ تحقيق محمد ابي الفضل
ابراهيم مط دار الكتاب العربي ط ٢ بيروت ١٩٦٧
(٣) النويرى : نهاية الارب في فنون الادب ج ١ ص ٣٦١ نسخة مصورة عن دار الكتب
(٤) ابن عبد البر القرطبي : بهجة المجالس ، ق ١ ص : ٥٢٦

اذم بغداد والمقام بها
ما عند املاكها لمرتغب
يحتاج راجي النوال عندهم
كنوز قارون ان تكون له
من بعدما خبرة رتجريب
رغد ولافرجة لمكروب
الى ثلاث من غير تكذيب
وعمر نوح وصبر ايوب

وكذلك يقول احمد بن ابي طاهر في تسلط المال ونفوذه : (١)
ولايساوي درهما واحدا
من ليس في منزله درهم

ولهذا السبب اطلق ابو الينبغي مثله السائر : (٢)
كم من حمار على جواد
ومن جواد بلا حمار

وحال كهذه كانت تدل على الفقر الذي دفعهم الى فعل المستحيل من اجل
الحصول على الطعام ، ومن هنا بالذات يمكن ان نجد تفسيراً لتلك الظاهرة التي
انتشرت على مدى عصور الادب العربي القديمة الا وهي ظاهرة التكسب بالشعر
مدحاً وهجاءً .

ونحن لانلوم الشعراء على ذلك على الرغم من ان بعضهم كان يتملق الممدوحين
ويتزلف اليهم فيقول ما لا يوافق به وهو يعلم انه غش ونفاق حتى يكسب رضاهم
ومن ثم يكسب مالهم . كان الفقر والحاجة من الاسباب الرئيسية لتلك الظاهرة
مع اسباب اخرى ثانوية . مع العلم ان الفقر لم يكن عيباً ولا امراً مكروهاً في
ذاته حسب ذهنية ذلك العصر لان الانسان يكون شريفاً مع فقره وقد لا يكون ذلك
مع غناه كما قال ابن هرمة : (٣) :

(١) الراغب الاصبهاني : محاضرات الادباء ومحاوالات الشعراء البلغاء ج ٢ ص ٤٩٨

(٢) ابن المعتز : طبقات الشعراء ص ١٣٠

(٣) النويري : نهاية الارب ٧٨/٣ وطبقات ابن المعتز ص ٢١ وبهجة المجالس

لابن عبد البر القرطبي ق ١ ص ٦٤

عجبت اشيلى ان رأيتني مخلقا - فكذلك امك - اى ذاك يروع ؟
قديرك الشرف الفتى ورداؤه خلق وجيب قميصه مرقوع
وبوض اشجع السلمي الفكرة اكثر فيقول: (١)

رويدك ان عز الفقر ادنى الي من الشراء مع الهوان
لكن هذا لايعني ابدا انهم كانوا يرغبون في الفقر وان كان فيه شرف ، بل
كانوا يرون ان الفقر قد يؤدى الى الذل ، وهذا صحيح ، فيجعل الانسان يريشق
ماء وجهه بالطلب والتسول كما قال احدهم (٢) :

سجدنا للقروء رجا دنيا حوتها دوننا ايدي القروء
فما بلت اناملنا بشيء علمناه سوى ذل السجود

ولكنما العمل وتلك الظروف لاتأبى الا ان يضطر الانسان لسؤال الناس وان كان
لثروه يأبى عليه ذلك ، كما قال ابو الينبغى (٣) :

الا يا مالك الناس وخير الناس للناس
اتنهاني عن الناس فاغثنى عن الناس
والا فدع الناس ودعني اسأل الناس

صرح اولئك القوم بفقرهم على مضض ، وتكبدوا ماتكبدوا ، فمدحوا الاغنياء
والاسياد لعلمهم يلتقطون شيئا من فئات موائدهم ومن فضلاتهم ، وكان مدحهم تجارة
لان الاغنياء لن يعطوهم شيئا بالمجان ، كما قال ابو الشمقمق (٤) :

(١) المولى: كتاب الاوراق ، ص ٨٨ نشره ج هيورث دن مطبعاوى ط اولى
القاهرة ١٩٣٤

(٢) الراغب الاصبهاني: معاضرات الادباء م ج ٢ ص ٥٩٦

٣ - ابن المعتز : طبقات الشعراء ص ١٣١

٤ - ابن المعتز المصدر نفسه ص ١٢٧

ولقد غورت وليس لسي الا مديحك تجارة

ويمكن ان نتصور الصراع الذي كان يحدث في نفس الشاعر بين الخيبة والامل وهو مقدم على الممدوح * كانوا يستغيثون لكن الاغنياء صموا اذانهم وصمموا على الا يعطوهم شيئا لوجه الله بل لابد من مقابله ، كما صرح الحكم بن عبد الاسدي بفقره مطلقا في اسماع عصره صرخة استغاثة مازال صداها يرن في اطراف عصرنا حيث يقول (١) :

احي نفسي فدتك نفسي فاني كما علمت ذاك - عديم

وكيف لا يفعل هذا والحاجة تدفعه الى كل شيء ؟ قال الفقير لم يعد ملوما علميا يصدر عنه من افعال كما قال احد الاعراب بصق بدوي : (٢)

فلا تلوماني ولوما جابرا * فجا بر كل فني الهوا جبرا

ولقد اسماعيل بن ابراهيم الحمدوني عبر عنهم جميعا بقوله : (٣)

من كان في الدنيا اخا ثروة فنحن من نظارة الدنيا
نرمقها من كذب حسرة كاننا لفظ بلا معنى

هذا بالنسبة الى الشعراء اما عامة الناس الذين لم يكونوا يمتلكون ملكة الشعر ليتكسبوا بها او يعبروا بها عن سخطهم فقد كانت لهم وسائل اخرى يحملون بها على ما يلطف من وضعهم ، فقد لجأ بعضهم الى الكدية والتسول مستعملين في ذلك طرقا وحيلًا تحدث عنها القدامى والمحدثون بشيء من التهكم والسخرية وجعلوها للتندر *

وتفاقم امر المحرومين من حقهم في العيش وتزايد عددهم حتى انتظموا

(١) يوسف خليف : حياة الشعر في الكوفة ص ٤٧٢

(٢) الراغب الاصفهاني : محاضرات الادباء م ١ ج ٢ ص ٦٠٩

* جابر : العرب تسمى الخبز جابرا

(٣) الاصفهاني : الاغانى ج ٢٠ ص ٣٠٣ (دار الثقافة بيروت ١٩٦٠

جماعات جماعات فتمردوا على وضعهم التعتس وثاروا على السلطان كلما وجدوا فرصة لذلك ، فمن ذلك ان تمرد اعراب بادية البصرة (عام ١٦٨ هـ) فقطعوا الطريق وانتهكوا المحارم وتركوا امور الدين ، وزاد بطشهم وقوتهم حتى تغلبوا مرارا على جند الفقة (١)

ولاغربة مـ لهم تركوا امور الدين ، قال ان وما زال دوما منفذا للكفر ، لان الانسا اذا اشتد به الفقر لن يهـ نذاك الا في الجوع وتوابعه فمن ذلك ما حكاه الاصمعي من ان جماعة كانت تصلي وبجا شيخ ملتف بكساء وهو يرتعد من البرد الشديد وينشد (٢) :

ايا رب ان البرد اصبح كالما وانت بحالي يا الهي اعلم
فان كنت يوما في جهنم مدخلي ففي مثل هذا اليوم طابت جهنم
فتعجب منه الاصمعي وقال له : " اما تستحي تقطع الصلاة وانت شيخ كبير ؟
فأنشد يقول (٣) :

ايطمع ربي ان اصلي عاريا ويكسو غيري كسوة البرد والحر
فوالله لاصليت ما عشت عاريا عشاء ولا وقت المغيب ولا الوتر
ولا الصبح الا يوم شمس دفيئة وان غممت فالويل للظهر والعصر
وان يكسني ربي قميصا وجبة اصلي له مهما اعيش من العمر
ويروى لنا الاصمعي ابياتا اخرى في هذا السياق لشيخ من تميم كان ممسكا باستار الكعبة وهو ينشد (٤) :

-
- (١) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٦ ص ٧٧
 - (٢) الابشيهي : المستطرف في كل فن مستظرف ج ٢ ص ٣٣٤ - ٣٣٥
 - (٣) الابشيهي المصدر نفسه ص ٣٣٤ - ٣٣٥
 - (٤) البيهقي : المحاسن والمساوي ص ٥٨٥

ايا رب رب الناس والامن والهدى
اماتستحي مني وقد قمت عاريا
امالي في هذا الانام قسيم
انا جيك يارب وانت كريم
وترك قرما من قروم تميم ؟
اترزق ابناء الطلوج وقد عصوا

وزيادة علو ثورة الاعراب تلك تغلب الشطار (عام ٢٠١ هـ) على بغداد فأذوا
الناس اذى شديدا وقاموا باعمال غير مشرفة كأخذهم الاطفال والنساء علانية ،
وكانوا يجبون المارة ، فواجههم الناس بما سمي بالمطوعة لمحاربتهم حتى تدخل
الحسن بن سهل ودفع لهم مالا فأبطلوا اعمالهم (١)
وخرج الزط ايام المعتمسم (عام ٢١٩ هـ) في طريق البصرة فنهبوا وسرقوا واخذوا
الثلاث من البيادر واخافوا الناس فحاربهم عفيف بن عنبسة وتمكن من الفتك
بهم (٢) .

وفي عام (٣٠٠ هـ) خرج عزيزة بن قطاب السلمي على رأس الاعراب فغلب على
المدينة وما جاورها ولم يستطع واليها حماد بن جرير الطبري ان يفعل شيئا
معهم ، ونازلهم فقتلوه ، واستباحوا القرى والمناهل وقطعوا الطريق ولم يتغلب
عليهم الا القائد التركي بغا الكبير (٣) .

وبسبب ذلك الوضع الناتج عن الظروف الاقتصادية والسياسية السيئة برزت
الى الوجود ظواهر اجتماعية سلبية كالبلخ والبغاء وما شابه ذلك ، فاما
البلخ فقد تحدث عنه كثير من الشعراء وهو كما نعلم يتنافى مع طبيعة العربي
المجولة على الكرم والتباهي به ، فكان البلخ عندهم يعيب صاحبه وينقص من

(١) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٦ ص ٣٢٤

(٢) ابن الاثير المرجع نفسه ص ٤٤٣

(٣) ابن الاثير المصدر نفسه ج ٧ ص ١٢

قدره . اما لماذا استفحلت هذه الظاهرة في العصر العباسي الاول حتى يفرد لها كاتب كالجاحظ كتابا كاملا ، فنظن الامر واضحا وهو تطور المجتمع من مجتمع ذى اقتصاد مبسط الى اقتصاد معقد يلعب فيه المال دورا اساسيا مما جعل البعض يحرص على هذا المال فحتى الخليفة المنصور شهر بحرصه على المال حتى لقب بالدوانيقي لانه كان يحاسب عماله على الدائق . فالدافع الاول للبخل هو اذا تطور الاوضاع الاقتصادية .

اما البغاء فهو من الظواهر السلبية التي تضافرت عدة عوامل لايادها منها الانحلال الخلقي الناتج عن الاوضاع السياسية والمعيشية في ذلك العصر فقد رأينا كيف اندحر الفقراء مما اضطر بعضهم الى اللجوء الى جميع الوسائل شريفة ام غير شريفة لكسب المال ، وكانت هذه الظاهرة موجودة بالفعل ولوان المصادر التي تحدثت عنها قليلة (١) ومن ذلك ما هجا به بشار احد القاعمين بتلك التجارة (٢) :

يا نافع ابن الفاجر	ياسيد الموءاجرة
يا حلف كل داعر	وزوج كل داعرة
تجارة احدثتها	في الكشح غير باثرة
لودخلت عفيفا	بيتك صارت فاجرة
حتى متى ترتع في الخسران يا ابن الخاسر	

وانتشرت ايضا الامراض والابوئة الفتاكة كالسل وربما الكوليرا التي لم تكن تعرف بهذا الاسم ، ففي السل يقول اشجع السلمي موجهها كلامه الى مسلول (٣).

(١) الاصفهاني : الاغانى ج ٤ ص ٣٨٨ - ٣٨٩ (مصورة عن دار الكتب)

(٢) هذارة : اتجاهات الشعر ص ١٨٩

(٣) المولي : الاوراق ص ٢٩ -

ابا الاطول طولت وما ينفع تطويل
بك السل ولا والله ما يبرأ مسلــــــــــــــــول

كل هذا زيادة على العوامل الطبيعية القاسية كالقحط والجفاف والعواصف حيث يبدو ان الدولة لم تكن تساعد رعاياها فيمثل تلك الظروف ناهيك عن الحروب الكثيرة التي عرفها ذلك العصر مما تسبب في المجاعات والوبئة الناتجة عن ذلك .

هذا وضع الفقراء عموماً في ذلك العصر ، وعلى العكس نجد الاغنياء الذين دفعهم وضعهم الممتاز الى ان يتمتعوا بخيرات الدنيا وملذاتها ، فكثير التزندق الذيما هو الى نتيجة حتمية لتفسخ ذلك المجتمع بسبب كل تلك الاوضاع ، وراحت مجالس الشرب واللهو تنتشر في كل مكان فيه الاغنياء ، وما اللهو والغناء والقنص وجلب الرقيق الا دليل على ذلك .

.....

.....

ب - تبذير مال المسلمين ومظاهر الترف

ان مظاهر الفقر التي رأينا سابقا قابليتها لمظاهر الترف والغنى ، وما تبذير المال الا مظهر واحد منها . هذا المال الذي تجمع لدى الخلفاء وبعبارة اخرى لدى الاغنياء اخذ احيانا بالقوة من اصحابه بدعوى حق الدولة في فرض الضرائب المختلفة على رعاياها . وكان من المفروض ان يعود هذا المال بالفوائد على تلك الجماهير التي اخذ منها .

لقد بين القاضي ابو يوسف في الفصل الثالث من كتاب الخراج الوجوه التي تصرف فيها اموال المسلمين ، لكن الخلفاء من قبله ومن بعده لم يكونوا دائما يقومون بصرف الاموال في وجوها تلك بحيث تفيد العامة ومختلف فئات المجتمع ، فلم نجد في كتب التاريخ الا نبذا قليلة من ذلك مثلما يحكى عن المنصور من انه بعث الى بعض عماله مالا وامره ان يفرقه في الايتام والقواعد والعميان . (١) كما اجرى المهدي الارزاق على المجذمين (٢) وكفى الواثق فقراء مكة والمدينة حتى انه لم يوجد بهما في عهده سائل . (٣) اما ما عدا امثال هذه الاعمال فقد كانت اموال المسلمين تصرف في شؤءون لاعلاقة لها بالرعية ، فقد روت لنا كتب التاريخ والسير اخبارا متنوعة عن التبذير والاسراف للذين شهر بهما اغلب خلفاء العصر العباسي الاول وان كان ابن خلدون يرى " ان الامة اذا تغلبت وملكت ... تتجاوز ضرورات العيش وخشونته التي نوافله فتكثر رياضها ونهمتها وتنزع الى الرقة الاحوال في المطاعم والملابس والفرش والانيعة الخ " (٤) .

(١) البيهقي : المحاسن والمساوي ص : ٥٨٧

(٢) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ج ٦ ص ٥٧

(٣) ابن الاثير : المصدر نفسه ج ٧ ص ٣٠

(٤) ابن خلدون : المقدمة ج ٢ ص ٤٨٠ - ٤٨١ تحقيق علي عبدالواحد وافي لجنة البيان العربي ط اولى القاهرة ١٩٥٧ م

وهذا صحيح من جانب واحد فقط بالنسبة الى العصر العباسي الاول ، لان التوافل التي يتحدث عنها ابن خلدون لم ينعم بها الا اصحاب السلطة واتباعهم اما عامة الشعب فقد كانت تعاني الجوع والحرمان ، وفعلنا نجد ان المهدي مثلاً زار مرة " صاحب شرطته عبدالله بن مالك واهداه اربع مئة بخل موقرة دراهم " (١) .

ومن ذلك ان احمد بن اسماعيل ، صهر يعقوب بن داود ، سمح هذا الاخير يقول : " بنى هذا الرجل - اى المهدي - متنزها انفق عليه خمسين الف الف درهم من اموال المسلمين " (٢) .

ومن ذلك ايضا ان الهادي حين تولى الخلافة قال للحراني .. " احمـل الى اخي - يقصدها رون الرشيد - الف الف دينار واذا اغتتح الخراج فاحمل اليه النصف منه واعرض عليه ما في الخزائن من مالنا وما اخذ من اهل بيت الله فياخذ جميع ما اراد " (٣) وغني عن الذكر ان هذا الكرم كان بسبب سياسي بغية تنحية الرشيد عن ولاية العهد .

والرشيد نفسه لم ينج من هذا التبذير حيث نجده يعطي العباس بن الاحنف الشاعر اربعين الف درهم على اربعة ابيات قالها في رثاء هيلانة جارية الرشيد ، والابيات هي:

يا من تباشرت القبور لموتها قصد الزمان مساءً تي فرماك
ابغي الانيس فلا ارى لي موءنسا الا التردد حيث كنت اراك

(١) ضياء الرئيس: الخراج والنظم المالية للدولة الاسلامية ص ٤٣٣

(٢) الجهشيارى : الوزراء والكتاب ص ١٥٩

(٣) ضياء الدين الرئيس : المرجع السابق ص ٤٣٣

ملك بكاك وطال بعدك حزنه لو يستطيع بملكه لفسداك

يحمي الفوءاد عن انساء حفيظة كيلا يحل حمى الفوءاد سواك (١)

والحب حق طبيعي لكل انسان ، خليفة كان ام من عامة الناس ، لكن التأوه عليه لا يكون على حساب تعب الشعب .

اما الخليفة الامين المشهور بلهوه وتبذيره فقد اعطى المظني ابراهيم ابن المهدي - اخا الرشيد وتم الامين - ثلاثمئة الف دينار على صوت غيبر ذي بال في شعر لابي نواس خيف ، فصرح ابراهيم هذا حينئذ بانه اخذ خمس ذلك الحين عشرين الف الف درهم ، فقال الامين : " وهل هو الاخراج بعض الكور؟ " (٢) فانا علمنا بالرجوع الى قائمة الخراج في عهد الرشيد ان خمسا وعشرين منطقة من اصد ست وثلاثين لم يمل خراجها وذلك الحمد عرفنا مقدار هذا التبذير .

اما المأمون ، زيادة على تبذيره كسابقه ، فقد كان شرها ، وقد ذكر احد جلسائه وهو جعفر بن محمد انه " وضع على المائدة اكثر من ثلاثمئة لون " (٣) من الطعام ، وقد تحدثت الكتب الكثيرة عن بناه ببوران وما انفق في ذلك من الاموال وما اعطى من الهدايا (٤) .

وكان الجيش من الامور التي تنصرف بسببها الاموال الطائلة لكونه القوة الضاربة في يد السلطة لقمع الثوار والمتمردين ولصد هجمات الاعداء من الخارج بحماية الثور وتكليف الجيوش القيام بالغزوات . وكان الجندي

(١) الخطيب البغدادي تاريخ بغداد ج ١ ص ٩٨

(٢) المرزباني : الموشح ص ٤٠٩ - ٤١٠ تحقيق علي محمد البجاوي مط دار نهضة مصر القاهرة ١٩٦٥ و ابراهيم بن القاسم الرقيق القيرواني : المختار من قطب السرور في اوصاف الانبذة والخمر تحقيق عبد الحفيظ منصور نشر موعات

عبد الكريم عبدالله ت ١٩٧٦ ص ١٧١ (٣) مآكل الخلفاء العباسيين (٤) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٦ ص ٤٧٨

يتقاضى راتباً أساسياً زمن مجد العباسيين العسكري قدره عشرون درهماً في الشهر (١) زيادة على ما كان يغدقه عليه الخلفاء والقواد في مختلف المناسبات. فقد انفق على الجيش الذي وجهه المنصور مثلاً لاختاد ثورة الخوارج بأفريقية ثلاثة وستون ألف ألف درهم. (٢) وكثيراً ما كان القادة العسكريون ينالون القسط الأكبر من تلك الأموال كما فعل هارون الرشيد حين ثار عليه يحيى بن عبد الله بالديلم فندب إليه الفضل بن يحيى البرمكي وأمدّه بالأموال ففرقها بين قواده فأخذ الناس يقصدونهم وهم ينثرونها عليهم طعمة لهم. (٣) وفعل الأمين والمأمون أيام الحرب بينهما الشيء نفسه. (٤) أما المعتصم فقد وصل الأفشين حين قضى على بابك الخرمي بعشرين ألف ألف درهم وعشرة آلاف درهم يفرقها في عسكره. (٥) وهناك أمور كثيرة لاداعي لذكرها جميعاً كانت تصرف فيها الأموال بكثرة كما كانت تكلف العناية بها كثيراً من المال ومنها مثلاً ظاهرة الصيد التي أولع بها الخلفاء العباسيون والأغنياء عموماً في ذلك العصر وهذا ما يسمى بالبيزرة التي أصبحت من مقومات الدولة " تنفق عليها من بيت المال كما تنفق في غيرها من القوة والأوضاع " (٦) وقد رسمها العباسيون في الاعطيات والفرائض أي رسموا تربية الجوارح الخ ٠٠٠٠ (٧) .

-
- (١) ي - هل : الحضارة العربية ، ص ٨٤
 - (٢) ضياء الدين الرئيس الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية ص ٤١٣
 - (٣) ابن تغري بردى : النجوم الزاهرة ج ٢ : ص ٨١
 - (٤) ضياء الدين الرئيس : المرجع السابق ص ٤١٣
 - ٥ - ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ٦ ص ٤٧٨
 - ٦ - أبو عبد الله الحسن بن الحسين (بازيار العزيز بالله الفاطمي) : البيزرة ص ٥ تحقيق محمد كرد علي ، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق ١٩٥٣
 - ٧ - بازيار الفاطمي : البيزرة ص ٥

وقد اهتم اغلب الخلفاء العباسيين بالصيد فقد " كان ابو العباس السفاح شديد اللهج بالصيد ... " (١) وكان المهدي " مشغوفا بالصيد لا يكاد يخبّه " (٢) وكان للرشيد " حظ من الصيد " (٣) اما الامين فقد كان " اشداهما كفا في الصيد واحرص عليه من كل من تقدمه " (٤) اما المعتصم فقد " كان اكثرهم مخالفة للصيد ... " (٥)

.....

(١) ابو عبدالله الحسن بن الحسين (بازيار العزيز بالله الفاطمي) البيزرة

ص ٤١

* يخبّه : من اغب القوم : جاء هم يوما وترك يوما (المصدر نفسه ص ٤٣)

٤ - ٣ - المصدر نفسه ص ٤٣

٤ - ٥ - المصدر نفسه ص ٤٦

ج - العدالة والقضاء

=====

القضاء من ضرورات المجتمع المتمدن المتحضر حيث يتقاضى الناس في مختلف الامور التي توءد الى خلاف بينهم . وشيء كهذا يتطلب وجود نظام دقيق تحدد فيه عناصر القضاء وطرقه واساليبه ويتطلب ايضا وجود رجال اكفاء نزهين يقومون بهذا العمل ولا يخشون في الحق لومة لائم . واذا قيض للدولة مثل هو لا الرجال فان الانسان العادى فيها سيكون بخير مادامت حقوقه لاتضيع . ولذا فقد كان القضاء يعني الفصل بين الناس في الخصومات حسما للتداعى والخلاف وقطعا لكل نزاع قد يوءد الى الوعا لاتحمد عقباة (١) .

واول شيء نلاحظه في العصر العباسي الاول في هذا المجال ان سلطات القاضي وصلاحياته اتسعت فقد ظهرت المذاهب الاربعة وتدخلت السياسة في القضاء وظهرت المصطلحات الفقهية المتعددة والمقننة وظهر منصب قاضي القضاة (٢) . وبعد ان كان عمل القاضي مقصورا على الفصل بين الخصومات اصبحت يفصل في الدعاوى والاقواف وتنصيب الاولياء (٣) . وهذا كله جعل للقاضي مكانة هامة في المجتمع خاصة وان كلامه كان مسموعا مطاعا ومن هنا كان اولو الامر يتشددون في الشروط التي يعين بموجبها القاضي فمنها مثلا ان يكون حرا ذا عقل ، بالغا ، عادلا ، سليما من العاهات وان يكون ذكرا . (٥) وكذلك ان يكون مسلما على انه يجوز تقليد غير المسلمين القضاء لاهل الذمة لان الاسلام

(١) انور الرفاعي : الاسلام في حضارته ونظمه ص ١٥٥

(٢) المرجع نفسه ص ١٦٢

(٣) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام ج ٢ ص ٢٩٢

(٤) انور الرفاعي : المرجع السابق ص ١٥٥

(٥) انور الرفاعي : المرجع السابق ص ١٦٧ - ١٦٨

ترك للزميين الخيار في ان يتقاضوا بالشرعية الاسلامية او حسب اديانهم، (١)

كان القاضي يقوم بعمله في المساجد او في الاسواق وربما تجول في البلاد، وكان له مساعدون كالحاجب والشرطي والكاتب والخازن والاعوان والترجمان احيانا والعدول وبعض المستشارين في الفقه، (٢) وكان ديوان المظالم عبارة عن محكمة استئناف يلجأ اليها الناس (٣) .

وكان لبعض القضاة سمعة طيبة جعلت الناس يسعدون بوجود امثالهم فمن ذلك ما يحكى عن محمد بن عمران الطلحي ، قاضي المدينة ، الذي حكم علو الخليفة المنصور (٤) كما كان المهدي " اذا جلس للمظالم قال : ادخلوا علي القضاة فلولم يكن ردى للمظالم الا للحياء منهم لكفى " (٥) . ومن امثلة ذلك ايضا القاضي سوار بن عبدالله ، قاضي البصرة ، الذي امتنع عن دفع ارض النسي قائد تخاصم اليه بسببها مخ تاجر علو الرغم من كتاب الخليفة المنصور اليه والذي فيه : " انظر الارض التي تخاصم فيها فلان القائد وفلان التاجر ، فادفعها الى القائد " (٦) ، فامتنح القاضي ، فاغلظ له الخليفة الكلام قائلاً : والله الذي لا اله الا هو لتدفعها الى القائد " (٧) ، فكان رد سوار : " والله الذي لا اله الا هو لا اخرجتها من يد التاجر الا بحق " (٨) فابتهج الخليفة

١-٢ انور الرفاعي : الاسلام في حضارته ص ١٦٥ - ١٦٦

٣) انور الرفاعي : المرجع نفسه ص ١٦٣ - ١٦٤

٤) السيوطي : تاريخ الخلفاء ص ٢٤٨

٥) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك ج ٨ ص ١٧٢

٦ - ٧ - ٨ - السيوطي : المصدر السابق ص ٢٨٧

لذلك . لكن هذا لا يعني ان الخلفاء والقضاة كانوا جميعا على شاكلة واحدة بل عكس ذلك نجد . فقد كان القضاء فاسدا في كثير من الاحيان او لنقل القضاة هم الذين كانوا فاسدين والروايات علوذلك كثيرة جدا . زيادة على ان بعض الخلفاء كانوا يتدخلون في عمل القضاة فقد عمدوا الى حملهم " على السير وفق رغباتهم ليكسبوا اعمالهم صبغة شرعية " (١) مما جعل بعض الرجال يمتنعون عن تولي مهمة القضاء مخافة الافتاء بما يخالف ضمائهم والشرعية الاسلامية . ومثل تدخل الخلفاء في عمل القضاة نجده فيما حدث عندما دعا الرشيد محمد بن الحسن الفقيه ، صاحب ابى يوسف الشهير ، وابا البختري القاضي واخرج الامان الذي كان اعطاه يحيى بن عبدالله بن حسن العلوى ، وكان خرج عليه من قبل ، وسأل القوم رأيهم فيه ، فاما محمد بن الحسن فقد اقر الامان واما ابو البختري فنقضه فجازاه الرشيد على ذلك فسماه قاضي القضاة (٢) . ومن امثلة فساد القضاء ايضا ما يحكى عن ابي دلامة حين مرض ولده فأضطر الى المجيء بطبيب وشرط له جعلا معلوما ، فلما برأ الولد من المرض انكر ابو دلامة ان يكون عنده شيء غير انه اقترح على الطبيب ان يطالب فلانا اليهودى بمال هو قدر الجعل على ان يكون ابو دلامة وابنه شاهدين معه ، فلما مثل القوم جميعا امام القاضي خشي ابو دلامة ان يغرمه القاضي ذلك المبلغ فصنع بيتين في هذه المناسبة وانشدهما بصوت مرتفع حتى يسمعهما القاضي ومنهما هذا البيت :

إِنَّ النَّاسَ غَطَوْنِي تَغْطِيتْ عَنْهُمْ وَأَنْ بَحْثُوا عَنِّي فَفِيهِمْ مَبَاحِثُ

وهذا تهديد صريح يتبين على اثره موقف القاضي من مثل هذه الامور وقوته ، لكن القاضي دفع المبلغ من ماله الخاص حتى يتخلص من الورطة التي وضعه فيها .

(١) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياسي والاجتماعي الخ ٠٠٠ ص ٢٩١ ج٢

(٢) احمد فريد رفاعي : عمر المأمون ج ١ ص ١٢٤

• ابو دلامة (١)

ومن عيوب القضاء في ذلك الوقت ايضا الرشوة ، " فقد بلغت الرشوة درجة انحطت معها نفوس القضاة ومنهم عبدالرحمن بن عبدالله العمرى (بمصر) الذى قيل انه اصاب من الرشوة مئة الف دينار " (٢) • واتهم كذلك القاضي شريك بن عبدالله النخعي بالرشوة وذلك عندما قبل منصب القضاء بالبصرة والذى كان سفيان الثوري قد رفضه فقال احد الشعراء المجهولين في ذلك (٣) :

تحرز سفيان وفر بدينه
وامسى شريك مرصدا للدراهم •

ولقد احدثوا ايضا نظام العدول ، ويبدو ان للعدول وظيفتين هما :

" اولا : كتابة العقود بين الناس في معاملاتهم مستوفاة شروطها الشرعية ،
وثانيا : يستعين بهم القاضي على تزكية الشهود الذين يشهدون عنده في الخصومات " (٤) •

ويقال ان اول قاضي بمصر اتخذ لمجلسه الشهود هو ابو عبدالرحمن محمد بن سروق الذى ولاه الرشيد عليها عام (١٧٧ هـ) واول من دون اسماء العدول بمصر ايضا هو القاضي مالك ابو نعيم اسحاق بن الفرات وهو كذلك في عهد الرشيد (٥) • ويبدو ان سمعة هؤلاء العدول كانت سيئة للغاية مما دعا اسحاق بن معاذ الى هجائهم وهجاء من ولاهم بقوله : (٦)

-
- (١) اليافعي: مرآة الجنان ج ١ ص : ٣٤٢ مط المعارف النظامية ط ١ حيدرآباد ١٣٣٧ هـ
 - (٢) حسن ابراهيم حسن: تاريخ الاسلام ج ٢ ص ٢٩٥
 - (٣) ابن العماد : شذرات الذهب ١ / ٢٥٠ اليافعي: مرآة الجنان ١ / ٣٤٧
 - (٤) محمد بن محمد بن عرنوس : تاريخ القضاء في الاسلام ص ١٣٢ المطبعة المصرية الاهلية الحديثة بالقاهرة بدون تاريخ •
 - (٥) محمد بن محمد بن عرنوس : المرجع نفسه ص ١٣٣
 - (٦) محمد بن محمد بن عرنوس : المرجع نفسه ص ١٣٣

سَادَعُو الهِي حَتَّى الصَّبَاحِ لَكِيْمَا يَعْيدُكُلُّهَا هَزِيْلًا
سَنَنْتَ لَنَا الْجَوْرَ فِي حَكْمِنَا وَصِيْرَتَ قَوْمًا لِمَوْصَا عَدُوْلًا
وَلَمْ يَسْمَحِ النَّاسُ فَيِمَّا مَضَى بَانَ الْعَدُوْلُ عَدِيْدٌ قَلِيْلًا

وكما نلاحظ ، لم يكن الشعر بعيدا عن هذه القضية وانى له ذلك وهو المعبر
عن هموم الناس ومشاكلهم وكل ما يصيبهم من خير وشر ؟ فقد بين الشعراء
لنا تعسف القضاة وفضحوا ارتشاءهم وتزلفهم للسلطان .

ويبقى ان نشير الى ان الحسبة كانت احيانا تلحق بالقضاة وكانت اعمال
المحتسب هامة جدا وذاتقيمة كبيرة في مجتمع ذلك العصر وهي تدل على
ما بلغت الحضارة العربية من تطور، فقد كان المحتسب مثلاً يقوم بمراقبة التجار
وارباب الحرف والاسعار والموازن وكل المخالفات الاقتصادية التي قد تنتج
بسبب الغش والاختكار زيادة على مراقبة الاخلاق العامة وذلك بالنهي عن المنكرات
ومعاقبتها، وكذلك مراقبة العبادات هذا مع التأكد من صلاح الابنية والطرق
التي قد تتسبب في كوارث عظيمة . وهناك اعمال اخرى مختلفة يقوم بها المحتسب
مثل التأكد من حسن معامللة السادة لعيدهم وتعليف البهائم (اى الرفق
بالحيوان) والشهر على الاطفال اللقطاء وجمع الاشياء الضائعة واعادتها
الى ذويها ومنح المعلمين من ضرب الصبيان الخ (١) .

وباختصار فان مهمة المحتسب تقوم مقام عدة وزارات اليوم حيث يمثل
هيئة رقابة عليا لجميع امور المجتمع كالشرطة الاخلاقية والتفتيش وما
الى ذلك .

.....

الباب الثاني

الاتجاه الشعبي

XXXXXXXXXXXXXXXXXXXX

التمهيد : تحديد مفهوم الاتجاه الشعبي

الفصل الاول : اغراض الاتجاه الشعبي

الفصل الثاني : خصائص الاتجاه الشعبي الفنية

الفصل الثالث : مواقف الاتجاه الشعبي

XXXXXXXXXXXXXXXXXXXX

XXXXXXXXXX

❧

التمهيد

=====

تحديد مفهوم الاتجاه الشعبي :

- الاتجاه الرسمي في الشعر
- مفهوم الشعر الشعبي:
- الجماعة
- لغة الشعر الشعبي
- العراقنة
- الجهل بالموءلف
- ندرة الشعر الشعبي
- اراء في شعبية الشعر

.....♦

يجدر بنا قبل ان نحدد مفهوم الاتجاه الشعبي في العصر العباسي ان نلم المامة سريعة بمفهوم الاتجاه الرسمي او الشعر الرسمي لاننا لو وفقنا في تحديده لاتضح لنا الثاني جليا . فما هو الادب الرسمي او الشعر الرسمي على الخصوص ؟ الشعر الرسمي في ذلك العصر هو كل ما جاء متماشيا مع طروحات الاسرة الحاكمة ، وقد كانت تلك الاسرة بعيدة عن الشعب ولم تكن تخالط الاقطاعا معيننا من الناس هم الاعيان والاتباع والقواد وما الرذلك بينما اهملت الجماهير العريضة .

وما تلك الاشارات الواردة في المصادر والتي تدل على اهتمام بعض الخلفاء بالرعية الا من قبيل الدعاية الرسمية لكسب الناس الى جانبهم ، فبالمقارنة نجد ان مدة حكمهم كانت طويلة جدا بينما كانت المنجزات التي تمس الشعب قليلة جدا زيادة على انحصارها في مناطق محدودة كالحواضر الكبيرة وضواحيها .

الشرط الاساسي اذا في تسمية الشعر بالرسمي ان يكون داعيا للسلطان وان يكون بعيدا عن مطالب الجماهير حين يكون هذا السلطان لايهتتم برعيته وهذا ما حدث في العصر العباسي الاول ، فقد كانت السلالة العباسية مهيمنة على الامور بعدما اخرجت الامويين بالقوة ونكلت بهم ، وكان لابد لها من دعاية مضخمة تبين ان الخلافة حق طبيعي لها . خاصة ان المطالبين بها كانوا كثيرا ، وكان اخطرهم في نظر العباسيين هم بنو عمومته لانهم يستعملون السلاح نفسه في المطالبة بها وهو القرابة من الرسول صلى الله عليه وسلم ، زيادة على الخواارج ، دعاة الديمقراطية في عصر لم يكن مهيئا لها . وقام جد كبير بين مختلف قطاعات الناس حول هذه القضية فراح بعض الشعراء الانتهازيين يضربون على هذا التوتر الحساس حين لجؤوا الى قوانين الارث مستغلين الشريعة الاسلامية ففي ذلك ، فرأوا ان الرجال اسبق من النساء وراثة علما بان العباسيين

يستندون الفكون جدهم العباس عما للرسول بينما يركز بنوعومومتهم الى
نسبتهم الى الرسول عن طريق ابنته فاطمة الزهراء •

راح اولئك يبينون حق بني العباس في الخلافة ويدحضون حجج المطالبين
الاخرين بها فمن ذلك قول مروان بن ابي حفصة : (١)

حطم المناكب كل يوم زحام	خلوا الطريق لمعشر عاداتهم
ودعوا وراثة كل اميد حام	ارضوا بما قسم الاله لكم به
لبنى البنات وراثة الاعمام	ان يكون وليهم ذاك بكائن

ويقول منصور النمرى ايضا (٢) :

والا فالندامة للكفور	فان شكروا فقد انعمت فيهم
وردوا ما يناسب للذكور	وان قالوا بنو بنت فحق
مع الاعمام في ورق الزبور	وما لبني بنات من تراث

ولان النظام العباسي ، كسابقه ، لم ينبثق من الشعب ، او بعبارة
اخرى غرر بالشعب مدة من الزمن حتى استولى على السلطة فادار له ظهره
وعامله بأقصى ما كان يعامل به في العصر السابق ، فان الادب ، ادب البلاط
الذي كان يدافع عن ذلك النظام ، ليس من الشعب في شيء ، لانه بكل بساطة
شعر رسمي ويوق من ابواق الدعاية السلطانية •

وكان النظام العباسي يعرف اخلاق الشعب ويعرف الصفات التي يتمنى هذا
الشعب ان تكون في حكمه وكان لابد له من تثبيت سلطته بجميع الوسائل
الممكنة ومنها طبع الشعر الذي كان يلعب بحق دورا كبيرا في التأثير
على نفوس الناس وخصوصا على العرب ، اذ يكفينا ان نذكر ان قصيدة

(١) الاصفهاني: الاغانى ج ١٣ ص : ١٤٣ (ط مصورة عند دار الكتب)

(٢) الاصفهاني: الاغانى ج ١٣ ص ١٤٣

كان بإمكانها ان تشعل حربا ضروسا تهدوم سنين طويلة . ولهذا راح الشعراء
الابواق يصفون القاعمين على الامر بمكارم الاطلاق وبالصفات الحميدة التي
كان ينتشي لها العربي والتيورثها عن اباؤه واجداده كالكرم والشجاعة
ورجاجة العقل والتقوى ونجدة المستغيث الخ ... وحاولت الدعاية
الرسمية الماق هذه الصفات وما شابهها باولي الامر حتى تثق فيهم الرعية .
وكلامنا هذا لايعني ابدا ان جميع اولي الامر كانوا على شاكلة واحدة بل
كان فيهم من احبه الناس حقا .

ونحن لانعمم حتى نقول ان كل شاعر مدح خليفة مثلا هو من الشعراء
الرسميين او من ابواق النظام اذ يجب الا ننسى ان الحاجة كانت تدفع
بالكثير منهم الى المدح حتى يحصلوا على شيء من المال يمسون به رفقهم و
رقم ذويهم . ان الشعراء المداحين اذا جعلناهم ينضوون تحت مظلة
الشعراء الرسميين كان حكمنا عليهم قاسيا وخاطئا في الوقت
ذاته اذ يجب ان تظل الاوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية
لذلك العصر ماثلة امام اعيننا . فنحن قد رأينا كيف ان المدح
كان احيانا تجارة يتقاضى صاحبها عليها الاموال الطائلة اذا ادرك كيف
يستعمل الالفاظ المناسبة في الحالات المناسبة . ولا يعقل ان نجعل كل
مدح شاعرا رسميا فالامثلة كثيرا ما تبين لنا ان الشاعر قد يمدح
احدا في ظروف معينة ثم يهجو في ظروف معينة اخرى ، ولنا في دعبل
دليل واضح فقد مدح بعض الخلفاء وبعض الوجهاء والنبلاء ، لكنه مع ذلك
كان يمثل باستمرار ثورة على حكم عصره وعلى ظلمهم للناس .

زيادة على هذا نجد ان المداحين لعبوا احيانا دورا ايجابيا
فهم حين يمدحون خليفة ما انما يعبرون عن الصفات التي يراها الناس
جديرة بالسلطان العادل المحبوب من قبل شعبه ، وهم بذلك يؤدون واجبهم

نحو الجماهير التي ينتمون اليها لانهم يعبرون عن رغباتها أمام السلطان ويشجعون
اولي الامر على القيام باعمال تعود على الجماهير بالفائدة ، ولنا في ذلك امثلة كثيرة ،
سنذكرها في حينها .

بقي ان نشير الى ان الشعر الرسمي ، في العصر العباسي ، على الرغم
من ارتباطه الوثيق بالنظام الذي كان عامة الناس ساخطين عليه ، لم يكن
بعيدا كل البعد عن الجماهير كما كانت تريد له السلطة ، فالحكام آنذاك وان
كانوا قلة ، فقد اثروا في الجماهير بتشجيعهم عادات مغينة ومحاربتهم عادات
اخرى . ولكنهم تأثروا من جهة اخرى بآراء الشعب كذلك لان عملية التأشير
والتأثر كانت مستمرة على امتداد ذلك العصر .

والملاحظ أنه حيثما وجد التنافر بين الحكام والمحكومين كان هنالك أدبان ،
رسمي وشعبي : يعبر الرسمي عن آراء السلطة التي تتحكم بها الاقلية ، ويعبر
الشعبي عن الجماهير التي تمثل الاغلبية الغالبة . ولا تنتفي هذه الظاهرة الا في
حالة واحدة وهي في حال انبثاق السلطة فعلا عن الجماهير بحيث تكون معسرة
عن دموعاتها ومحقة لرغباتها ، ففي مثل هذه الحال يصبح الادب الشعبي والادب
الرسمي شيئا واحدا لان السلطة تكون حينئذ قد امتزجت بالشعب .

وحان الوقت الآن لنحدد مفهوم الشعر الشعبي في عصرنا ذلك . فما هو
الشعر الشعبي ؟ جرت العادة أن يعرف الباحث الظاهرة التي يدرسها تعريفا
جامعا مانعا كما يقول المناطقة . لكن مثل هذا التعريف في ظاهرتنا
امر مناف للعلمية ولذا نخشى اذا نحن عرفنا الشعر الشعبي في العصر
العباسي أن نسقط في التعميم الذي يجعل الرؤية ضبابية ، وسبب
خشيتنا ناتج عن ان الشعر الشعبي الذي وصل الينا من ذلك العصر

شيء قليل جدا وان كان الذى بين ايدينا منه يعطينا فكرة عنه ، ولعدم وصوله الينا اسباب كثيرة منها ضياع الكثير من الكتب التي تكون قد تناولته زيادة على الحصار الذى كان مضروبا على ذلك الضرب من الشعر لما فيه من حقائق كان اولو الامر يخشون ظهورها ؛ وانطلاقا مما لدينا من نصوص يمكن ان نجازف بالتعريف التالي علوان يكون مؤقتا حتى تسمح الظروف بظهور المزيد من ذلك الشعر ، وهذا التعريف يرى ان "الشعر الشعبي هو الذى يتناول هموم الناس وامالهم وطموحاتهم وآراءهم في جميع القضايا المطروحة على عصرهم سواء اكانت سياسية ام اقتصادية ام اجتماعية ام ثقافية شرط ان يكون هذا الشعر مادقا وان يكون بينه وبين الجماهير تجاوب تلقائي واتفاق مباشر " .

وهكذا لايسمى اى شعر شعبيا الا اذا كان يمس حياة الشعب لان الجماعة لن تتأثر بالشعر الا اذا كان يعالج شيئا يمس حياتها " (١) . نقطة الانطلاق اذا هي الجماعة وكل مايمسها ، ففي هذه الجماعة تختلج جملة من العواطف والافكار والمصالح والمشاكل والامال والرغبات وماشابه ذلك ، ولها كلها تأثير مؤكد على الفرد الذى يوءثر بدوره فيجماعته التي يتأثر بها . حياة الجماعة معقدة ومتعددة الجوانب ، وهذا مايجعلنا نعرف ان للشعر الشعبي معينا خصبا لاينضب ابدا ، وكيف ينضب ماكان معينا على الحياة ؟ الشعراء الشعبيون يغرفون من هذا المحيط الضخم الذى هو حياة الشعب بكل ما فيها من خصب وتنوع وجدة .

والحياة لايمكن ابدا ان نحصرها في ظواهر معينة تنقلب الى قوالب ادبية وبعبارة اخرى لايمكن حصرها في اغراض شعرية محددة كالاغراض التقليدية المعروفة من مدح وهجاء ورثاء وغزل الخ

ان الحياة تأبى هذا التقييد في الوقت الذى لايمكن للشاعر فيه ان

(١) جابر احمد عصفور : مفهوم الشعر ، دراسة في التراث النقدي ص ٢٧٤
دار الثقافة للنشر والطباعة القاهرة ١٩٧٨ .

يفلت من قيود محيطه ومجتمعه ، فهو محكوم عليه ان يتأثر به ، اى ان يتأثر بهذا المجتمع المتغير دائما ، المتطور باستمرار ، والذي لاتتوقف فيه الحركة والنمو ابدا (١) على الرغم من ان وثيرة التغيير والتطور والنمو قد تكون بطيئة حينما حتى تبدو وكأنها لاتتحرك ، وسريعة حينما اخر حتى يبدو اللحاق بها يكاد يكون مستحيلا . وبما ان الجماهير تمثل الاغلبية الساحقة في اى مجتمع ، فان اغلبية الشعراء تكون نابعة منها ودليلنا هو " هذا الاتمال الوثيق بين الشعر والشعب ... الذى جعل اكثر شعراء الشعب من ابناء الطبقة العامة العاملة " (٢) فالاساس اذا فبالتمييز بين شاعر رسمي واخر شعبي هو في البحث عن اصل الشاعر ومحيطه وبيئته من العلم ان الشاعر انسان يتغير حسب الظروف المحيطة به ، فقد يكون من الطبقة المترفة ومع ذلك يشعر بالناس لانهم قد يجد نفسه في خضم الحياة ملتصقا بالشعب معبرا عن همومه فيتشرب من ذلك المحيط معاناته ويتأثر به ، وبالعكس قد يكون فقيرا ابن فقير ولكن له نفسا تواقة الى فوق ، الى قمم السلطة ، الامر الذي قد يجعله ينسلخ عن طبقته ويعبر عن الاخرى فتصبح القضية بذلك " قسمة شعر لاقسمة شعراء " (٣) وحين نقول قسمة شعر فاننا نعني بها انتماء الوجهة معينة ، فامنا انتماء الى الجماهير واما انتماء اليماني في ذلك . فالشاعر الصادق هو الذى يعبر عن حقيقة وضعه بصدق بحيث لا يعبر عن الشعب الا من كان حقا منه ولا ينطق بشعر بعيد عن الشعب الا من هو بعيد عنه .

(١) - مصطفى الشكعة : الشعر والشعراء في العصر العباسي ص ٤٠٣ دار العلم

للملايين ط ١٩٧٥ بيروت .

(٢) شوقي فيف الشعر وطوابعه الشعبية علومر العصور ص ٦٢ دار المعارف

بمصر ط اولى القاهرة ١٩٧٧

(٣) احمد كمال زكي : الحياة الادبية في البصرة الى نهاية القرن الثاني

الهجرى ص ٣٢٢ دار المعارف بمصر القاهرة ١٩٨١ .

هناك قضية أخرى شغلت بال الباحثين ألا وهي لغة الشعر الشعبي .
كيف تكون اللغة حتى نسميها شعبية ؟ وبالمقابل كيف تكون حتى لانسميها
شعبية ؟ هل هناك تعارض بين اللغة الفصيحة وبين الشعبية ؟ قبل كل
شيء لابد من استبعاد قضية الفصاحة بمفهومها التقليدي والنظر اليها
بمنظار جديد يجعل اللغة فصيحة اذا كانت تعبر عن الناس الذين يتكلمون
بها في ظروف معينة . وهذا يعني ان اللغة متى عبرت عن خواطر اصحابها
واحلامهم واما لهم وطموحاتهم فهي فصيحة ومتى لم تعبر فهي غير فصيحة
مع العلم ان التعبير بها يجب ان يكون مفهوما من قبل عامة الناس الذين
نتجت عنهم . ليس هناك اذا تعارض بين الفصاحة في نظرنا وبين الشعبية
فقدما قيل لكل مقام مقال ونحن نقول لكل مقام في كل عصر مقال . وهكذا
يتغير مفهوم الفصاحة من عصر الى عصر كما تتغير الحياة وظروف الناس ،
وبهذا المفهوم تصبح اللهجات جميعها فصيحة لانها تعبر عن قطاع معين
من الناس في فترة معينة من مراحل تاريخهم . وهذه اللهجات تمثل في
مجموعها اللغة العربية عبر الازمان والامصار ، فاللغة في العصر الجاهلي
ليست هي نفسها في العصر العباسي لكنها مع ذلك تبقى لغة عربية تعبر
عن مرحلة معينة ، وعوض ان نقول تلك فصيحة والاخرى غير فصيحة فمن
الاصوب ان نقول ان هذه او تلك انعكاس لوضع معين عاشه العرب في فترة
معينة . والملاحظ ان اللغة في عصر لاحق تكون اكثر اتساعا مما سبق
لانها زيادة على التراث الذي تحمله من العصر السابق فانها تزداد غنى
بالتجارب الجديدة ، وهي كذلك تنتقي ما يصلح من الماضي وتضيف عليه مفاهيم
جديدة .

اما اللغة في العصر العباسي ، فليس من السهل ان نعرف بالتفصيل
ما كانت عليه يومذاك نظرا لتباعد العهد بيننا وبينها ، لكن الشواهد التي
عبرت الزمن ووصلت اليها كفيلة بان توضح لنا القضية بعض التوضيح .

فأول شيء نلاحظه هو وجود ثغرة بين اللغة الفصحى وبين لغة الشعب ،
ودليلنا هو حركة التأليف في اللغة التي نشطت منذ العصر الاموي وبلغت
أوجها في العصر العباسي ، أي ان نشوء لغة جديدة بعيدة نسبيا عن اللغة
المعروفة في صدر الاسلام او منحرفة عنها كان احد الاسباب في تقنين
اللغة وتعليمها بالتالي الهمن يجهلون بها . ولعل الرواية التي تحكي نشأة
النحو على يد ابي الأسود الدؤلي حين اخطأت ابنته معه خير دليل على ذلك .
لقد تطورت اللغة تطورا سريعا كالأحداث التي شهدتها ذلك العصر بحيث
أصبح يخشى من تطورها ذلك على تراث العربية القديم بكل ما يعنيه من مفاهيم .
صحيح انه كان للإسلام دور كبير في ظهور حركة التأليف في كثير من العلوم
لكن هذا يعني كذلك من بعض الجوانب ان اللغة كانت تتطور بطريقة حتمية
وسريعة حتى وان كان في تطورها بعض الضرر للإسلام وللقرآن الكريم الذي نزل
بها . ومن هنا يمكن ان نقول ان الفصاحة بمفهومها التقليدي قد انتهت
في العصر الاموي الذي شهد اعظم الفتوحات التي ذهب فيها العرب بعيدا
عن جزييرتهم واختلطوا بغيرهم من الأجناس والشعوب فظهرت هنا وهناك لهجات
عامية وان كان أساسها الفصحى .

ولذا يجب ان تنتفي ثنائية الفصحى والعاميات لانها قضية تعرقل
البحث فقط دون ان تمل النتيجة إذ ماذا عسانا ان نقول عن اللهجات
العربية في العصر الجاهلي ؟ هل كانت لهجة قريش وحدها فصيحة ؟ كلا
طبعاً . ليس البحث في هذه القضية شيئا جديدا بل هو قديم قدم الدراسات
اللغوية ذاتها ولم يتوصل فيه النتيجة لانه عولج بصفة احادية .
واذا قبلنا بتلك الصفة فهذا يعني اننا نقف ضد تيار الحياة المتطور
اذ كيف يعقل ان تبقى العربية على حالها - أي ان تبقى فصيحة بذلك
المفهوم - وهل يجوز ان نطلب من شاعر كأبي نواس ان يكون كأمريء القيس ؟

لا يمكننا ذلك اللهم الا اذا استطعنا ان نثبت الحياة في مرحلة واحدة ونوقف صيرورتها وهذا محال .

ولعل السبب في هذا الاشكال هو ان اللغة تقدر في اغلب الاديان لارتباطها بدين من الاديان وخاصة تلك التي لها كتب كالدين الاسلامي والمسيحي مثلا ، فمن هنا ونظرا لارتباط اللغة بالكتب السماوية يخشى الناس اي تجديد في هذه اللغة بل يحاربونه بشدة اما عن الوعي او عن وعي وادراك ، ويتجلى هذا الوعي في العصر العباسي الاول ، في ان السلطة الحاكمة فيه كانت تستعمل الدين لسيطرتها على الجماهير وتستغله بدليل اسماء الخلفاء كالمنصور والمهدي والرشيد الخ ونفهم هذا في ذلك الاطار العام الذي كانت تمثله العقلية الغيبية السائدة في ذلك العصر . لقد كان لاصحاب اللغة الفصحى في ذلك الوقت امتيازات كبيرة فهم اصحاب السيادة عادة وهذا ما يجعلنا نفهم تلك النظرة الى اللغة العامية او الى الانتاج الادبي الشعبي لذلك العصر والتي كانت نظرة احتقار وازدراء .

ومن هنا ايضا نستنتج مدى استعمالهم اللغة كوسيلة للحفاظ " على الاوضاع الطبقيية والاجتماعية " (١) .

ونحن لانريد ان نقول ان العباسيين الحاكمين كانوا يدركون هذا تمام الادراك بل انهم جعلوه يطبق تبعا للسياق العام لسياستهم ولتشجيعهم لذلك النمط من اللغة كما كان يحدث في المدايح التي كان الشعراء يمدحونهم بها فهي كلها او اغلبها في صيغ رسمية كما اريد لها على الرغم من ان

(١) شوقي عبد الحكيم : الفولكلور والاساطير العربية ص ٢٠٧ مط دار ابن

خلدون ط اولي بيروت ١٩٧٨ .

الشعراء لم يستسيغوا ذلك كله ولم يرتاحوا اليه^(١).

وهذا دليل آخر على تباين مستويات اللغة في ذلك العصر ، اولنغل انه ارسلنا
كل مستوى لغوي بيئة معينة من الشعب .

والنتيجة ان لغة الشعر الشعبي في نظرنا هي اللغة التي يفهمها الشعب وهي في
بحثنا اللغة التي يفهمها الانسان العادي في العصر العباسي الاول .

وتجدر الملاحظة الى أن بعض الباحثين المحدثين في ميدان الأدب الشعبي قد
جعلوا اللغة العامية من الأمور الدالة على شعبية الشعر بمعنى انهم لا يسمون الشعر شعبيا
الا اذا كان ناطقا بالعامية والتي تختلف في عصرنا هذا من قطر عربي الى آخر مع وجود أمور
كثيرة متشابهة فيها . ولا يخفى ما في هذه الفكرة من الخطأ لاننا كما قلنا سابقا ليس كل ما يكتب
بالعامية يسمى شعبيا أو كل ما يكتب بالفصحى يسمى رسميا بل نجد المحتوى الشعبي في هذه
وتلك كما نجد الرسمي فيهما أيضا .

ان الذين جعلوا العامية من خصائص الشعر الشعبي اعتمدوا هذه الصفة العرضية
والتي ستزول بزوال موجباتها . ان الوضع الراهن للامة العربية جعلها تدرك وكأن العامية
طاغية عليها وهي كذلك فعلا الا ان هذا الوضع ليس دائما وليس مستمرا بل سوف ينتفي اذا
انتفت أسبابه كذلك . فمن اسباب شيوع العامية في الاقطار العربية وباعدها بعضها عن بعض
احيانا بالرغم من وجود الصلة بينها ، فمن أسباب ذلك تفشي الأمية بين الجماهير العربية
والتي تتجاوز نسبة الثمانين بالمئة أحيانا في بعض الأقطار .

الا ان هذه الدول وضع بعضها مشاريع كبيرة وبرامج عريضة

(١) - حسين عطوان : مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي الأول ص : ١٦

طبع دار المعارف ، القاهرة ١٩٧٤ .

طويلة المدى للقضاء على الامية . ونجاح هذه البرامج سوف يقرب حتماً بين الجماهير العربية الموزعة شرقاً وغرباً . وهذا ما يجعل لغة العرب تتوحد بصفة حتمية . والخلاص هو طبعاً في تعليم اللغة العربية . لنتمسور ان جميع الاقطار العربية انتفت منها الامية واصبح كل مواطنها متعلمين ومثقفين ، هل سيبقى بعد ذلك مبرر لكتابة الشعر بالعامية وغيره من الفنون ؟ ابداً ، وهذا يبين الخطأ الذي وقع فيه الباحثون المحدثون والذين جعلوا العامية خاصية من خصائص الشعر الشعبي . ولاداعي لذكر اسباب هذا الوضع كالفترة الزمنية التي استعمرت فيها الدول ودور الاستعمار في القضاء على اللغة العربية . ولعل ابرز دليل لنا في عمالية المسخ التي قام بها المستعمر ما حدث في الجزائر حيث لجأ المستعمر الى اصدار جرائد مكتوبة بالعامية حتى يوهم الجزائريين بان تلك هي لغتهم وكان يطلق على تلك العامية اللغة العربية في الجزائر وفوق هذا لجأ الى تعليمها في المدارس بعد افراغها من كل محتوى ايجابي كما فرض على معلمي الصبيان ان يلقنوا القرآن الكريم دون تفسير ، ونحن شخصياً عشنا هذه التجربة حيث اصبحت العربية تبدو غريبة في وطنها وكأنها لغة قوم آخرين ، لكن كل تلك المحاولات باءت بالافقار كما هو معلوم على الرغم من ان تلك السياسة الاستعمارية تركت لها بعض الازئاب الذين مازالوا يجنون الى العبد البائد .

ومع كل هذا فان اللغة وحدها لا تكفي لجعل الشعر شعبياً لاننا لو اعتمدنا اللغة وحدها فستواجهنا مشكلة اخرى هي ان الكثير من الانتاج الادبي الذي تحمله تلك اللغة ليس فيه من الشعبية شيء ، لانه يصدر عن الذات الفردية وليس معبراً عن الجماعة . وهذا مانجده ايضاً في الشعر الفصيح والقضية نجدها قديماً وحديثاً . ان المشكلة متشابهة سواء

في العصور القديمة أم في العصر الحديث ففي عصرنا هذا لهجة فصيحـة
وأخريات عاميات تقترب أن كثيرا وإن قليلا من الأم ، وفي الجانبين
شعر رسمي وشعر شعبي أما في القديم فاللغة الفصحى هي الغالبة نظـرا
لقرب القوم آنذاك من عهد الفصاحة ، لكن المشكلة نفسها موجودة
إذ إن هناك شعرا شعبيا وآخر رسميا .

ونستطيع التغلب على هذا اللبس بالعودة إلى خصائص أخرى في الشعر
الشعبي تكون هي الفيصل ومنها الوجدان الشعبي أو الذات العامة (١) .
وهذا الوجدان العام يختلف باختلاف العصور وحسب تطور المجتمعات ، ففي
العصر الجاهلي كان النظام القبلي هو السائد وكان شيوخ القبائل وأعيانها
ولغنياء ما هم الذين يمثلون السلطة الرسمية وكانت الفئات الأخرى
تمثل الجماهير العريضة ، وكيفينا إن نتذكر الصعاليك وعروة بن السورد
وبيته الشهير (٢) :

أفرق جسمي في جـسوم كثيرة وأحسو قراح الماء والماء بارد

ثم جاء الإسلام فتحول الوجدان العام الوجدان ديني لأن الإسلام جاء ثورة
على الأوضاع وجاء نصرة للمظلومين ولصالح الطبقات المستضعفة والمحرومة
ثم سيطرت الأسر المالكة ابتداء من معاوية فأساءت كثيرا لتلك الطبقات
التي لم تفرح إلا قليلا بمجيء الإسلام إذ سرعان ما انتهك بنو أمية أهم
شرط في الحكم الإسلامي وهو مبدأ الشورى زيادة على الظلم الذي كآلوه للرعية

(١) عبد الحميد يونس : دفاع عن الفولكلور ص ١٠٨ مط الهيئة المصرية العامة
للكتاب القاهرة ١٩٧٣ ونبيلة إبراهيم : أشكال التعبير في الأدب

الشعبي ص ١ دار النهضة مصر بدون تاريخ .

٢ - الأغاني ج : ٣ ص ٧٤ مصورة عن دار الكتب

فاستيقظ الوجدان القومي عند كثير من القبائل الداخلة في الاسلام مما ادى بها في النهاية الى الانفصال عن السلطة العربية التي كانت رأس الامة الاسلامية . وتبعاً لذلك كان الشعر الشعبي يتخذ الاشكال المناسبة التي تفرضها المرحلة التي يمر بها المجتمع .

ومن المقررات التي اوردتها الباحثة لتميز الادب الشعبي العراقي (١)، وهذا امر طبيعي لان المجتمعات تختلف دائماً في خصوصياتها . على الرغم من تشابهها في مسارها التاريخي العام ، ولا يمكن ابدًا ان نجد ظاهرتين تاريخيتين متشابهتين تمام التشابه لان اختلاف الظروف المحيطة بهما في الزمان والمكان يقوم بدور كبير في صياغة شكل الظاهرة وفي ايجاد خصائصها . ومن هنا فلاعجب اذا كان الادب الشعبي عريقاً في مضمونه وشكله وصيغته المختلفة ، فعراقته تأتي من كونه مرتبطاً بشعب معين في فترة وفي رقعة محدوتين ، لكن هذا لا ينفي ابدًا انه يغني التراث الانساني على الرغم من تميزه .

اما الجهل بالمؤلف (٢) فلا يؤثر كثيراً لان المؤلف معروف نوعاً فهو اي واحد من ابناء الشعب الذي انتج ذلك الادب ، وسواء عرف المؤلف ام لم يعرف فهذا لا يقلل ابدًا من قيمة ادبه مع العلم ان للادب استقلالية عن منتجه ، كالوالدين يعطيان النور لمولودهما لكنهما لن يستطيعا ايقاف نموه ، فالطفل على الرغم من والديه وكذلك الادب والادب الشعبي خاصة اذا خرج الى الوجود ، يصبح مستقلاً عن صاحبه ، ويحق للشعب حينئذ ان يضيف عليه وينقحه ويغنيه بالتجارب الاخرى دون ان يكون للاديب حق الاعتراض ولنا في السير مثال وخاصة السير الشعبية كابي زيد الهلالي وسيف بن ذي يزن وغيرهما .

(١) عبدالحميد يونس دفاع عن الفولكلور ص ١٠٤ - ١٠٦

(٢) المرجع نفسه ص ١٠٤ - ١٠٦

أما أن يجعل البعض في عصرنا هذا الجهل بالمؤلف أساسا لشعبية الشعر والأدب عموما فهذا يعني أننا خائفون ذاتية المؤلف ونخشاهم كأنهم كابوس يفقد الشعر قيمته الفنية ، وهذا يعني أننا نتجاهل أن المؤلف واحد من الشعب يحس بما يكابده الشعب ويعانيه ويصوغه في قالب فني .
فماذا يضر لو عرفنا أن الأشعار الفلانية كتبها بيرم التونسي مثلا ؟ وماذا يضر لو عرفنا أن الفاليلة وال... كتبها زيد من الناس أو عمرو ؟ وماذا يضر لو عرفنا أن أشعار الصغار كتبها عروة بن الورد أو أبو فرعون الساسي ؟ لو كان الشعر فعلا شعبيا فلن نغير شيء البتة إذ ليس الجهل بالمؤلف أبدا أساسا في تحديد مفهوم الشعر الشعبي .

وهناك ظاهرة أخرى تعترض سبيل الباحث في هذا المضمار وهي ندرة الشعر الشعبي في مصادرنا الأدبية القديمة إذا ما قورن بغريمه الشعر الرسمي ، وتبعث المراجع الحديثة سابقاتها في ذلك . وأسباب ندرة هذا الشعر كثيرة منها أن كثيرا من المصادر تلفت أو ما زالت مخبأة في أماكن مجهولة ولم تر النور حتى الآن ومنها أن الرواة القدماء كانوا يترفعون عن ذكر الشعر المرتبط بالعامية لأنه من صنع السوق كما يقولون ولأنه لا يصلح لاستئجار الجليلة أن تخطق به وكل ذلك ناتج عن النظرة السلفية التي سيطرت على كل مناحي الحياة في تلك العصور ، وهي أيضا إحدى نتائج تأثير السلطة الحاكمة آنذاك على الجماهير بحيث راحت تضيف الاحترام والتقدير على كل ما هو قديم ، وتزدري كل ما هو حديث وتحتقره حتى ثارت تلك القضية في العهد القديم وهي الشهيرة بالقدماء والمحدثين ، وكان لكليهما أنصار وأشباع ، وهذه جملة من العوامل التي أسهمت كلها في اندثار الكثير من الشعر الشعبي في العصور القديمة ، وانفة الرواة عن ذكر مثل ذلك الشعر جاءت نتيجة الدعاية الرسمية التي شارك فيها الحكام والأدباء واللغويين والمحدثون وغيرهم ممن كان

لهم مصلحة في ذلك • ويمكننا هنا أن نستشهد بقول ابن الأعرابي في قضية
القدامى والمحدثين حيث يقول : " انما شعر هو^١ لا^٢ المحدثين - مثل ابي
نواس وغيره - مثل الخريجان يشم يوما ويذوى فيرمى به ، واشعار القدماء
مثل المسك والعنبر ، كلما حركته ازداد طيبا " (١) •

كانت النظرة اذا احادية الجانب ، اعطت جزءا من الادب كل الاهمية
الاستثنائية على حساب الجزء الآخر الذى تجاهلته ، فحين كان يذكر بعض
اولئك الشعراء الشعبيين مثلا في مصادرنا فانما يذكرون من اجل التندر
والفكاهة لاغير او يخط من قيمتهم صراحة تمشيها مع فكرة ازدراء ما يتصل
بالشعب ، فهذا ابو هفان الناقد المشهور حين يذكر القصافي الاب يقول
عنه : " كان لا يمدح الا وضيعا مثل فرج الرخجي (٢) وطبقته فسقط كثير
من شعره " (٣) • وما احوجنا في موضوعنا هذا لمثل هذا الشعر الذى
كان يقوله القصافي في اولئك " الوضعاء " • ومثل قول ابي هفان كثير
في تلك المصادر وحتى المحدثون حين يذكرون بعض اولئك الشعراء كأبي
فرعون الساسي او ابي الشمقق فانما هدفهم الفكاهة والتندر وعلى الرغم
من ان هذين الشاعرين لجأ الى السخرية كوسيلة تبليغ حتى يكون لكلاهما
المدى الانسب فان سخريتهما من النوع المأساوى الذى يبكي اكثر مما يضحك •

(١) المرزباني: الموشح ص ٣٨٤ تحقيق علي محمد البجاوى مط دار نهضة
مصر القاهرة ١٩٦٥ •

(٢) فرج الرخجي: كان مملوكا لحمدونه بنت الرشيد ولحق ولأوه بالرشيد
فقلده الاهواز (ابن الجراح : الورقة ص ٨) •

(٣) ابن الجراح : الورقة ص ٨ تحقيق عبدالوهاب عزام وعبدالستار
فراج ط ٢ مط دار المعارف بمصر القاهرة ١٩٥٣ م

وجاء الآن دور مناقشة بعض الآراء حول شعبية الشعر فمن ذلك قول البهيتي من أن آخر الحكم الأموي كان فيه " نمو للشعبية في الشعر لأنه عهد فكاك النفوس مما كان يغلها من قبل من أسار " (١) .

أولاً: أن العهد الأموي من أوله إلى آخره ، لم يكن عهد فكاك للنفوس مما كان يربطها من قبل في جميع الميادين ، فمن الناحية السياسية نعرف جميعاً أن الأمويين لجؤوا إلى مبدأ " فرق تسد " وذلك بجعلهم القبائل تتفارب وتتمارع فيما بينها بإحياء العصبية القبلية التي حاول القرآن نزعها من نفوس العرب واستبدالها برابطة أوسع واشمل هي رابطة الإسلام .

ثانياً : كلنا نعرف ما فعل الأمويون بآل البيت الذين كان ينظر إليهم الشعب على أنهم وحدهم مظلوم من المحن التي هو فيها ومقاتل الطالبين شاهد على ذلك .

ثالثاً : إذا كان الكاتب يقصد بفك الأسار على النفوس تلك الأمور التي بدأت تظهر لدى بعض الخلفاء ولدى قطاع قليل من الناس كالاستخفاف بحدود الدين وتعاليمه فهذا لم يكن عاماً لدى الشعب ولم يمل إلى ما وصل إليه في العصر اللاحق .

ولسنا ندري لماذا ربط الكاتب بين نمو الشعبية وفك الأسار على النفوس لأن الشعبية موجودة باستمرار حيثما كان الشعب ، وربما قد تكون أوضح في الفترات التي تتعرض فيها الشعوب للتسلط والظلم والعنف كما حدث في العصر الأموي بالذات .

(١) البهيتي: تاريخ الشعر حتى آخر القرن الثالث الهجري ص ٣٨٣

ويقول الكاتب مرة أخرى ان الشعر الشعبي كان " يتجه الى شعبية
تقره من نفوس الناس وتباعده بينه وبين مذهب الشعر الرسمي الذي سبقه " (١) •

ونفهم من هذا الكلام ان الشعر قبله ان رسميا كله وهذا غير صحيح لان
الشعر العربي حتى قبل العصر الاموي كان يهتم بالناس الا ان ظروفًا كثيرة
حالت دون وصوله اليها. كما قد سبقا النظرة السلفية للتراث
ومنها ان كثيرا من الشعر قبل الاسلام كان مرتبطا بالوثنية وكانت فيه
امور مخالفة للإسلام فترفع رواتنا عن ذكر مثل ذلك الشعر زيادة على ان
الكثير منه قد ضاع بسبب اختفاء بعض المصادر التي اشارت اليه وبسبب
الرواية وهي الطريقة المستعملة انذاك في نقل الاخبار من عصر السبي
عصر ، ففي الرواية تضيع التفاصيل ويطور الخبر حسب الزمان والمكان •

لكن ماذا يفهم صاحب هذه الآراء السابقة من الشعر الشعبي او من
شعبية الشعر كما يسميها ؟ انه يراها " اتجلفا فطريا من الشاعر الذي
نحو من التعبير عن صاحبه في غير تقيد بالتقاليد الموروثة ، تقيدا
يجعل الشعر كله صورة مكرورة من القديم " (٢) فهو يرى اذا ان كل
شعر غير قديم وكل شعر يثور على التقاليد الفنية الموجودة قبل العصر
الاموي هو شعر شعبي • وهذه مغالطة يجب الا تقع فيها فكم من شعر "حديث"
في ذلك الوقت لم يكن الا امتدادا للشعر الرسمي وكم قديم كان يمثل
قمة الشعبية •

وهو يرى ان الشعبية العامة للشعر تحققت في العصر العباسي بعدما
سبقتها ارهاسات مهدت لها في العصر الاموي (٣) • وهذا صحيح من ناحية
فقط بحيث ان تراث عصر ما يوءثر حتما ان سلبا وان ايجابا في تراث العصر

(١) البهبهتي : المرجع السابق ص ٣٣٥

(٢) البهبهتي : المرجع نفسه ص ٢٩٤ - ٢٩٥

(٣) البهبهتي : المرجع نفسه ص ٣٨٤ - ٣٨٦

اللاحق ، وذلك بازدهار بعض الجوانب منه وطفوها الناعلى بعدما كانت خافتة او باندثار بعضها الآخر الذى لم يعد يلائم العصر وان كان ممن قبل يحتل المقدمة ، ولنا مثال في ظاهرة النقااض التي اختفت بعد ان سلات العصر الاموى ضجة وضجيجا ، وباختصار لايبقى الا ما يتماشى مع متطلبات العصر الجديد .

وهو يفهم ايضا من الشعبية سهولة اللغة بحيث يستعمل الشاعر الالفاظ الجارية على السنة العامة والتي يفهمها الشعب بدون كبير عناء وهذا صحيح ايضا من ناحية واحدة فقط لان الجماهير تفهم وتتذوق ما يمسها بسهولة وبسرعة اكثر من الموضوعات الاخرى التي لاعلاقة لها بها . ثم يستشهد على اقواله هذه بشعر بشار وابي العتاهية فيرى ان بشارا ادرك " وجوب ان يمل الشعر الى كل انسان وان يعالج كل موضوع " (١) . وهناك يلتمس الكاتب الموضوع ويضع يده عليه لكنه سرعان ما يبتعد عنه بقوله : " نزل بشار بالشعر الرفيع من موضوعاته الرفيعة في الشعر الى كل موضوع مهما بلغت تفاهته يعالجه شعرا ليرضي طائفة من الناس " (٢) ولا يكفي ان يتناول الشاعر اى موضوع تافه وينظم فيه شعرا ليصبح شعبيا ، لان بشارا حين تناول تلك الموضوعات كان يصدر عن وجدان ذاتي مما جعل شعره فردى الاتجاه احيانا كثيرة . وهذه قضية نجدها في شعرنا العربي منذ العهد القديم وحتى الان سواء كان بالفصحى ام بالعواميات المختلفة وهي الشعر المأدر عن الوجدان الفردي ، فهذا الشعر ليس رسميا ولكنه ليس شعبيا كذلك على انه من الشعبية اقرب ويمكن ان نلحقه بالشعر الشعبي ونسميه

(١) البهيتي: تاريخ الشعر الخ ص ٣٥٤

(٢) المرجع نفسه : ص ٣٥٣

عامية للتفرقة فقط وهذا لا يعني ابدا اننا نسيء للعامة في شيء *

نعود الى قضية الشعر الرفيع التي طرحها الكاتب حين تحدث عن بشار
والتي يفهم منها ان الشعر يجب ان يبقى في صومعته عاليا نقيًا وان بشارا
اساء الى هذا الشعر حين نزل به الى الناس وموضوعاتهم التافهة * وهنا
يجب ان نتساءل : ماذا يقصد بالرفعة في الشعر ؟ فان كانت تعني ان يكون
الشعر جزلا ومحبوكا على طريقة القدامى وان يتناول الموضوعات
" الجادة " التي تناولوها فهو لا يعدو ان يكون تابعاً لشعر الدعاية
الرسمية التي تشبثت بمثل هذه الافكار حتى تسمح لها بالسيطرة على الوضع
الراهن * اما اذا كانت الرفعة ان يكون الشعر : مستوى تطلعات الجماهير
وطموحاتها فهذا هو الشعر الشعبي الحقيقي *

اما ابو العتاهية فان الكاتب يرى انه
في لفظ الشعر " (١) لكن اللفظ الشعبي وحده غير
كما ذكرنا من قبل لان الاهم من ذلك هو المضمون
على الشاعر الفاظا تناسبه ، فشعر ابي العتاه
الوافر من الشهرة والانتشار بسبب لفظه وحده
طرحها وعالجها كالوضع الاجتماعي والاخلاقي والاق
كان ينتمي اليه * وعلى الرغم من اشتهار ابي
طغى على شعره الا انه في زهده ذلك كان يتصدى
كان يعاني منها الناس في العصر العباسي الاول *

الى " الشعبية
لجعل الشعر شعبيا
للشعر الذي يفرض
لم ينل هذا القسط
نا بسبب القضايا التي
والديني للمجتمع الذي
ية بالزهد السذي
المشاكل التي

ويرى الكاتب اخيرا ان الشعبية بجميع مفاهيمها تمت في العصر
العباسي ، وان الخليفة الاموي الوليد هو الاب الروحي للعصر كله (٢) *
ففي الشطر الاول من قوله تعميم لا يفي بالغرض لاننا بينا سابقا ان الشعر

(١) البهيتي المرجع السابق ص ٣٨٧

(٢) المرجع نفسه ص ٣٢٦

الشعبي كان وما زال موجودا منذ اقدم العصور وليس من المنطق في شيء ان ينفرد عصر واحد به دون العصور الاخرى ، وفي الشطر الثاني من قوله مبالغة صريحة اذ كيف يعقل ان يكون شخص واحد ابا فنيا لعصر زاهر بصنوف الفنون والانجازات في مختلف مناحي الحياة كالعصر العباسي ، على الرغم من ان الفرد في ظروف معينة قد يؤثر في عصر بأكمله وربما في عصور عديدة مثل الانبياء والعلماء والفلاسفة . والوليد بالذات لم يكن ابا لظاهرة الشعبية في العصر العباسي لانه اولبعيد عن الجماهير لكونه خليفة من اسرة تقم عليها الشعب كثيرا بل يمكن ان نقول ان الذين قلدوه كانوا مثله موسرين مدفوعين لان يستمتعوا بالخيرات التي تدفقت عليهم دون ان يتعبوا في الحصول عليها . لم يؤثر فيهم الوليد اذا بل وضعهم المشابه لوضعه هو الذي فرض عليهم ان يكونوا مثله وربما اكثر منه .

وخلاصة القول ان الكاتب وقع في هذه المغالطات لانه اتخذ الشكل وحده في الحكم على الشعر ولولا الشكل لما استطاع ان يربط بين الوليد وبين ابي العتاهية . ومرة اخرى نقول ان الشكل وان كان يلعب دورا كبيرا في تحديد الاتجاه الا انه يبقى ناقصا ما لم يدعم بالمضمون الذي يعطي المعنى الحقيقي للشعر .

وهناك باحث آخر وقع في المغالطات نفسها تقريبا وهو احمد صادق الجمال ، فهو يقول في اثناء حديثه عن الفرق بين الادبين الشعبي والعامي : " نفرق بينهما على اساس الاعتبار اللفظي اولا ، فنجد ان الادب العامي قد استقى مادته من الفصحى المصحفة والملحونة ، ومن الالفاظ الدخيلة بل ومن اللغة الجارية ، الا انه قد ظهر فيها التجريد ولاكذلك الادب الشعبي الذي يتخذ مادته من الملحون والدخيل ، الا انها الفاظ اسلوب الحديث الجارى ... وهكذا لا يختط الادب العامي حدودا معينة لالفاظه كي يلزمها كما

هو الحال في الادب الشعبي" (١) وقد تعمدا نقل هذا النص كما جاء على الرغم من طوبوله لنبيين غموضه ، اذ يبدو جليا ان الفكرة لم تتضح لسدي هذا الباحث ، فهو يحاول ان يفرق بين الادبين ، العامي والشعبي ، وكلاهما في نظره يستقي مادته من الفصحى المصحفة والملحونة والدخيل والكلام الجارى بين الناس الا ان لغة العامي قد ظهر فيها التجريد (او التجديد) بينما يتخذ الشعبي الفاظ اسلوب الجارى التي لا تحتوى على تجريد (او تجديد) كما يفهم من السياق .

ولكن ماذا يقصد الباحث بالادب العامي والادب الشعبي ؟ الادب العامي عنده هو : " الذى دخلت لغته اللحن ويعد عن قالب اللغة الفصيحة والاساليب المولدة او اللهجات " (٢) وهذا يقتضي منا ان نفهم ان الادب الشعبي عكس العامي اي انه هو الذى لم يدخل اللحن لغته ولم يبتعد عن قالب الفصحى و الاساليب المولدة واللهجات . ثم يوضح الباحث الفرق بينهما اكثر بكون الادب الشعبي يعتمد المشافهة اكثر من التدوين ويمدر عن المجتمع ككل بينما يعتمد العامي على التدوين ويصدر عن فرد بذاته (٣) .

وهنا تتضح المغالطة التي وقع فيها الباحث لان المقاييس التي اعتمدها للفرق بينهما لا تثبت امام النقد ، فالمشافهة التي جعلها حكرا على الادب الشعبي ليست ابدا دليلا على شعبية الشعر لان كثيرا من النصوص تنتقل شفويا ولكن لعللاقة لها بالشعب الا انه يمس الموضوع

(١) احمد صادق الجمال : الادب العامي في مصر في العصر المملوكي ص ٧٣

الدار القومية للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٦

(٢ - ٣) المرجع نفسه ص ٧٢ - ٧٣

حين يقول ان الادب الشعبي يصدر عن المجتمع ككل . واما النقطة الثانية التي ذكرها اي تدوين العامي ونسبته الى فرد معين فهذا ايضا ليس دليلا كافيا لجعل الشعر غير شعبي فكما ذكرنا من قبل ليس في معرفة مؤلف النص اي ضرر او حرج ولا ينزع هذا التدوين صفة الشعبية عنه ، فقد يكون الاثر الادبي معروف المؤلف مدونا لكنه مع ذلك يبقى في صميم الادب الشعبي ، ولعل السبب في وقوعه في هذه المغالطة هو اهتمامه بالشكل اكثر منه بالمحتوى ولو انه يناقش كلامه هذا فيما بعد حين يقول : " نرى ان الادب الشعبي والادب العامي كليهما يعبران عن نفسية المجتمع ويمعن اقرب يعبران عن نفسية الطبقات المحكومة " (١) لقد اكتشف ان الشكل ليس اساسا في التفريق بينهما وليس فاصلا لان كليهما كما قال يعبر عن نفسية الطبقات المحكومة ، وهو بعد ذلك يدرك ان هذا العامي قد نشأ وانبثق من "الوجدان الفطري ليعبر عن حياة القطاع الاجتماعي الكبير " (٢) لكنه لم يستطع التخلص من قضية الشكل التي اوقعته في هذا اللبس .

ان الكاتب لايفصل بين الادبين في النهاية الابيض الامور الشكلية الثانوية ، لكن المغالطة الكبرى وقع فيها عندما حاول ان يفرق بين الادبين العامي والرسمي وذلك بقوله : " تمييز الادب العامي عن الادب الرسمي بانه لايتبع عمود الشعر وانه لايسير على الوزن العربي الموروث " (٣) قبل ان نناقش هذا الرأي يجب ألا يغيب عن بالنا ان الباحث كسان يبحث في الشعر اوفي الادب العامي فيعصر عهد المماليك ، وربما وجد ان الشعر الشعبي كان خارجا على التقاليد العروضية الموروثة وان الشعر

(١) احمد صادق الجمال : المرجع السابق ص ٧٤

(٢) المرجع نفسه ص ٧٢ - ٧٣

(٣) المرجع نفسه ص ١٤٥

الرسمي كان فصيحاً موزوناً مقفى . ونعود الى الرأي السابق لنقول ان بحث الادب في عصر معين مهما كان نوعه لا يعطينا حق التعميم بحيث نجعل الادب الشعبي الذي يسميه هو بالادب العامي هو ذلك الادب الذي لا يتبع عمود الشعر ، لانه بكلامه هذا يجعل الشعر الذي يتبع الوزن الخليلي كله رسمياً وهذا ليس صحيحاً ولم يكن في يوم من الايام بهذا الشكل . ان الشعر الموزون في جميع العصور كان بعضه شعبياً وبعضه الاخر رسمياً . انها قضية الشكل هي التي توقعه مرة ثانية في هذا الخطأ .

ونحن نعارضه في تسميته هذا الادب بالعامي لان كلمة عامة ارتبطت لدى الباحثين بمفهوم سلبي عن الجماهير العريضة ، فقد كان القدماء وقد تبخم بعضهم بعض المحدثين ، يظنون ان من ينتمي الى العامة هم : " اهل المهن والمنازع والتجار والخدم من الاماء والرقائق والفلاحون والجند واللموص ، والعيارون ، والشطار " (١) وهذا صحيح طبعاً لكن الصيغة التي كانت تقال بها هذه اللفظة توحي بكثير من الاحتقار والانتقاص . وقد تفنن القدماء فيمثل هذه الامور فجعلوا للعامة مرادفات كثيرة تنحو المنحى نفسه كالدهماء وخمار الناس والفراثاء من الناس ... وحشو الناس والهباء من الناس الخ (٢) ، وعلى الرغم من ان هذه التسميات ليست صحيحة دائماً الا اننا نفضل عليها تسمية الجماهير والشعب حتى لا تكون لللفظة خلفيات سلبية ناتجة عن موروث العصور القديمة .

وهناك باحث آخر يفضل تسمية الادب الملحون بدل الادب الشعبي ويرى ان الثانية خطأ ، لان الشعر الملحون في نظره اعم لانه يحتوى على

(١) بدرى محمد فهد: العامة ببغداد في القرن الخامس الهجري ص ١٣

مطالرشاد ببغداد ١٩٦٧

(٢) المرجع نفسه ص ١٤ - ١٥

الشعر الشعبي وغير الشعبي (١)، ثم يستعير محمد المرزوقي من حسين نصار التعريف الذي يراه مناسباً للادب الشعبي في رسالته : الشعر الشعبي (٢) بقوله : " الادب الشعبي هو الادب المجهول المؤلف العامي اللغة والمتوارث جيلاً عن جيل بالرواية الشفهية " (٣) .

ولاداعي لتكرار النقد نفسه الموجه الومن سبقه من الباحثين الذين ركزوا جميعاً على الجانب الشكلي للشعر الشعبي واهملوا مضمونه ومحتواه ، ثم أن الباحث يجعل الشعر الشعبي وغير الشعبي فيزمره واحدة وكأن لافرق بينهما إذ كيف نعطي نفس القيمة للشعر الصادر عن الوجدان الجماعي وللشعر الصادر عن الذات الفردية ؟ وإضافة الى هذا ان الباحث يلقي من اهتمامه ذلك الشعر الفصيح الذي فيه اهتمامات جماهيرية . ولذا علينا ان نستنتج ان كل شعر يحتوى على هموم الناس ومشاكلهم وطموحاتهم وما شابه ذلك نسميه شعراً شعبياً . وهذا ما اشار اليه الباحثان حسين مظلوم والمصباحي بعبارة قريبة مما قلنا حين ذكرنا ان " اصول الادب مأخوذة من التفكير العام للشعوب والامم ومن صور مجتمعاتهم واحاديثهم " (٤)

(١) محمد المرزوقي : الادب الشعبي في تونس : ص ٥١ الدار التونسية للنشر

لنشر تونس ١٩٦٧ .

(٢) لم استطع الحصول على هذه الرسالة .

(٣) المرجع السابق : ص ٤٩

(٤) حسين مظلوم رياض ومصطفى محمد المصباحي : تاريخ ادب الشعب ص ٢

(مقدمة) مط السعادة ١٩٣٩

وفي الختام نريد ان نوكد ان نقدنا للباحثين السابقين على انهم اهتموا بالشكل اهتماما استثنائيا ، الامر الذى جعلهم يقعون في كثير من المغالطات ، لايعني اننا نريد ان نزل من المحتوى وحده فيملا لشعبية الشعر . ولايعني اننا نقلل من اهمية الشكل ، لان نظرة تبقى في هذه الحال احادية الجانب ايضا . لذا نرى ان كلا من المحتوى والشكل يلعبان دورا هاما في تحديد اتجاه الشعر ، فالشعر الشعبي في " اسلوبه ومحتواه حميلة لحياة عريقة عاشها الشعب " (١) .

ان التأثير بين الشكل والمضمون متبادل فحينما يتطور المضمون يتطور الشكل وحين يتطور الشكل يتطور المضمون ويمكن ان نرى ذلك فيما يلي من نماذج في الفصول المقبلة على الرغم من قلتها . لقد تطور انسان العصر العباسي الاول تطورا كبيرا وهذا ما جعله يعكس ذلك التطور فسي انتاجه الفكرى والادبي .

(١) احمد رشدى صالح : الادب الشعبي ص ٤٥ دار عرفة بدون تاريخ .

الفصل الاول
اغراض الانتباه الشعبي
=====

- ١ - الفقر ومظاهره
- ٢ - العمل
- ٣ - المدح والهجاء
- ٤ - رشاء المتاع
- ٥ - التعامل مع البيئة الشعبية
- ٦ - الفكاكة والتندر
- ٧ - تسلط المال

موضوعات الاتجاه الشعبي واغراضه

=====

مدخل:

يمكننا منذ البداية ان نقول ان موضوعات الاتجاه الشعبي هي الموضوعات التي تمس كافة الشعب من قريب او من بعيد بحيث ان شعراءه يتناولون كل ما في حياتهم اذ ان الحياة هي منبعهم الدائم ومعينهم الذي لا ينضب ابدا ، ولهذا تعددت موضوعات هذا الاتجاه وتنوعت ، فكثرت الاغراض التي تطرقوا اليها ، وهذا التنوع هو الذي يعطي شعرهم ذلك النفس الطويل الذي لا ينقطع .

لقد تحدثوا عن الفقر كثيرا والفقر موضوع رئيس في شعرهم ينطلقون منه دائما حتى تصبح له امتدادات وتشعبات لاحصر لها فالجوع والحرمان ، والقناعة ، والسوء ، والتصلب ، والعمل ، والمدح ، والهجاء ، والحث على طلب الرزق ، ومهاجمة المتحكمين في اموال الناس ، فهذه الامور كلها ذات علاقة بالفقر الذي كان كابوسا ينفذ حياتهم ولا يفارقهم ابدا . ولذا سوف نبدأ بموضوع الفقر منطلقا لهذه الاغراض .

xxxxxxxxxxxxxxxx

xxxxxx

١ - الفقر ومظاهره :

=====

ان الفقر لم يكن يخص الشعراء وحدهم بل كان يهيمن على الجماهير الكادحة خلفهم والذين ما هم الا ممثلوها . لقد تحدثنا فيما سبق عن " الطبقات " الاجتماعية ورأينا ان المجتمع كان منقسما عموما الى طبقتين لاثالثة لهما :

الفقراء من جهة والاغنياء من جهة اخرى . وتحدثنا كذلك عن ثروة البلاد الصناعية والزراعية وبيننا انها كانت موزعة توزيعا غير عادل بحيث ان اقلية من الاغنياء هي التي كانت تملك جميع تلك الخيرات وتتصرف فيها كما يحلو لها بينما لم يكن اغلب الناس يجدون ما يمسون به ارماقهم . وكانت " الطبقة " الفقيرة تشعر بهذا الظلم وتحاول ان تثور عليه او تنتقده علوا لقل كلما ساحت لها فرصة ، ولعل اصدق مثال على ذلك ما قاله سعيد بن وهب حين نظر الى قوم من كتاب السلطان في احوال جميلة : (١) .

من كان في الدنيا ابا ثروة	فنحن من نظارة الدنيا
نرمقها من كذب حسرة	كاننا لفظ بلا معنى
يعلو بها الناس وايامنا	تذهب في الارذل والادنى

ان هذا الشعر يمثل " الطبقة " الفقيرة احسن تمثيل ويبين ان الشعب في تلك الفترة كان يبرز تحت نير الفقر والحرمان والعوز وبالمقابل يزهو الاغنياء ويرفلون في النعيم والخير .

وللفقراء مع الجوع حكايات يطول سردها ، لكننا سنذكر بعضها
مثالا . فقد كانت العرب تكني الجوع ابا مالك كما كانت تسمى الخبز

(١) الاصفهاني : الاغانى ج ٢٠ ص ٣٠٣ ط دار الثقافة بيروت ١٩٦٠

جابرًا وعاصما وعامرا وابن حبة ، فقد قال احد الشعراء في كنيــــــــــــة
الجوع : (١)

ابو مالك يعتادني في الظاهر
يلم فيلقي رحله عند جابر

وكان احد الاعراب يدعو ربه من كثرة الجوع قائلاً : "اللهم ميته كميته
ابي خارجه * ولما قيل له : ما ميته ابي خارجه هذه ؟ اجاب : اكله بدحا
وشرب عسلا ونام في الشمس فمات شعبان ريان دفيشا " (٢) .

وهكذا ينحصر امل الفقير في امور ثلاثة هي : ان يشبع وان يروى وان يدفأ .
لكن الجوع اصناف والوان ، منه ما يقتل ومنه ما يفقد صواب العقل ويسكر ،
وهذه ما اشار اليه عبدالصمد بن المعذل حين وصف فقيرا جائعا بقوله : (٣)

يتمشى في ثوب عصب من العر ي على عظم ساقه مسدول
دب في رأسه خمار من الجو ع سرى خمرة الرحيق الشمول
فبكى شجوه وحن الى الخبز ونادى بزفرة وعويل
من لقلب متيم برغيفين ونفس تاقبت الى طفشيل
ليس تسمو الى الولاثم نفسي جل قدر الاعراس عن تأميلي

ان الفقر اسكر هذا المسكين فجعله يبيكي ويحن الى الخبز الذي ربما
مر عليه زمن طويل دون ان يرى فيه شكله او يشم فيه رائحته ، وليس
في القصة اية مبالغة لان الجوع يفعل اكثر من ذلك ولان وضع الشعب

(١) الثعالبي : ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ص ٢٤٩

x ا ب ج د هـ

(٢) بهيج شعبان : اثر المعدة في الادب العربي ، ص ٣٨-٣٩ منشورات دار

عويدات ط اولى بيروت ١٩٦٦

٣ الاسفهانى : الاغاني ج ١٣ ص ٢٣١ (مصورة عن دار الكتب)

في تلك الفترة كان أكثر ترددا مما صوره الشاعر ففرص العمل كانت معدومة، وهكذا كان الناس يموتون جوعا دون أن يشعر بمأساتهم أحد ودون أن تذكر ذلك كتب التاريخ .

والشيء الذي يسهل هذا الجوع ويسكت انينه هو الخبز ولذا نجد أولئك الشعراء قد أكثروا من وصف الخبز وأنواع الطعام التي يتمنون الحصول عليها، فسعادة الفقير في وجود قطعة من الخبز بين يديه كما قال أحد الأعراب : (١)

في حبة القلب منسي زرعت حب ابن حبه

أما الآخر فقد فضل الخبز على موت القرآن ، لأن الإنسان حين يكون بطنه فارغا لا يمكن أن يفكر إلا في الجوع ، فالفقر ظل على مر العصور مدعاة للكفر كما قيل ، ومجلبة له ، فقد قال ذلك الشاعر الجائع : (٢)

خبز يأنبيت عليه لحم	أحب الي من موت القرآن
تببت تدهور القرآن حولي	كأنك عند رأسي عقرسان
فلو اطعمتني لحما وخبزا	حمدتك والطعام له مكان

بينما يفضل الثاني الخبز على الدين كله بقوله : (٣)

ولست مضمهر نسك	كلا ولا بعيف
ولو اسام بديني	لبعته برغيف

أن هذا الشاعر يعاني وهو متأثر جدا بالعقلية السائدة ، وأعني بالضبط

(١) بهيج شعبان : اثر المعبة في الادب العربي ص ٨٠

(٢) المرجع نفسه ص ١٠٦

(٣) المرجع نفسه ص ١٢٣

فكرة القدرية التي روج لها الامويون من قبل واستغلها العباسيون من بعد حتى تبدو الامور مرتبطة بمشيئة الله وان ما يحدث للناس قدر محتوم لابد من الرضوخ له ، والشق الثاني من تلك الفكرة هو تشجيع ظاهرتي النسك والتعفف والتان يتخلى الانسان بموجبهما عن مطالب حياتية كثيرة . ان الشاعر تنبه لهذه القضية دون ان يدرك ابعادها المختلفة ولذا يرفضها جملة وتفصيلا ويقول انه مستعد ان يبيع دينه برغيف خبز . ويجب الا نتعجب من ان للفقر كل هذه القوة التي تدفع بالانسان الى مثل ما قام به هذا الشاعر لان الخاصة من اكبر المصائب التي قد يصاب بها السرم ، فقد قال ابراهيم بن سريانة الشاعر نثرا : " اذا كانت في جيرانك جنازة وليس في بيتك دقيق ، فلا تحضر الجنازة ، فان المصيبة عندك اكبر منها عند القوم ، وبيتك اولى بالمأتم منهم " (١)

ولذا نجد ان الخبز عند ابي الشمقمق ، شاعر الفقر ، هو اهم

شيء قد يجمعه الانسان في دنياه كما قال : (٢)

ما جمع الناس لدنياهم	انفع في البيت من الخبز
والخبز باللحم اذا نلته	فانت في امن من التمرز
والقلز من بعد على اثره	فانما اللذات في القلز
وقد دنا الفطر وصبياننا	ليسوا ذوى تمر ولا ارز
وذاك ان الدهر عاداهم	عداوة الشاهين للوز
قلو رأوا خبزا على شاق	لاسرعوا للخبز بالجمز
ولو اطاقوا القفز ما فاتهم	وكيف للجائع بالقفسز

(١) الاصفهاني: الاغاني ج ١٢ ص ٩٠ مصورة عن دار الكتب

(٢) ابن المعتز : طبقات الشعراء ص ١٢٧ - ١٢٨

الخميرة في الاساليب الشعرية كابى نواس وذلك في قوله : (١)

ودع صفات القفار	دع عنك رسم الديار
قد اكثروا في العقار	وعد عن ذكر قوم
ودع صفات الزنا نير في	خصور المـ
حكته شمس النهار	وصف رغيفا سريـ
وصفه اشـ	فليس يحسن الا في

ومن احسن شعره قوله في الرغيـ كذلك : (٢)

فلمست افهم ماتقول	دع عنك لومي يا عدول
الناس مطلبه جميل	ان الرغيـ محبب في

وهنا تجدر الاشارة الى هذه الظاهرة التي تكررت عند مجموعة من الشعراء
اشهرهم ابو نواس اى ظاهرة الثورة على النمط المألوف في الاساليب الشعرية
لذلك العصر ، والحقيقة ان هذه الظاهرة تتكرر في جميع العصور ان يلجأ
بعض الشعراء الى المحاولة من الخروج عن تلك الاطر التقليدية والمنتشرة
والتي تتحكم فيهم ، وهي عبارة عن محاولة منهم للبحث عن الطرافة
حتى يتميزوا عن سواهم بهذه الطريقة او تلك . وربما كانت هذه الظاهرة ،
ظاهرة نبذ القديم والثورة عليه ، مرتبطة في البداية بالظروف السياسية
او بظاهرة الشعبية التي بدأت ملامحها الاولى تطفو الى السطح في
العصر الاموي ويبدو ان هذا الامر اصبح موضوعة يقلدها كل شاعر يريد ان
يخرج عن المألوف مع العلم اننا لا يمكن ان نجزم القول في هذه القضية
الا انها تبقى احتمالا واردا .

(١) ابن الجراح : الورقة ص ١٢٣

(٢) ابن الجراح المصدر نفسه ص ١٢٤

ولنعد الآن الى شاعرنا ابي المخنف ونقارن بينه وبين ابن الرومي

الذي اشتهر بوصف بعض المأكولات ، فهو يصف الخباز بقوله : (١)
 ما انيس لانس خبازا مررت به يدحو الرقاقة وشك اللحم بالبصر
 ما بين روءيتها فيكفه كسرة وبين روءيتها زهراء كالقمر
 الابعقدار ما تنداح دأقرة في صفحة الماء يرمى فيه بالحجر

او وصفه الروءوس بقوله : (٢)

هام وارغفة وضاء ضخمة قد اخرجا من فاحم فوار
 كوجوه اهل الجنة ابتسمت لنا مقرونة بوجوه اهل النار

او وصفه الطباهجة (x) : (٣)

طباهجة كأعراف الديوك تروق العين من شرط الملوك
 هنم الى مساعدي عليها فليست لمثل ذلك بالتروك

او وصفه اللوزينج (xx) بقوله : (٤)

لا يخطئني منك لوزينج اذا بدا اعجب او عجا
 لو شاء ان يذهب في صخرة لسهل الطيب له مذهباً

فابن الرومي في جميع اوصافه لهذه المأكولات لا ينطلق من الداخل بل يبدو متفرجا يصف انطباعه لا غير بينما نشعر بمعاناة ابي المخنف عندما يصف الرغيف بالرغم من ان ابن الرومي يتمتع بالقدرة الفنية والموهبة الفذة في الوصف اكثر من الثاني ثم ان انطلق كل واحد منهما مختلف

(١) ابن رشيق : العمدة ج ٢ ص ٢٢٥

(٢) الراغب الاصبهاني : محاضرات الادباء م ١ ج ٢ ص ٦١٤

(x) الطباهجة : نوع من الحلوا او الطعام

(٣) الراغب الاصبهاني : المصدر نفسه م ١ ج ٢ ص ٦١٣

(xx) اللوزينج : نوع من الحلوا شبه القطائف تؤدم بدهن اللوز (لسان العرب)

(٤) الثعالبي : ثمار القلوب ج ٢ ص ٧

فابن الرومي لم يكن يشعر بالجوع لانه استطاع ان يتكسب بشعره ويكسب به مالا وبذلك يبتعد عن دائرة الفقر التي طالت ابا المخفف الذي ظل يبرز تحت نير العوز والحرمان ولهذا السبب نجده صادقا في وصفه .

لكن ، هل وصف هؤلاء الشعراء الشعبيون الخبز وتوابعه لانهم يحسون بالجوع فقط ؟ هل تغلبت عليهم معدهم حتى اصبحت فكرهم مأسورا لديها ؟ اننا نخشى ان يقول احد ان هذا شعر معدى صدر عن قوم همهم الاكل وملء البطون ، غير ان الحقيقة تنفي هذا الاتهام الذي قد يوجه اليهم ، فهم بوصفهم الخبز انما يصفون واقعا معينا عانى منه الشعب بأكمله في تلك الفترة .

ان هذا الوصف البسيط للخبز والاكل نستشف منه الهوة السحيقة التي كانت تفصل بين " طبقتي " الاغنياء والفقراء .

وذلك الوضع يجعلنا نقول ان السلطة في تلك الفترة - وهي " الطبقة " الغنية - كانت تعتمد تجويع الشعب حتى يظل فكره محصورا في بطنه فلا يطالب بحقوقه الكثيرة .

لكن السلطة بعملها هذا كانت تحفر قبرها بيدها دون ان تشعر لان عواقب التجويع خطيرة ، فالفرد حين يجوع يثور وتكون ثورته عارمة بقدر جوعه .

وكان اولئك الشعراء يتألمون كثيرا لجوع اهلهم اكثر مما يتألمون لجوعهم هم ، فمن الصعب على الانسان ان يري عياله يتضورون جوعا خاصة اذا كان عاجزا عن جلب الاكل لهم ، ولعل ابا فرعون الساسي و ابا الشمقمق من اكثر الشعراء وصفا لجوع ذويهم واهليهم ، وهذا لايعني انهما الوحيدان بل كان هناك الاف من الفقراء فيمثل حالهما وربما اسوأ منهما الا انهما كانا يمتلكان الوسيلة التي تجعل تعبيرهما عن تلك الحال يبقى ، فهذا

ابو فرعون الساسي يقول : (١)

وصيبة مثل صغار الذر	سود الوجوه كسواد القدر
جاءهم البرد وهم بشر	بغير قمص وبغير ازر
تراهم بعد صلاة العصر	بعضهم ملتصق بصدري
واخر ملتصق بظهري	اذا بكوا علتهم بالفجر
حتى اذا لاح عمود الفجر	وجاءني الصبح غدوت اسرى
عنهم وحنوا بأصول الجدر	كأنهم خفافس في جحر
فأرحم عيالي وتول امرى	كنيت نفسي كنية في شعري

انا ابو الفقر وام الفقر

اجل انه ابو الفقر وامه ، ابو عيال صغار كالنمل ، وجوههم اسودت من العذاب والحرمان ، لم يجدوا ما يلتحفون به وما يغطون به اجسامهم النملة* التي اكلها البرد * ماذا يفعل ابو فرعون وهم ملتصقون به يطالبونه الخبز؟ لم يجد شيئاً سوى ان يعطاهم بالفجر، هو متأكد انه لن يستطيع ان يقدم اليهم شيئاً اذا حان الفجر ، وما عليه الا ان يخرج طلباً للرزق ، محاولاً ان يجد لهم بعض الزاد .

ويصف ابو فرعون اهله واولاده مرة اخرى بقوله : (٢)

سقيا لحي باللوى عهدتهم	منذ زمان ثم هذا عهدهم
عهدتهم والعيش فيه غرة	ولم يناو الحدشان شعبهم
قليت شعري هل لهم من مطلب	اواجدن ذات يوم بدلهم
اليك اشكو صيبة وامهم	لايشبعون وابوهم مثلهم
قد اكلوا اللحم ولم يشبعهم	وشربوا الماء فطال شربهم
وامتدقوا المذق فما اغناهم	والمضغ ان نالوه فهو عرسهم
وما رأوا فاكهة في سوقها	وما رأوها وهي تنحو نحوهم

(١) ابن الجراح: الورقة ص ٥٨ وابن المعتز طبقات الشعراء ص ٣٧٦

(٢) ابن المعتز : طبقات الشعراء ص ٣٧٧ - ٣٧٨

كأنهم جناب ارض مجذب	فلو يعطون اوجى سهمهم
بل لو تراهم لعلمت انهم	قوم قليل ربههم وشبعهم
كأنهم كانوا وان وليتهم	طرا موالى وكنت عبدهم
مجتهدا بالنصح لا الوهم	ادعولهم يا رب سلم امهم (x)

كان بعيدا عنهم لكنهم كانوا حاضرين في عقله وقلبه فهولم يخـرج
ليمدح هذا الممدوح الامن اجلهم . ويتضح التكسب جليا في هذه القصيدة
فهولم يصنع على الممدوح تلك الاطلاق والصفات التقليدية ولم يحاول
ان يمجده بأي شيء . بل تصدى مباشرة لموضوعه الرئيسي وهو وصف حاله وحال
اولاده وزوجته وبين انهم لا يشبعون لانهم لم يجدوا ما يأكلون . وهذا
ليس مدحا بمعنى الكلمة بل استجاء من فقير ، استجاء بومفا الحقيقة
عارية دون احساس بالحياء ، بل كان طبيعيا ان يفعل هذا . ومن انى
يأتيه الحياء وهو لم يضع نفسه في هذه الحال اختيارا لان جملة من
الظروف تضافرت على جعله فقيرا ؟

ولسائل ان يسأل: لماذا انجب هؤلاء الاطفال وهو يعلم مسبقا ان
من الصعب تغذيتهم ؟ لتتصور حياة الفقير اليومية في ذلك الوقت .
لم يكن يعمل الا نادرا ليس بسبب كسل منه بل لان فرص العمل كانت نادرة ،
وهذا ما سبب له في اغلب الايام فراغا كبيرا لم يستطع ان يتخلص منه الا
بوساطة يخلقها خلقا او يستغل ما هو موجود لديه ، ولنقل بصراحة ان هذا
من الاسباب الهامة في انجاب الاطفال لدى الفقراء . وبالمقابل نلاحظ
ان الاغنياء كانوا ايضا ينجبون الاطفال بكثرة لان الظروف ساعدتهم على

(x) وهي مذكورة في المحاسن والمساوي للبيهقي ص ٣٠٨ - ٣١١ ونسبها
الاصمعي فيها الى سعيد بن صمم لما وفد على الحسن بن سهل وهي طويلة
عدد ابياتها (٤٥) بيتا .

امتلاك كل شيء الامر الذى دفعهم الى المبالغة في المتعة • ولكن
شتان بين الفراغين ، فراغ الاغنياء وفراغ الفقراء • ومع ذلك
لم يكن لهم الا انجاب الاطفال وكثرة الشكوى من الفقر والغلاء كما
قال ابو فرعون الساسي : (١)

يا اخوتي يامعشر الموالي انا ابنكم وانتم اخوالي
هذا زبيلي وجرابي خالي والماء عال والدقيق غالي
وقد مللنا كثرة العيال

ونلاحظ هنا ان الفقر كان عاما كما قلنا سابقا بحيث تساوى فيه العرب
والموالي وجميع الشعوب المنفوية تحت راية الخلافة العباسية
باستثناء الاغنياء منهم •

ويشبه ابا فرعون ابو الشمقمق الذى عانى المشكلة نفسها حيث
احاط به الفقر من كل جانب ، وكثر عنده العيال فكان دائم الترحال
بحثا عن قوت لهم حيث يقول : (٢)

ان العيال تركتهم بالمصر خبزهم العصاره
وشراهم بول الحمار مزاجه بول الحماره

وهكذا كان العيال لايتوقفون لحظة عن طلب الخبز فهم باستمرار عبادة
عن افواه مفتوحة كآفواه الطير لاتتعطل عن الضجيج الا اذا ملعت بها •

(١) ابن الجراح: الورقة ص ٥٨

(٢) ابن المعتز : طبقات الشعراء ص ١٢٦ - ١٢٧

اما ابن يسير فيمثل قمة المأساة التي يتخبط فيها الفقراء ، فهم الى جانب حبهم لاولادهم ، يعز عليهم ان يروهم يتضورون جوعا ، فأبن يسير كذلك كان يحب ابنة اخت له كان رباها حبا كبيرا ، ولكن به معدم فقير لا يستطيع ان يوفر لها الغذاء ، الامر الذي جعله يتمنى لها الموت من شدة حبه لها لانه لم يتحمل رؤيتها وهي تتالم جوعا في قوله (١) :

لولا البنية لم اجزع من العدم ولم اجب في الليالي حنسا لظم الخ ..

انها فملا لقمة المأساة ان تهوى له الحياة ويهوى لها الموت من شدة حبه لها وخوفه عليها .

ويدفع الفقر بالانسان الى البحث عن الطعام بجميع الوسائل الممكنة ، ولهذا نجد الفقير يثق ابواب الناس متسولا طالبا منهم فضلهم ومعروفهم وهوبذلك يريق ماء وجهه وعزة نفسه ، ولهذا اقترن التسول عندهم بالكرامة والشرف ، فالشعراء الشعبيون ، ومنورا هم جميع الفقراء ، يتحسرون لهذا الوضع لانهم من جهة لا يقبلون ان تهان انفسهم ، ومن جهة ثانية يجدون انفسهم مضطرين لمد ايديهم حتى يضمنوا القوت لذويهم ولانفسهم ، وعن هذا يعبر ابن الرومي بقوله : (٢)

اذا انا نالتني فواضل مفضل فأهلا بها ما لم تكن بهوان
فاما اذا كان الهوان قرينها فبعدا لها ما ينقضي لاوان
ومن ذا الذي يلتذ شهدا بعلقم ابت لهواتي ذا لوالشفتان
اريد مكانا من كريم يصونني والا فلي رزق بكل مكان

(١) ابن المعتز : طبقات الشعراء ص ٢٨٢

(٢) الراغب الاصبهاني : محاضرات الادباء ، م ا ج ٢ ص ٥٤١

ومع ذلك فلا بد من حدوث مايكرهون اى لابد لهم ان يتسولوا فليس
هناك حيلة اخرى والا فسوف يلحقهم وذويهم تلف عظيم . لكن بعضهم
فضل الموت على ان يمد يده كما قال احدهم : (١)

والموت خير للكريم من الضراعة للرجال

هذا لانه خبر اولئك الاغنياء والاسياد الذين ارادوا ان يدخلوا التاريخ
على اكتاف هؤلاء الشعراء الفقراء ، ارادوا ان يخلدوا بقصائد مدح
مقابل دريهمات تعطى ، وما ان تعطى حتى تذهب بسبب تفشي الحاجات
وغلائها . قلنا ان هذا البعض رفض مد اليد وقرر ان يموت كريما لانه
جرب مد اليد فلم ينل منه شيئا ، كما قال احدهم : (٢)

سجدنا للقروء رجا دنيا حوتها دوننا ايدي القروء
فما بلت انا ملنا بشيء علمناه سوى ذل السجود

لكن ابا الينبغي الذي مات في السجن بسبب شعره يقول وهو مدرك كل هذه
الملايسات : (٣)

الا يا مالك الناس وخير الناس للناس
اتنهاني عن الناس فاغنتني عن الناس الخ

فببساطة هذه الكلمات النابعة من قلب معذب مقهور يبين ابو الينبغي

(١) البيهقي : المحاسن والمساوي ص ٢٧٦

(٢) الراغب الاصبهاني : محاضرات الادباء م ١ ج ٢ ص ٥٩٦

(٣) ابن المعتز : طبقات الشعراء ص ١٣١

ان الانسان الفقير مضطر لسوءال الناس واستجدائهم مادام في حاجة ملحة اليهم .

فيرد عليه ابو العتاهية بنبرة مجرب محنك: (١)

اتدرى اى ذل في السوءال وفيذل الوجوه الى الرجال؟

وصحيح ان هوءلاء الشعراء قد يحصلون على بعض ما يطلبون لكن الفرق شاسع بين الذى حذوه وبين الذى فقدوه لان ما حصلوا عليه قد يفيدهم الى حين لكن منافسه سرعان ما تنفى ويبقى عاره مخلدا كما قال احد الاعراب: (٢)

ان المسائل للرجال مذلة تنفى منافعها ويخلد عارها

بل ان الموت يتعدى منافع المسائل الى السائلين فالسائل في رأى بعضهم يحسب ميتا متى ما سأل كما قال احدهم: (٣)

لاتحسبن الموت موت البلى فانما الموت سوءال الرجال
كلاهما موت ولكن ذا افزع من ذاك لذل السوءال

لكن هذا لايعني ابدا ان الفقير معاب حين يمد يده ، فظروفه هي شفيعه .
وان يسأل خير له من ان يلجأ الى طرق اخرى كالقتل والنهب والسرقة . المهم ان يبقى في فقره شريفا وتبقى نفسه مكرمة كما قال ابن هرمة: (٤)

(١) ابن عبد البر القرطبي : بهجة المجالس ق ١ ص ١٥٥

(٢) ابن عبد البر القرطبي : المصدر نفسه ق ١ ص ١٧٤

(٣) الجاحظ : الحيوان ج ٣ ص ١٣١

(٤) ابن المعتز : طبقات الشعراء ص ٢١ والنويرى : نهاية الارب ١٠٨/٣

وابن عبد البر : بهجة المجالس ق ٢ ص ٦٤ وابو الفداء : البداية والنهاية
١٢٥/١ مكتبة المعارف بيروت ومكتبة النصر الرياض ط اولى ١٩٦٦

عجبت اذيلة ان رأيتني مخلقا شكلك امك - اى ذاك يروع؟
قد يدرك الشرف الفتى ورداؤه خلق وجيب قميمه مرقوع

وحين لم يكن ينفتح السوال ولا يجدى الطلب كان الفقير يلجأ الى
الاماني والاحلام ليحقق فيها مالم يستطع تحقيقه في الواقع . وكانت هذه
الاماني والاحلام تسعده لحظات من الدهر على الرغم من انه كان يعلم انها
اضاث احلام ليس غير كما قال احدهم (١) :

منى ان تكن حقا تكن احسن المنى والا فقد عشنا بها زمنا رغدا
الا ان احلام الفقير هذه ليست كاحلام الموسر ، فالفقير يحلم بقطعة
خبز يأكلها او بلباس يقيه شر البرد او براحة تطوى له الارض وتدني
البعيد وما شابه ذلك من الاشياء الضرورية لحياته بينما يحلم الغني
بالامور الكمالية والملذات والترفيه ، فهذا ابو الشقمق الفقير
يعدد طلباته التي يطمناها من الحياة : (٢)

منى من دنياى هاتي التي تسلى بالرزق على غيرى
الجردي الحاضر مع بضعة من ماعز رخص ومن طير الخ ...

ان هذه الاحلام هي انعكاس لرغبات كل فقير ، فهو لم يطلب من دنياه
اشياء مستحيلة بل طلب منها ما تستقيم به الحياة فقط بطريقة موحية
جدا ، فقد رأى هذه الدنيا توزع الرزق على غيره وهو منه خال .
وللفقراء احلام اخرى كثيرة منها ما تمناه فقير اخر رأى نفسه

(١) الجاحظ : الحيوان ج ٥ ص ١٩١

(٢) الجاحظ : القول في البغال ص ١٢٨

غنيا يامر وينهي بقوله : (١)

اترانبي اقول يوما من الدهر لبعض التجار افست مالي	او تراني اقول من اين جاءت
لدوابي هذا الشعر جمالي	ارتراني اقول يا قهرماني
سل غلامي موقفا عن بغالي	او تراني امر فوق رواق
لي عال في مجلس لي عالي	اسرجوا لي ، فيسرجون دوابي
فاقول : انزعوا السروج بدالي	هذيانا كما ترى وفضولا
داعم النوك من عظيم المحال	

وهذا الشاعر كما نرى يستفيق من حلمه في النهاية ويرى انه هذيان
لا طاعل من وراءه •

ويذهب احد الاعراب الى تمار بالكوفة فيعرض عليه حلما رآه البارحة

فيقول : (٢)

قواصر من تمرك البارحة	رأيتك في النوم اطعمتني
بروءيا رأيت لكم مالحة	فقلت لصبياننا ابشروا
والافتأتىكم راءمة	قواصر تأتاكم بكرة
ودع عنك لا ، انها مالحة	فقل لي : نعم انها حلوة

وواضح ان حلم هذا الفقير يدور حول الاكل وتوفيره لمبيانه ، وهذا
حقه الطبيعي • وحال كهذه تجعله احيانا يتمنى ان يصبح غنيا لانهم

(١) الجاحظ : القول في البغال ص ٤١

(٢) بهيج شعبان : اثر المعدة في الادب العربي ص ٤١

من شدة فقره يظن ان بالفضى تنتهي الامه وعذاباتة في الحياة ، ولهذا نراه أحيانا يقارن بينه وبين الغني الذي يختلف سلوكه عنه ، فكلاهما اشر فيه وضعه الطبقي ، وهكذا نجد العماني يقارن بقوله : (١)

لايستوى منعم بـندار ^(x)	له قيان وله حمار
مقصص قممه البيطار	يطيف في السوق به التجار
وعربي برده اطمار	يظل في الطرق له عشار
قد تمت من رجله الاظفار	يأوى الى حمن له اوار
احدب قد مال به الجرار	لادرهم فيه ولادينار
يأكل هزلى الخار فيه الخار	من بلدة عال بها الخار
ليس على كهل به وفار	مثل الشياطين اذا ستاروا
لهم دنان ولهم جرار	وقاشفارات قفـار ^(xx)

والفرق ، من هذه القصيدة ، واضح بين ذلك المنعم وبين الفقير ، فالاول يملك كل شيء ، القيان والحمير التي نظم شكلها البيطار والثاني يلبس الاطمار ، ويمشي حافيا حتى تنصل منه الاظفار . وكان الفقير مع ذلك يدرك ان وضعه هذا ليس طبعيا ، اى ان فقره لا بد وان يكون له سبب فمنهم من ارجعه الى القدر وهذه هي النظرة الشائعة ، ومنهم من ارجعه الى الوضع الاجتماعي ككل . فقد انشد احد الاعراب لما عدلته زوجته

(١) ابن المعتز : طبقات الشعراء ص ١١٢ - ١١٣

(x) بندار : هو الذى يخزن البضائع للغلاء (المصدر نفسه)

(xx) فاشفارات : نوع من الطعام (المصدر نفسه)

وحشته على طلب الرزق قاطلا : (١)

لما رأيت لآخيها المال والحشما	باتت تميرني الاقتار والعدما
ولامن العجز بل مقسومة قسما	عنف لرأيك ، ما الارزاق من جلد
للرزق قد تعلمين الشرق والشأما	يا امة الله اني لم ادع طلبا
لم ارد عرضا ولم اسفك لذاك دما	وتلك بالاجمال في طلب
لكنك اكثر من نمل القرى نعمما	لو كان من جلد ذا المال او ادب
ان تفتحي لسوء ال الاغنياء فمما	ارضى من العيش ما لم تحوجي معه
يوما سيكشف عنا الفقر والعدما	واستشعري الصبر عل الله خالقنا
نفسى لاعتبك التهمام والندما	لاتحوجيني الهمالو بذلت له
ما كان خوله الاعراب والعجما	بالله شرك ان الله خولنسي
ولم ارث والدى مجدا ولا كرمما	وانني لم احز عقلا ولا ادبا
امر يحز عليك الهم والالما	فعسرة المرء احوى في معاشك من

واما ابو الينبي في فقد اطلق المثل التالي لما رأى حال الفقراء وحال
الاغنياء بقوله : (٢)

يا خالق الليل والنهار	صبرا على الذل والصفار
ومن جواد بلا حمار	كم من حمار على جواد

وعندما تكون الحال كهذه فان الغصبي في واد والفقير في واد اخر ، يفكر
ذلك في ملذاته ويفكر هذا في اسكات انين الجوع كما قال دعبل وهويذم غنيا

(١) الشريف المرتضى: امالي المرتضى ج ١ ص ٤٩٨

(٢) ابن المعتز: طبقات الشعراء ص ١٣٩

بجلا اسمه ابو عمران : (١)

يحن البحاراته بيت شيعه وجاراته غرشي تحن الى الخبز

وفوق هذا كله نجد حتى الحظ ينفر من هؤلاء الفقراء ويتخلى عنهم
وكان بينه وبينهم عداوة ، فهم اينما ذهبوا يشعرون ان نحسا ما يطاردهم
وان لعنة مانحهم بهم ، وهم حين يتحدثون عن سوء حظهم انما يصفون الظلم
الاجتماعي الذي كانوا يعانونه في ذلك العصر ، فكونهم فقراء جعلهم من
المغضوب عليهم في الارض ، فهذا ابو الشقمق يتحدث بمرارة عن سوء حظه
فيقول : (٢)

لو ركب البحار صارت فجاجا لانرى فيمتونها امواجها
ولواني وضعتيا قوته حمراء في راخلي لصارت زجاجا
ولو انيوردت عذابا فرائسا عاد لاشك فيه ملحا اجاجا

فهذه الابيات بغض النظر عن مبالغتها ، تعكس واقعا مرا عانى منه القوم
فهم اينما نظروا لا يجدون الا عدما وفقرا ، ويمصف غيره وهو عمر وين الهدير
سوء حظه باسهاب فيقول (٣) :

وقفت فلا ادري الى اين اذهب واي اموري بالعزيمة اركب
عجبت لاقدار علي تتابعتم بنحس فافنى طول عمري التعجب
ولما طلبت الرزق فانجد حبله ولم يصف لي من بحر العذب مشرب
خطبت الى الاعدام احدي بناته لدفع الفنى اياي اذ جئت اخطب

(١) المبرد: الكامل في اللغة والادب ج ٢ ص ١١٨-١١٩ مكتبة المعارف
بدون تاريخ .

(٢) ابن عبدربه : العقد الفريد ج ٦ ص ٢١٦

(٣) ابن عبدربه : المصدر نفسه ج ٦ ص ٢١٦ - ٢١٧

فزوجنيها ثم جاء جهازها
فأولتها الحرف النقي فماله
فلو شئت في البداء والليل مسبل
ولو شئت شرا فاستترت بظلمة
ولو جاء انسان علي بدرهم
واو مطر الناس النانير لم يكن
ولو لست كغاي عقدا منظما
وان يقترب ذنبا ببرقة مذنب
وان ار خيرا في المنام فنازح
وان اغد في امر اريد نجاحه
امامي من الحرمان جيش عرمرم
وفيه من الحرمان تخت ومشجب
على الارض غيري والد حين ينسب
علي جناحه لملاح كوكب
لاقبل ضوء الشمس من حيث تغرب
لرحت الى رحلي وفي الكف عقرب
شيء سري الحبيب رأسي يحصب
من الدراضى وهو ودع مثقب
فان برأسي ذلك الذنب يعصب
وان ار شرا فهو مني مقرب
فقابلني الاغراب وارنب
ومنه وراشي جحفل حين اركب

فعلى الرغم من المبالغات نفسها التي نجدها عند ابي الشمقق فان
هذه القصيدة خير دليل على ذلك الوضع التعس الذي فرضته ظروف عديدة
على العصر العباسي الاول حيث كان الفقراء لا يجدون سبيلا يحصلون منه
على ما يريدون من الحياة من خبز وراحة بال .

ومن مظاهر الفقر الاخرى التي تعرض لها الشعراء الشعبيون ذلك الوصف
الذي كانوا يصفون به الوسائل التي كانوا يسافرون بها ، وهم في الحقيقة
لا يسافروا غلبهم الا راجلين لانهم لا يملكون اية راحلة ، وللراحلة
في ذلك الوقت اهمية كبرى لانها الوسيلة الوحيدة تقريبا التي كان
يتمكن بها الانسان برا ، ولها في حياة الفقراء قيمة عظمى لانهم بواسطتها
ايضا يسعون من اجل كسب القوت لاولادهم وذويهم ، فهذا ابو الشمقق

يقول متعسرا : (١)

امشي ويركب غيري
فصرت ارضي بغير

الحمد لله شكرا
قد كنت آمل لرفا

وهو يقول هذا لما ائتمته الحيلة ولم يحمل على ما يريد بل حتى هذا
الغير الذي رضي به لم ينله ولم يجد في النهاية الارضية مطية حين يقول: (٢)
ان راني من السر يوما
لي فيه مطية غير رجلي
كلما كنت نهميخ فقالوا
قربوا للرحيل قرنت نعلي
حيثما كنت لا خلف رجلا
من راني فقد راني ورجلي

وهذا وصف دقيق وصريح لوضعه فهو لم يجد لافلا سا ولا حمارا بل كان عليه
ان يعود رجليه المشي الطويل حتى يصل الى ما يريد اي حتى يصل الى ذلك
الممدوح الذي يامل ان ينال شيئا من كرمه .

وقد تناول بعض الشعراء الشعبيين وسيلة النقل هذه - اي الرجل -
باسلوب قد يبدو ساخرا للوهلة الاولى لكنه صادق كل الصدق تبدو فيه
تفاؤلا اولئك الفقراء الذين جعلتهم المأساة يسخرون من وضعهم وابن
يسير الشاعر من هراء ٤٧ فهو يصف رجليه قائلا : (٣)

ان كنت لا غير لي يوما يبلغني	حاجي واقضي عليه حق اخواني
وضن اهل السواربي حين اسألهم	من اهل ودي وخلصاني وجيرانني
فان رجلي عندي - لاعدمتهم -	رجلا اخي ثقة مذكان جولاني
تبليغي حاجاتي وان بعدت	وتدنياني مما ليس بالداني
كأن خلفي - اذا ما جد جدهما -	اعصار عاصفة مما تشيران
رجلاي لم تألما نكبا كأنهما	قطا وقدا وادماجا مداكان

(١) ابن المعتز : طبقات الشعراء ص ١٢٧

(٢) ابن عبد ربه : العقد الفريد ج ٣ ص ٣٦

(٣) الاصفهاني : الاغانى ج ١٤ ص ٣٢-٣٣ (مصورة عن دار الكتب)

كأن ما بهما اخطوا اذا أرتبها في سكة من أي ذاك سماكان x
أن تبعثا في دهاس تبعثا رهجا اوفي حزون ذكا منها شهابان
فالحمد لله ياعمرؤ الذي بهما عن العواري وعن ذا الناس اغناني

ومع هذا الفقر فإن الشاعر ابن يسير لم يفقد شرفه لأنه يفضل أن يمشي
راجلاً حافياً علوان يذل للناس •

أما الحمدوني الشاعر فيصرخ فيوجه الله احتجاجاً على هذه اللامساواة
قائلاً : (١)

نسامى الرجال على خيلهم ورجلي من دونهم حافيه
فإن كنت حاملنا رينا والأفأرجل بني الزانية

تلك صرخة إنسان يعس من عدل الناس فتوجه إلى الله طالبا منه المساواة
في استخاشة شعرية رائعة تتضح فيها إحاسيس الشاعر حين قالها •

ونظرا لأهمية استعمال الأرجل في تنقلاتهم ورحلاتهم فقد حظيت النعال
ببعض اهتمامهم لفائدتها الكبيرة كوسيلة يستعين بها المسافر ، فهذا
ابن يسير يصفها بأسباب فيقول : (٢)

كم أرى من مستعجب من نعالني ورضائي منها بلبس البوالي
كل جرءاء قد تحيفها الخصف بأقطارها سرد النقــال xx
لأنداني وليس تشبه في الخلقة أن أبرزت نعال الموالني
لا ولا عن تقادم العهد منها بليت لا ولا لكر الليالي

x هذا البيت مكسور في الشطر الثاني •

(١) البيهقي: المحاسن والمساوي^٦ ص ٢٧٨

(٢) الجاحظ : البيان والتبيين ج ٣ ص ٤٤١ تحقيق فوزي عطوى دار صعب

بيروت ١٩٦٨م

xx النقال: النصال العريضة والقصيرة من نصال السهام (لسان العرب)

ولقد قلت حين اوتيت ذا الود عليها بثروتي ويمسالي
 من يغالي من الرجال بنعل فسواي اذا بهن يغالي
 اويغاهن للجمال فأنسي في سواهن زينتي وجسمالي
 في اخائي وفي وفائي ورأيي وعفائي ومنطقي وفعالي
 ماوقاني الحفا ويلغني الحما جة منها فاني لست ابالي

وكما نلاحظ فان هذا الشاعر لم يكن يبحث عن نعال ليتزين بها اويغاهن بل لتقيه الحفا وتبلغه الحاجة ، ومثل هذه الموضوعات ليس تافهسا ابدا كما قد يتبادر الى بعض الاذهان لان هذه الاشياء على بساطتها تبين لنا وضعنا معينا كان يحياه امثال هذا الشاعر وهي شاهد صريح على البرءس الذي كانوا يعانون منه .

ومن بين الموضوعات التي تعرضوا لها والتي هي مظهر من مظاهر فقرهم ، ومفهم لبيوتهم التي كانت بالاجار اشبه ، فعوض ان يشعروا بالسكينة فيها ويأنسوا اليها ، فاننا نجدهم يحسون بوطأة الفقر اكثر حين يعودون اليها . هذا الفقر الذي سد عليهم جميع المسالك وكأنه اخطبوط التسف حول اعناقهم فلا يدرون من اين النجاة . والدلائل التي سوف نوردتها فيما بعد ستبين انها لم تكن بيوتا بمعنى الكلمة بل كانت اكواخا قصديرية لاتتوفر فيها حتى ابسط الشروط الصحية ، لان هذه الامور كان الفقير يعتبرها كماليات لايفكر فيها ابدا فهمه الاكبر ان يجد مكانا ياوى اليه والافمنزله الفضاء وسقف بيته السماء كما قال شاعر الفقراء ابو الشمقمق (١)

برزت من المنازل والقباب فلم يعسر على احد حجابي
 فمنزلي الفضاء وسقف بيتي سما الله اوقطع السحاب

فانت اذا اردت دخلت بيتي علي مسلما من غير باب
لاني لم اجد مصراع باب يكون من السحاب الى التراب
ولا تشق الشرى عن عود تحت او مل ان اشد به ثيابي

انها صورة رائعة لاتدل الا على مدى فقر هذا الانسان . انها تأوه من
الدهر وظلمة ومن الوضع الذي هم فيه جميعا .

وحين كان الحظ يسعف هؤلاء الفقراء ويحملون عرييت فان هذا
البيت لاشيء فيه لانه جدران ترد عليهم الرياح وتقيمهم المطر لاغير .
ولنستمع الى ابي التميمي يصف بيته الذي من هذا النوع حين يقول: (١)

ولقد قلت حين اجزني البرد كما تجر الكلاب ثعالبه
في بيت من الغضارة قفر ليس فيه الا النوى والنخالة
عطته الجرذان من قلة الخير وطار الذباب نحو زباله (x)
هاريات منه الى خصب حين لم يرتجبن منه بلاله
واقام السنور فيه بشر يسأل الله ذا العلى والجلاله
ان يرى فارة فلم ير شيئا ناكسا راسه لطول الملاله
قلت لما رايت ناكس الرأس يمشي على شر حاله هـ
ويك صبرا ، فأنت رأس السنانير وعلته يحسن مقالته
قال لاصبر لي وكيف مقامي في قفار كمثل بيد تباله

هذا بيت الفقراء ليس فيه الا النوى والنخالة اي لاشيء فيه سوى الفضلات ،
تركته الجرذان لان ما وجدته فيه كان يابسا لا يصلح لمعدتها وتركه الذباب
ليستبدله بمكان احسن منه الخ

(١) الجاحظ : الحيوان ج ٥ ص ٢٦٦

(x) زبالة : موقع بالكوفة (المصدر نفسه)

ولما كان الانسان يخشى ان ينظر اليه نظرة شفقة فان ابا فرعون الساسي ذلك الاعرابي السائل ، يصف بيته الموحش الخالي من كل مقومات الحياة بحيث لا يجد السارق فيه شيئا اذا سولت له نفسه اللوج فيه بل سوف يسرق السارق على العكس من ذلك ، ففي هذا البيت يقول ابو فرعون الساسي (١) :

ليس اغلاقي لبابي ان لبي فيه ما اخشى عليه السرقا
انما اغلقه كي لا يسرى سوء حالي من يجوب الطرقا
منزل اوطئه لا تفقر فلو دخل السارق فيه سرقا
لاترائني كاذبا في وصفه لو تراه ، قلت لي : قد صدقا

انها مأواه الفقير ، يريد ان يخفي فقره وعسره ، ولكن انى له ذلك
والفقير يحيط به من كل جانب ؟

عندما يعود الفقير الى بيته ويسكن قلبه قليلا بعد الهيجان الذي سببه له فراغ ذلك البيت من كل مقومات الحياة ، يستلقي بكل همومه على ظهره ويتأمل حاله وحال امثاله فيحاول ان يعرف لماذا خلقوا هكذا فقراء لا يملكون من الدنيا الا انهم من نظارتها ، فيتبادر الى ذهنه فكرة طالما سمعها تنردد على افواه القوم وهي ان عذاب هذه الحياة امتحان امتحن الله به عباده ، وهم وان تغذبوا على وجه هذه البسيطة فانهم سوف يجدون الراحة والطمأنينة في الحياة الاخرى . ونحن نقول ان الله لا يرضى ابدا ان يعذب الناس الا برىاء بمثل هذا العذاب لان هذا العذاب قد يدفعهم قسرا الى الكفر بكل الديانات وكل القيم .

لقد كانت العقلية السائدة ترجع كل شيء الى القدر وبعبارة اخرى الى مشيئة الله وذلك ناتج عن الاوضاع السياسية التي خلقتها تلك المرحلة اضافة الى اوضاع اجتماعية واقتصادية وعوامل اخرى معينة . كل ذلك كان

يريد من الناس ان يرضوا بما هم عليه حتى يبقى المستغل مستغلا ويبقى
المستغل مستغلا وحتى لا يثور اولئك الفقراء على اسيادهم . لقد انطلت
الحيلة على بعضهم ولو الى حين لكن البعض الاخر تنبه لما في تلك الفكرة
من امور سلبية فخار بها يشتى الوسائل : حاربها الشيعة والخوارج
بالسيف وحاربها المعتزلة بالعقل والكلام . لكن الحيلة انطلت على
البعض كما قلنا فراحوا يتهمون علو الدين ويثيرون علو تلك الاوضاع الدينية
التي قهموها منها ان الله كتب عليهم ذلك الشقاء مثل ذلك الشاعر الذي
لامته زوجته على ترك الحلة فرد عليها قائلا : (١)

تليم على ترك الحلة حيلتي	فقلت اغريبي عن ناظري انيت طالق
لماذا اصلي؟ اين باعي ومنزلي	واين خيولي والحق والمناطق؟
اصلي ولا فتر من الارض يحتوى	عليه يميني؟ انني لمنافق
فرالله لاصليت لله مفلسا	يصلي له الشيخ الجليل وفائق
فان دلاة السيء الحال كلها	مخارق ليست تحتين مخارق

ثورته بادية للعيان فهو يقول لزوجته لماذا اصلي لله ولم يعطني
شيئا ؟ لم يعطني خيلا ولا حليا ولا مناطق ولا املك حتى فترا من التراب
فهو يرى انه اذا صلى على هذه الحال فانما هو ينافق ربه ، بل الذي
يجب ان يصلي هو الذي انعم الله عليه بالخيرات .

لقد كفر بعضهم، ولكنهم معذرون فالفقر مدعاة للكفر وباب له، فهذا

ابن سكرة الهاشمي يقول : (٢)

لبعته برغيف

ولو اسام بدينسي

(١) بهيج شعبان: اثر المعدة في الادب العربي ص ١٢١

(٢) المرجع نفسه ص ١٢٣

وكما تلاحظ فقد بلغ الحرمان بهذا الانسان الدرجة يبيع فيها دينه
كله برغيف •

وقد يفهم البعض ان هذا استخفاف بالدين لكننا لو تخيلنا تلك الظروف
المصعبة التي كانوا ضحاياها لعذرتناهم ولفهمنا مادعا بهم الى سلوك هذا
المسلك لانهم لم يبق لهم في تلك الاوضاع الا الله يستنجدون به وحين لاتحل
مشاكلهم يشعرون عليه لانهم لم يكونوا يدركون ان السبب لا يكمن الا في
حياتهم وحياتهم •

وهذا رجل اخر يغفل جهنم ويستلذها ويستطيب المقام فيها لما عاناه
من شدة البرد لانه كان عاريا لم يجد ما يتدثر به او يقي به جسمه السدى
انهكه الجوع حين يقول : (١)

يا رب ان البرد اصبح كالحر وانت بحالي يا الهي اعلم
فان كنت يوما في جهنم مدخلي ففي مثل هذا اليوم طابت جهنم

ويسأل هذا الفقير لماذا لا يصلي وهو شيخ كبير فيقول : (٢)
أيطمع ربي ان اصلي عاريا وكسو غيري كسوة البرد والحر

وفي هذا الكلام احتجاج كبير على الوضع لان اولي الامر غرسوا على مر العصور
في خلد اولئك الناس ان ما يحدث لهم انما هو قضاء وقدر، ولهذا نجدهم
يهاجمون هذا القضاء والقدر •

لكن بعضهم الآخر لم يجروء على الاحتجاج بصوت عال بل اقتنع بما

(١ - ٢) الابشيبي : المستطرف من كل فن مستظرف ج ٢ ص ٢٣٤ - ٢٣٥

يقال وينصيه من الحياة الشيء الذي يجعله يلجأ الى ايها نفسه بان في
القناعة كل الخير وان الصبر مفتاح الفرج .

والقناعة ظاهرة اجتماعية ارتبطت بطقوس دينية تجعل اساسها الاول
لكنها ذات مضمون اقتصادي بحيث جعل العرب منها هبة حميدة حتى يوهموا
انفسهم بان الصبر على القليل يضيء على خلق الانسان لباسا جميلا وانسه
يروض نفسه بذلك على التحكم في شهواتها تطبيقا للاية الكريمة : " ان
الله مع الصابرين " (١) وفي هذا يقول ابو العتاهية : (١)

حتى متى يستفزني الطمع اليس لي بالكفاف متسع
ما افضل الصبر والقناعة للناس لو انهم قنعوا

ان في القناعة جانبين : جانب ايجابيا واخر سلبي . فالجانب
السلبي يجعل الانسان يخضع للطبيعة بجميع اصنافها وظروفها القاسية
التي حرمته من العيش الهنيء وجعلت منه انسانا مغلوبا على امره ، وهي
من هذه الناحية دعوة بوجوازية اراد بها الاغنياء ان يبقى الفقراء
على ما هم بعدما غلبوها بصيغة دينية حتى يتقبلها الناس ، ولنستمع الى
احد الفقراء وهو يقول : (٢)

اذا كان لي قوت بيومي وصحة فلا حال ارجو بعدها ان اتالها

فهو فلاح قنوع . لكن الانلاحظ ان هذه القناعة تعدت امور الاكل الى مجالات
اخرى ، فهو يقول مراحة انه اذا وجد قوته وصحته فلن يبحث عن غير ذلك
وهذا يعني ان قوى الظلم في مجتمعه قد امنت جانبه لانها خدرته بفكرة
القناعة بحيث يقبل فيها النهاية ان تتحكم فيه تلك القوى وفي مصيره ومصير
اولاده وطبقته كلها .

(١) ابو العتاهية : الديوان ص ٣٠

(٢) بهيج شعبان : اشر المعدة في الادب العربي ص ٤١

(٣) سورة البقرة آية (١٥٤)

اما الجانب الايجابي في القناعة فهو كونها تحرر الانسان من مطامعه
التي لاتنتهي ابدا وتجعله سيد الموقف كما يقول ابو العتاهية : (١)
اطعت مطامعي فاستعبدتني ولو اني قنعت لكنت حرا

والشيء الثاني في ايجابية القناعة انها تجعل للانسان املا يطمح الى
تحقيقه وتبعده عن التشاؤم من واقعه ومستقبله لارتباطها بالمبر ، ولولا
هذا الامل لاصبحت حياته جحيما لا يطاق كما قال احد الشعراء (٢) :
يبيت يراعي النجم من جوع يطنه ويصبح يلقي ضاحكا متبسما

هذا عن مظاهر الفقر التي حاولنا ان نعطي نماذج عنها لانكنا لم نستطع
حصرها كلها لامتدادها الى مجالات واسعة ، فالذي سيأتي سيكون وثيق الصلة
بالفقر كالعمل والمدح والهزاء وما شابه ذلك لان الفقر كان بالنسبة للشعراء
الشعبيين هو النواة التي تتشعب منها الاغراض .

.....

(١) ابن عبد البر القرطبي : بهجة المجالس ١ ص ١٥٩
(٢) بهيج شعبان : اثر المعدة في الادب العربي ص ٤١

٢- العمل

=====

ايقن الشعراء الشعبيون، وخلفهم جميع الفقراء، ان مخلصهم الوحيد من الفقر هو العمل الشريف والكد والكدح حتى يحصلوا علو لقيمة عيش شريفة دون ان يفسحوا للمهانة بابا يتدخل منه الوحياتهم" فالانسان لا يكون انسانا ما لم تكن له منعة مفيدة تكفي معاشه باقتصاد ، لاشنقصه فتذله ولا تزيد عليه فسطغيه" (١) كما قال عبدالرحمن الكواكبي .

وهذه الفكرة المروجة والدقيقة تبين ان الانسان يفقد انسانيته اذا ما تخلى عن العمل لانه وجد على ظهر البسيطة ليعمل حتى يعطي لحياته معنى شريفا على ان لا يكون هذا العمل الذي يتعاطاه عملا شنيعا يفقده كرامته وينقصه شرفه وعلى الا يتحول العمل كغيره من بني البشر . لكن شعراء العصر العباسي الاول والناس عموما في ذلك العصر لم يكونوا يعطون للعمل الاهمية التي نعطيها اياه اليوم لانهم لم يكن يتوفر لديهم الوضوح الفكري الكافي نظرا للظروف التاريخية التي كانوا يمرون بها ، الا ان الملاحظة العامة حول موقفهم من العمل انهم تنبهوا الى فائدته فراحوا يشجعون الناس على العمل ويجضونهم على القيام به ، فمن ذلك قول احدهم : (٢)

انما الفوز والغنى في تقى الله والعمل

وهو يجعل العمل بمرتبة الايمان بالله فهما عنده سواسية ، ففيهما معا يكون الفوز والنجاح وفي هذا حث عظيم على العمل لانهم يحاربون بذلك ظاهرة الاتكال والتواني ويؤكدون على ان الانسان يجب الا يتخاذل ابدا او يتراجع وعليه ان يحاول مرارا حتى ولو اخفق لان النجاح لن يكون ابدا

(١) محمد عمارة : نظرة جديدة الى التراث ص ١٩٠ المؤسسة العربية

للدراسات والنشر ط ٢ بيروت ١٩٧٩

(٢) ابو الفداء : البداية والنهاية ج ١٠ ص ١٤٢

وليد الكسل ومثال ذلك قول اشجع السلمي (١) :
ان تكن ابطأت الحاجة عني والسراح
فعلي الجهد فيها وعلى الله النجاح

وهم بمثل هذا يحاربون الفكرة التي تروج ان الله هو الذي يمنح الرزق
لمن يريد حتى وان كان هذا المرء خاملا متكاسلا متكلا بل يقولون ان الله
يمنح الرزق لكن على الانسان ان يبذل الجهد ليحصل عليه . ولهذا نجدهم
يركزون ان العمل مصحوب دوما بالتعب وان حلاوة ذلك الرزق المحصل عليه
يعرق الجبين هي السعادة وهي النجاح الاكبر الذي يجعل الحياة تصفو
ويجعل الوجود جميلا .

وفي ارتباط العمل بالتعب يقول ابو العتاهية : (٢)
ما رأيت العيش يصفو لاحد
دون كد وعناء ونكد

وهذا صحيح اذ لا يستطيع الفقير ان يولد من القوت لذويه دون ان يتعب
وان يعاني في الحياة ولذا كان لزاما عليه ان يلتمس الرزق اينما كان
كما قال احدهم : (٣)

فسر في بلاد الله والتمس الغنى تعش ذاك يسار او تموت فتعذرا
ولاترغ من عيش بدون ولاتنم وكيف ينام الليل من كان معسرا

وهذا يعني ان ليس عيبا ان يموت الانسان وهو يجوب البلاد بحثا عن عمل
بل بالعكس سيكون موته في هذه الحال شرفا عظيما ، فمادام في الانسان
قوة فما عليه الا ان يجدد الكرة تلو الكرة حتى يحصل علوما يريد وفي

-
- (١) الصولي : الاوراق : ص ٩٥
(٢) ابو العتاهية : الديوان ص ١٠٨
(٣) البيهقي : المحاسن والمساوي ص ٢٨٥

هذا يقول احد الاعراب : (١)

علام سوا ال الناس والرزق واسع وانت صحيح لم تخنك الاصابع

وكانوا يدركون الظروف تلعب دورها في الحصول على الرزق لكن هذه الظروف
لن تجدى بدون العمل والتعب فمن ذلك قول ابي تمام (٢) .

ومدقت ان الرزق يطلب اهلـه ولكن بسيرة متعب مكـدود

ومهما كانت تلك الاعمال التي قد يحظى بها الفقير صعبة او متعبة فانه
يتقبلها مادام يجد فيها وطره ومادام ملزما باعالة اولاده فممن
ذلك قول احدهم (٣) :

ومن يك مثلي ذاعبال ومقترا من المال يطرح نفسه كل مطرح
ليبلغ عذرا او ينال غنـيمة ومبلغ نفس عذرها مثل منجج

ومن الامثال التي تقولها العرب في هذا الباب (٤) : " كلب جوال خير
من اسد رايض " او " من غلى دماغه صاها غلت قدره شاتيا " .
ويقول ابو نواس : (٥)

ولن يدرك الحاجات من حيث يبتغي من الناس الا المصبحون على رجل

ثم نجدهم يربطون العمل بالشرف ويرون ان التسول اعظم مصيبة من البقاء
على الجوع ولهذا لن يكون الخلاص الا بالعمل لعل الانسان يرجع بعده بالسعد
كما قال احدهم : (٦)

(١) ابن عبد البر القرطبي : بهجة المجالس ق ١ ص ١٦١

(٢) الراغب الاصبهاني : محاضرات الادباء م ١ ج ٢ ص ٤٩

(٣) البيهقي : المصدر السابق ص ٢٨٦

(٤) البيهقي : المصدر نفسه ص ٢٨٥

(٥) ابن عبد البر القرطبي : المصدر السابق ق ١ ص ٣٢٦

(٦) البيهقي : المصدر نفسه ص ٢٧٦

مقام حر على خضوع	اعظم من فاقة وجوع
انيل بالذل والخشوع	فلا تردده ولا ترد ما
وانت في منزل رفيع	وأطلب معاشا بقدر قوت
يعود بالسعد في الرجوع	لخلاصنا غدا بنحس

والملاحظ في جميع هذه الآيات التي تناولت فكرة العمل انها كانت تركّز على أمر هام وهو الحث على العمل وعدم الخضوع للكسل لانه مجلبة للفقر كما يقول ابو العتاهية : (١)

والفقر ذل عليه بساب مفتاحه العجز والتواني

وهم بذلك يرغبون الناس في العمل ويبيدون لهم فوائده كما يبيدون لهم بالمقابل ملبيات العجز والتواني • يبيدون لهم ان العمل معناه الكرامة ومعناه الا يذل المرء نفسه لغيره بالتسول والاستجداء مادام يملك القوة العضلية التي يستطيع بها ان يضمن لنفسه ولذويه العيش الكريم •

وهنا يتبادر الى الذهن سؤال : هل كان العمل متوفرا ؟ وبعبارة اخرى هل كانت فرص العمل متاحة للجميع ؟ الجواب بالنفي لان الامبراطورية نفسها لم تكن تحتاج في تسيير امورها الا الى عدد قليل بالمقارنة مع عدد السكان • لم تكن الدولة تهتم بالرعية حتى تلزم نفسها بايجاد فرص العمل للجميع كما هي الحال في عصرنا فالدولة كانت مع ذلك تملك جميع الخيرات لكنها ترفض ان يتصرف فيها غير اتباعها • ولنقارن بين فرص العمل في ذلك الوقت وبينها اليوم ولنأخذ الكتاب مثالا • كان الكتاب في القديم قليل الانتشار ومن اراد كتابا يستنسخه من احد الوراقين مقابل

(١) ابو العتاهية : الديوان ص ٣٨٥

دريهمات محدودات بينما نجد ان صناعة الكتاب اليوم فيقطر واحد
او فيمدينة واحدة فقط تشغل الاف العمال . فقبل ان يمل الكتاب الى
القارئ في عصرنا يتعاون على اخراجه الى الوجود الاف العمال، فلا يسد
في البداية من ورق وهذا الورق بدوره يحتاج العمادة خام ثم لا يسد
من حجر وهذا الحجر بدوره يحتاج العمادة خام ولا بد من طباعة وعمال
طباعة وموزعين وناشرين ومكتبات وكل هذه الامور تشغل الالاف من الايدي
العاملة .

وهذا مثال واحد فقط ويمكن ان نقيس عليه جميع الصناعات الاخرى .
ان سياسة الدول الان هي ان يشغل كل القادرين على العمل ومتى ما حقق
هذا الشرط تعتبر الدولة في مصاف الدول المتقدمة اجتماعيا .
ان تطور البشرية لعب دورا في هذه الحال بحيث ساعدت الاكتشافات
العلمية على ايجاد فرض للعمل لاحصر لها ، اما في القديم فالامر على
عكس ذلك تماما بحيث كانت العلوم متخلفة ولم تستطع ان تخلق فرما للعمل
بفضل المرتبة التي وصلت اليها زيادة على الظروف الاقتصادية والسياسية
والفكرية التي كانت تمر بها الدولة في ذلك العصر .

وكان الانسان منهم اذا ولد فقيرا يبقى فقيرا مدى الحياة ومن
ولد غنيا يبقى غنيا هو الآخر مدى الحياة . اما الشواذ فلا يقاس عليهم
ابدا . ومن هنا نرى انهم كانوا يحلمون بالغنى ويعتقدون في الكثير من
الخرافات، لان الغنى هو المخلص الوحيد بالنسبة اليهم من فقرهم، فحتى العمل
لن يغنيهم ابدا لانه متى اجدتهم غنيا استغنى عن غيره وابتعد
نهاريا عن ان يذل نفسه . ولم يكن هذا تطلعا بورجوازيا كما نفهمه
اليوم بل كان امرا مشروعا ومصيريا بالنسبة اليهم لانه لم تكرر انذاك

طبقة وسطى يمكن ان تكون مخفية لوطأة الفقر عليها بل هناك الاغنياء من جهة والفقراء من جهة ثانية • يملك هؤلاء كل شيء ولا يملك اولئك شيئا •

اما الاعمال التي كان يمكن لاحدهم ان يقوم بها اذا كان محظوظا فهي كثيرة نوعا ما لكنها لا تكفي لانها لم تكن تشغل العديد من الناس ، فقد كان يكفي ان يكون في المدينة نجار واحد ليلبي جميع طلبات اهـل تلك المدينة • لقد استغلوا جميع الحرف الممكنة وجميع الوسائل للحصول على المال وعلى القوت وكان اسعدهم طبعا هو صاحب الحرفة التي كانت غالبا ما تتناقل عبر الاجيال في الاسرة الواحدة •

اما الوسائل الاخرى التي استفادوا منها والتي لم تكن حرفة بالمفهوم العام فهي ايضا كثيرة ، فقد كانوا يكدون ويتسولون وييسالون ويستغلون كل موهبة قد تكون لديهم كالغنى والالعاب البهلوانية والسحر وما شابه ذلك • وقد تعفف بعضهم وزهد من هذه الدنيا فكسب رضى الناس وعطفهم وقد تظاهر بعضهم الاخر بالحقم والجتون • لقد كانوا مستعدين ان يتعاملوا مع الشيطان ليحصلوا على ما يسكت انين الجوع لديهم •

وربما كان في بعض الاعمال التي يقومون بها هدر لكرامتهم وانتقاص لعزة انفسهم ، لكن ما العمل وهم لا يجدون وسيلة تضمن لهم البقاء ؟

ويمكن ان نذكر هنا امثلة عن الحقم والتعفف ، فاما الحقم فأكثر من تحدث عنه واستغله وجعله بمثابة صنعة فهو ابو العجل بعد ان ايقن ان العقل لن يجديه فتيلا ، وهو في ذلك ينطلق من فلسفة له خاصة بالحياة فيقول مثلا : (١)

اكفف ملامك محسنا	او مجملا متطولا
اعلى حماقة لمتنبي	قد كنت مثلك اولا
فدخلت مصر وارضها	والشام والموصلا
وقرى الجزيرة لم ادع	فيها لحي منزلا
الا حلت فناءه	بالعقل كي اتمولا
فانلر الي اما تنسرى	حال حماقة اجملا ؟
من ذا عليه مؤنبي	حتى اعود فأعقلا

لقد لامه بعض الناس على وسيلته المبتكرة وعابوا عليه ان يتظاهر بالحق فكان رده انه جوب بالعقل فيحمل علومال فيها رجاء الامبراطورية فلم يفز بشيء فدفعته الحاجة الى ابتكار هذه الوسيلة فساءفه الحظ فأصبح فسي حال اجمل. ولنستمح اليه يقل مرة اخرى لعاذليه : (١)

عذلوني على حماقة جهلا وهي من عقلهم الذى واحلى
لولقوا مالىقيت من حرفة العقل لسا روا الى حماقة رسلا
اذعن الناس لي جميعا وقالوا يا ابا العجل مرحبين وسهلا
فيها - لاعدتمتها - صرت فيهم سيدا اتقى ورأسا ورجلا

ان كل انسان يتخذ موقفا من الحياة وهذا هو موقف ابي العجل الذى يضحك من الذين لاموه على التحاق لانهم لم يعرفوا الحرمان الذى تكافى منه بسبب العقل . لقد كان الفقير مغضوبا عليه في جميع العصور . كان مظلوما وفوق الظلم كانت حقوقه تهدر دوما فقد قيل ان الرجل اذا افتقر اتهمه من كان له مؤتمنا واساء به الظن من كان يظن به حسنا ، وان اذنب غيره ظنوه به ، وان كان لسوء الظن والتهمة موصلا حملوا على

(١) ابن المعتز : طبقات الشعراء ص ٣٤١

ذلك الذي فعله غيره . (١) فقد كان الفضيل يقول : " المال يسيد غير السيد ويقوى غير الايد " . (٢) وكذلك لان المال كان المحامي بالنسبة للغني بينما كان الفقر اداة للفقر .

ويبدو ان ابا العجل ادرك ان عصره ليس عصر عقل وعلم بل عصر مال وغنى ، فهو يقارن بين حاله زمن العقل وبينها زمن الحمق فيرى انه كان من قبل فقيرا يشتغل كثيرا دون فائدة وكان انسانا تافها لا احد يحسب حسابه فاصبح بفضل حمقه سيدا يتقى ، وكان فقير الحال معدميا فأصبح يملك البغال والغلما ن لانه استطاع ان يلحق بنفسه تهمة الحمق ، وهي تهمة تعفي صاحبها من اية تبعة من الافعال التي قد تصدر عنه قياسا على المثل " ليس على المجنون حرج " ، وفوق هذا الحاجز الواقعي فانها مكنته من ان يصبح غنيا وذلك في قوله : (٣)

ايا عاذلي في الحمق دعني من العذل فاني رخي البال من كثرة الشغل
واصبحت لا ادري واني لشاهد افي سفر اصبحت ام انا في الامل
فمرني بما احببت آت خلافة فان جئتني بالجد جئتك بالهزل
وان قلت لي : لم كان ذاك ؟ فجوابه لاني قد استكثرت من قلة العقل
فأصبحت في الحمق اميرا موءمرا وما احد في الناس يمكنه عزلي
ومير لي حمقي بغالا وغلماة وكنت زمان العقل ممتطيا رجلي

(١) البيهقي : المحاسن والمساوي ص ٢٧٦

(٢) البيهقي : المصدر نفسه ص ٢٧٦

(٣) ابن المعتز : طبقات الشعراء ص ٣٤٠ - ٣٤١

وهناك من يناقضه وان كان في الحقيقة وجهاً آخر للظاهرة نفسها ،
فهذا أبو العتاهية يرى ان في التعفف كل شيء حين يقول : (١)

طلبت الغنى فوكل وجه فلم اجد سبيل الغنى الا سبيل التعفف

وبعد فهذه نماذج لا غير وليست هي كل ما قيل بل هناك كثير من
الامور تطرقوا اليها ويمكن ان ندرجها تحت خانة العمل .

.....

(١) أبو العتاهية : الديوان ص ٢٤٠

٣ - المدح والهجاء

=====

المدح والهجاء متقابلان ومتناقضان ، يكمن اتحادهما في تناقضهما .
هما متقابلان لانك اذا مدحت شيئا ما فانت تهجو بالضرورة ما يناقضه
واذا هجوت امرا ما فانت ايضا تمدح عكسه . وهما متناقضان لان احدهما
سلبي وثانيهما ايجابي . وهذه السلبية او الايجابية ليست فيهما
بحد ذاتهما كغرضين من اغراض الشعر العربي بل في ما يتناولانه من
موضوعات ، فالكرم مثلا ليس ابدا من جنس البخل وانما هو ضده او نقيضه
واما اتحادهما فيكمن في الفائدة التي يقدمها كل منهما ان كلاهما ذو قيمة
تعليمية تربوية بحيث تكون المدحة بمثابة وصف للاخلاق والصفات الحميدة
في مجتمع معين ويكون الهجاء وصفا للنواقص الموجودة في هذا المجتمع
والتي يجب ان يتحرر منها الافراد . فالمدح مثلا يشجع على الكرم والشجاعة
والمروءة وما شابهها ويرفع قيمتها في نظر الناس بينما نجد الهجاء يحط
من قيمة بعض الظواهر السلبية كالبخل والجبن .

وهكذا نلمس التقابل الموجود بينهما بحيث يؤدي كلاهما الى
النتيجة نفسها وهي تنقية المجتمع من الشوائب وجعله مجتمعا يتحلى
بصفات حميدة حسنة وغرسها في عقول الناس وفي نفوسهم حتى تصبح عادة
عندهم .

لكن هذا لا يعني ان مفعوليهما يتوقف عند هذا الحد ، كلاهما المدحة
مثلا تتخذ سبيلا للمطالبة ببعض الحقوق والشكوى من الاوضاع العامة .
فقد كانت المدحة احيانا " تحمل مطالب الشعب " (١) لان الشعر كان

(١) شوقي ضيف : الشعر وطوايعه الشعبية علوم العصور ص ٧٣

في ذلك الوقت هو وسيلتهم الاعلامية المفضلة يستغلها كل طرف للترويج
لافكاره . وقد استغلها الشعب للمطالبة بتحسين اوضاعه المادية فممن
ذلك مدحة ابي العتاهية التي رفعها الى الرشيد والتي جاء فيها : (١)

من مبالغ عني الامسا	م ناعما متواليه
اني ارى الاسعسا	راسعار الرعية غاليه
وارى المكاسي نذرة	وارى الضرورة فاشيه
وارى غموم الدهر را	ثقة تمرر وغاديه
وارى اليتامى والارا	مل في البيوت الخاليه
من بين راج لم يزل	يسمو اليك وراجيه
يشكون مجهدة بأصوات ضعاف عاليه	مما لقوه العافيه
يرجون رفدك كي يبروا	من يرتجى للناس غيرك الباكهون ؟
من مصبات جوع	تمشي وتصح طاويه
من يرتجى لدفاع كسر	ب ملحمة هي ماهيه ؟
من للبطون الجاععا	ت وللجسوم العاريه
يابن الخلائق لاقد	ت ولاعدمت العافيه
ان الامول الطيبا	ت لها فروع زاكيه
القيت اخبارا اليك من الرعية شافيه	

ان ابا العتاهية قد قدم لنا في هذه المدحة صورة رائعة عن
الاضاع الاقتصادية في عصره وبكل وضوح . انها صورة متنوعة فمنها
ان الاسعار اصبحت غالية لاقدرة للرعية على تجاوزها اضافة الى ان فرض

العمل والكسب كانت محدودة هذا مع تزايد الطلب . ولعل هذه الاوضاع تكون اكثر وطأة على اليتامى والارامل الذين بحث اصواتهم من المطالبة بحقوقهم في العيش . انها مورة كالحمة لذلك العصر وهي اذانة له ايضا .

وزيادة على هذا كانت المدحة وسيلة اعلام في ذلك العصر تسجل احداثه وكل ما يجرى فيه من حروب وفتوحات وغزوات وثورات وفي هذا يقول شوقي ضيف : " لم يكن الشعب يفرح بشيء فرحته بانتصار الدولة وقوادها والخلفاء وغير الخلفاء على اعدائها من الترك في واسط آسيا والبروم في اسيا الصغرى ، وكان ما يزال ينتظر البشارات بالنصر ، وحلت المدائح حينئذ محل وسائل الاعلام الحديثة " (١)

ونعطي الان بعض الامثلة على الموضوعات التي تناولوها في المدح اولاً ثم في السجاء ثانياً ، فقد ركزوا بصفة خاصة على الكرم والكرماء نلوا لظروف المعيشة الصعبة التي كانوا يعانون منها . وانه لا مـر طبيعي ان يمدحوا الكرم بحيث يكون مدحهم شكرا لاولئك الكرماء الذين استطاعوا ان يقدموا لهم بعض المال او بعض الطعام لان الشعراء لم يستطيعوا ابدا ان يسلخوا عن واقعهم وان يمشوا المجاعة التي تهددهم بالهلاك ، ولذا اصبح للكرم في نظرهم معنى سام . وهم في مدحهم اياه انما كانوا يذمون الفقر ويصفونه بطريق غير مباشرة وهم كذلك يشيرون الى الحالة الاقتصادية لان العوز هو الذي دفعهم الى المدح ، فهذا مثلاً مروان بن ابي حفصة يمدح الفضل بن يحيى بقوله : (٢)

(١) شوقي ضيف : الشعر وطوايعه الشعبية على مر العصور ص ٦٤

(٢) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ج ٨ ص ٤٥٨

الم تر ان الجود من لدن ادم
اذا ما ابو العباس راقى سماؤه
اذا ام طفل راعها جوع طفلها
تحدث حتى صار في راحة الفضل
فيالك من هطل ويالك من ويل
دعته باسم الفضل فاستعصم الطفل (x)

فالشطر الاول من البيت الاخير يدل دلالة واضحة على ان الشاعر ربط
بينكرم الفضل بن يحيى وبين الفقر والجوع ، ويقول كذلك كلثوم بن عمرو
العتابي : (١)

ان الكريم ليخفي منك عسرته
وللبخيل على ماله عسل
اذا تكرمت على بذل القليل ولم
بك النوال لا يمنحك قلتته
حتى تراه غنيا وهو مجهود
زرق العيون عليها اوجه سود
تقدر على سعة لم يظهر الجود
فكل ما سد فقرا فهو محمود

فالشطر الاخير واضح تماما فهو يذكر الفقر صراحة ويرى ان كل ما يعالج
فقرا فهو محمود والحمد هو الممدح . وحسبنا هذه النماذج من المديح لان
نيرها لا يخرج هلى ما ذكرنا آنفا .

اما الهجاء فابرز ما فيه في هذا العصر هو الوصف الكاريكاتورى الذى
تجده لدى كل الهجائيين حتى يمعنوا في السخرية وحتى يشوهوا صورة المهجو
امام الناس . وهذه الطريقة يوءدون واجيهم الذى هو تلقيح المجتمع
ضد تلك العيوب والنواقص لان كل من يسمع تلك القواعد والمقطوعات الهجائية
يجد نفسه مدفوعا لتجنب ما ذكر فيها من صفات قبيحة وسيئة حتى لا يقع
هو الآخر في السن الشعراء فيصبح اضحكة بين الناس . وفي هذا يقول

(+) في البيت الاخير اقواء

(٢) القالي : امالي القالي ج ٢ ص ١٣٧ طبعة مصورة عن بولاق ١٣٢٤ هـ

شوقي ضيف : " لم يكن الهجاء اقل تمثيلا لحياة الشعب من المديح اذ هو في حقيقته تصوير لمثالب المجتمع وما بأفراده من خصال ذميمة وما بحكامه وحكمهم من انحراف عن الجادة ٠٠٠٠ وان يعدلوا بهم الى النهج القويم في السلوك والسياسة. والحكم ٠٠٠ " (٢)

وفيما يلي نذكر بعض نماذج الهجاء لنرى الوصف الكاريكاتورى فيها
فهذا درست المعلم يهجو رجلا لجوجا بقوله : (٢)

لنا صاحب مولع بالخلاف كثير الخطا وقليل المواب
الج لجاجا من الخنفساء وازهى اذا ماشى من غراب

فتخيل انسانا جمع بين لجاج الخنفساء وزهو الغراب ، اليس ذلك امرا مضحكا ؟ ويقول درست مرة اخرى فيجيران له : (٣)

لي جيران ثقال كلهم وخفيف فيهم مثل الرصاص
قلت لما قيل لي قد غضوا غضب الخيل على اللجم الدلام (x)

فهذا الهجاء الذى اراد به صاحبه السخرية من جيرانه لجأ فيه الى المفارقات المعنوية واللفظية ، فقد جعل اخف جيرانه مثل الرصاص .

واما منصور الاميهاني فيقول فيعلي بن المهلب : (٤)
عجبت لجسمك ما اصغره ومما تلقم ما اكبره
اراك تطفل طول الحياة ويأمن خبزك ان تكسره

(١) شوقي ضيف : الشعر وطوايعه الشعبية ص ٦٧

(٢) ابن المعتز : طبقات الشعراء ص ٦٧

(٣) ابن المعتز : المصدر نفسه ص ٣٣٥

(x) الدلام : الملساء النينة البراقة (المصدر نفسه)

(٤) ابن المعتز : المصدر نفسه ص ٣٥٢

وتلفي لعودك مستبطنا	تدير على زيره الحنجره
فليتك وريتني بعضه	وكثر ربي بك المقببره
اذا ما بدا لك فوق حماره	فقنبرة فوقها قنبره
تحرم في بيتك المشروبات	وفي بيت غيرك ما اكثره
فطورا تجرجرها نخبة	وطورا تجرجرها تذكرة

انها حقا صورة ملونة لهذا الرجل ، متعددة التناقضات السلبية التي استغلها الشاعر في فضحه ، فقد كان هذا المهلب يتطفل باستمرار على خبز غيره وايضا خبزه لبنته ، وهكذا يحرم الشراب في بيته لانه لا يشرب بل منعنا وشما لانه يتناوله بكثرة في بيت غيره . ويقول منصور هذا في رجل اخر اسمه المغيرة : (١)

وجه المغيرة كله انف	موف عليه كأنه سقف
رجل كوجه البغل طلعت	ما ينقضي من قبحه الوصف
من حيث ما تأتيه تبصره	من اجل ذاك امامه خلف
حصن له من كل نائية	وعلى تنبيهه بعده وقف
جفت المدايح عن خلائقه	ولقد يلية بوجهه القذف

هذه صورة اخرى رائعة تمثل الكمال في القبح ، يمكن ان يستغلها رسامو الكاريكاتور ، فالمغيرة هذا كبير الانف بحيث اختفت معالم وجهه وراء انفه وهذا ما جعل لوجهه طلة بغل ، وفوق هذا المنظر فان جسمه مشوه بحيث لا يستطيع الناظر اليه ان يفرق بين امامه وخلفه .

ويقول كذلك في عقبة بن مالك : (٢)

(١) ابن المعتز : المصدر السابق ص ٣٤٨ - ٣٤٩

(٢) ابن المعتز : المصدر نفسه ص ٣٥٣

يا خطبة ضيعها مالك
يا آل بكر قبلوا قاسما
اضيع منها المنبر الهالك
صار على شرطته مالك
عضادة المنبر في كفه
..... اسود حالك

وهذا ليس هجاء فحسب بل هو رأى خاص فيبتولية هذا الرجل لشرطة قاسم ،
فهذا الرجل لا يصلح في نظر الشاعر لا للخطبة في المساجد ولا للشرطة .
ويقول مرة أخرى مستعملا الاسلوب السابق نفسه : (١)

له وجه خنزير وخيشوم بغلة
شكا فسوه جن البلاد وانسا
ومدرة ملاح وتقطيع حائك
وقد خفت ان يوذى خيار الملاك
فلو كان فيا هل الجحيم لولولوا
الريهم من فسوه المتدارك
وقالوا : العذاب الضعفاهون عندنا
وكلهم مستصرخ نحو مالك

وكما هو ظاهر فان الشاعر يلجأ في تشبيهاته الى الحيوان فيأخذ منه
المناظر القبيحة ويلصقها بالمهجو حتى يكون وقعها اكثر عنفا ، وسوف
نرى هذه الاستعارة ايضا لآخيه الذئبان خطيب البلد بقوله : (٢)

اقول غداة العيد والناس شهد
لعمري لئن اضحى رفيعا فانه
ومن عجب الدنيا صعودك منبرا
وما كنت اخشى مثلها اليوم نكبة
ومنبرنا العالي البناء رفيع
بمن يرتقي اعواده لوضيع
اتبلغ هذا المرتقى واضيع ؟
وحولك الف سامع ومطيع
اذل لها والمسلمون جميع

وواضح ان الشاعر لا ينسى وضعه الاجتماعي في هجائه هذا ، فهذا الوضيع
هو ذاقه الاول على الهجاء لاننا نلاحظ انه يهجو اتباع الدولة فقط ، ولا

(١) ابن المعتز : طبقات الشعراء ص ٣٥٣

(٢) المصدر نفسه ص ٣٤٩ - ٣٥٠

يعبر للاخوة وزنا ، وليس هذا جدا منه للقرابة ولكنه يعبر بصق عما يحس ويعاني من هذا المجتمع ، فهذا اخوه هو الخطيب ولكن صفة الاخوة تنتمي وتبقى المصالح المتضاربة .
ولنر الان شاعرا شعبيا اخر ، وهو ابو الشمقمق ، في معاملته مع الهباء ، فهو يقول في احدهم : (١)

الطريق الطريق جاءكم الاحمق رأس الانتان والقنذره
وابن عم الحمار في صورة الفيل وخال الجاموس والبقرة
يمشي وييدا يريد حلقكم كمشي خنزيرة الى عذرة

فهو كما يحبه يشوه صورة المهجو حتى تغدو رسما كاريكاتوريا مستعينا
كذلك بالتشبيه بالحيوان ليجسد في بعض ملامحه عيوب المهجو . وهاهو
يقول في شخص آخر : (٢)

اسمح الناس جميعا كلهم كذاب ساقط في مرقسه

والسبب في لجوئهم الى الحيوانات المختلفة هو انهم يصعدون عن واقعهم
في جميع اشعارهم ، فهم يأخذون مما حولهم لانهم يعيشون ذلك الواقع
الذي يتحرك ويمشي ويتجسد في جميع مشاكله ومخلوقاته ، فيلتقطون هذه
اللمحات والصور ليصوغوها شعرا طريفا . والحقيقة ان الشاعر ، مهما
كان عصره ، لن يستطيع ابدا ان يفلت من واقعه حتى لو رغب في ذلك
لان الصور والاشياء والاشكار التي يذكرها في شعره سوف تكون من مـوجودـة
كلها في الحياة . وهذه الامور قد تبدو لغير الشاعر وكأنها تحيا

(١) الجاحظ : الحيوان ج ١ ص ٣٩٩

(٢) الجاحظ : الحيوان ج ٣ ص ٣٨٥

على هامش الحياة بينما يجعلها الشاعر تنبض بالحياة ، وبعبارة أخرى
يبث فيها الروح والحياة ، فهذا عبد الصمد بن المعنل يقول في أحد أصحابه ،
واسمه أبو قلابه : (١)

يارب ان كان أبو قلابه يشتم في خلوته أصحابه
فابعث اليه عقربا دبابة تلسه في طرف السبابه

وربما لعبت القافية دورا هنا في استعمال الشاعر للعقرب ، لكنه استطاع
ان يجعل الصورة عادية مألوفة بلسعه في طرف السبابه ، وهي أمور تحدث
باستمرار ، فقد اوجد الشاعر صلة بين اسم المهجو وبين العقرب . ولنر
له صورة أخرى يهجو فيها سعيد بن سلم والي البريد : (٢)

دهتك بعلة الحمام فوز وهال بها الرسول الوعيد
ارى اخبار دارك عنك تخفى فكيف وليت اخبار البريد ؟

والمفارقة واضحة جدا في هذه الصورة فسعيد بن سلم الذي ولي البريد
يجعل اخبار داره واخبار جواريه وفي هذا تناقض كبير لان البريد في ذلك
الوقت معناه الشرطة السريية التي تنقل الى الخليفة جميع اخبار العمال
والولاة والرعية في الاقاليم التابعة للدولة ، فان انسانا تخفى عنه
اخبار بيته لا يصلح ابدا ان يتولى اخبار الدولة .

اما دعبل الخزاعي الذي رأينا هجاءه السياسي من قبل فلا يخرج
على هذا القبيل حين يقول في أحمد بن خالد حين ولي الوزارة : (٣)

(١) زهير غازي زاهد شعر عبد الصمد بن المعنل ص ٢٧ مط النعمان النجف

العراق ١٩٧٠ م

(٢) المرجع نفسه ص ٨٥

(٣) دعبل : الديوان ص ٩٦ جمع عبد الكريم الاشر ، مط المجمع العلمي

العربي بدمشق .

كأن أبا خالد امرأة
يضيق بأولاده بطنه
فقد ملأ الأرض من سلحه
إذا بات متخماً قاعدا
..... واحدا واحدا
خفافس لاتشبه الوالدا

فقد اتبع الأسلوب نفسه في تشويه صورة المهجو وأظهاره بمظهر مضحك .
وليس وصفه هذا الرجل بأنه امرأة بامر غريب إذ إن المرأة في ذلك العصر
كان كثير من الناس ينظرون اليها علوانها مواطن من الدرجة الثانية
وربما كان للظروف الاقتصادية دور كبير في ذلك فالمرأة عنصر مستهلك
ولم تكن تنتج شيئا .

وأما عبدالله بن محمد بن أبي عيينة فيتطرق الى ظاهرة الطمع
في المجتمع ويهجو رجلا تزوج امرأة لمالها بقوله : (١)

رأيت اثاثها فطمعت فيه
فصير امرها يبدى أبيها
والا فالسلام عليك مني
وكم نصبت لغيرك بالاثاث
وسرح من جالك بالاثاث
سأبدأ من غدك بالمراثي

ويبدو ان هذه المرأة كان كل من يتزوجها يلقي نجه ، والشاعر في هذه
الابيات يحارب ظاهرة الطمع التي تتخذ اشكالا عديدة والتي هي من نواقص
المجتمع ، ولكنه في الوقت نفسه يتطرق الى بعض المعتقدات الشعبية والتي
يؤمن بها هو كالنحس والعين وما شابه ذلك وهي في الحقيقة مصادفات
غريبة قد تحدث لبعض الناس فينشأ عندهم غيرهم . والملاحظ ان هذه الظواهر
ما زالت منتشرة في الاوساط الشعبية حتى في عصرنا هذا وسببها الجهل .

(١) ابن قتيبة : الشعروالشعراء ص ٥٥٩ ، مط ليدن ط اولو ١٩٠٢ م

ويواصل ابن أبي عيينة مهمته الاملائية في المجتمع فيشير الى ظاهرة اخرى هي التطفل الذي هو نتيجة من نتائج سوء الاحوال المعيشية في ذلك العصر اى ان الفقير قد دفع ببعض الناس الى هذه الوسيلة للحصول على الطعام، ويقول في احد المتطفلين : (١)

كم اكلت لو قد دعيت بها الى الكفر كفرتسا
ودعاك عامل عسقلان الى وليمته فطرتا
فأتمت سبتا عنده واقمت بعد السبت سبتا
ثم انصرفت ببطنة وسرقت ابريقا وطستسا
انت امروء لومت ثم وجدت الخبز عشتسا

ويعود هو الآخر الى اوصاف الحيوان يستنجد بها في هجاء الناس فيصف
رجلا اسمه خالد بقوله : (٢)

خالد لولا ابوه كان والكلب سوا
لو كما ينقص يزر داد اذا نال السماء

لقد اعتمد الشاعر على هذه المفارقة والمقابلة الجميلتين ليجعل معناه انفذ الى السامع او القارئ لان تدني خالد هذا كان كبيرا فلو كان الامر عكس ذلك وصار خالد يزداد لنال السماء علتك الوتيرة .

ان الاسلوب الشعبي واضح في هذه المقطوعات فهو يتميز بتلك العبارات العادية والخاصة بالشعب والتي لا يمكن ان نجدها عند من يسمون بالخاصة . لا يمكن حصر هذه العبارات او تعدادها فهي كثيرة متنوعة حسب نوع بيئات الشعراء فمن ذلك قصيدة جميلة لحظرة البرمكي يتحكم فيها على شخص ما وهي خير دليل على ما قلنا على الرغم من ان لحظرة البرمكي متأخر قليلا عن

(١) ابن قتيبة : الشعر والشعراء ص ٥٥٨ - ٥٥٩

(٢) ابن عبد البر القرطبي : تهجد المجالس ق ١ ص ٥٢٧

عصرنا لكنه ليس منفصلا عنه بل هو امتداد له ، فهو يقول : (١)
يا لفظة النعي بموت الخليل يا لفظة اليارج ، يا اجرة المنزل ، يا وجه العـ
يا طلعة النعش ، يا منـزلا اقفر من بعد الانيس الحلول
يا نهضة المحبوب عن غفصة يا نعمة قد آذنت بالرحيل
ويا حجابا جاء من مـخلف للوعد مملوءا بعذر طويل
يا بكرة الفلكى الى حفرة مستودع فيها عزيز الشكول
يا وثبة الحافظ مستعجلا لصرخة القيان عند الاصيل
ويا طبيا قد اتى باكرا على اخي سقم بماء الهـقول
يا شوكة فيقدم رخصـة ليس الى اخراجها من سبيل
يا عشرة المجذوم في رجله ويا صعود السعر عند المعيل
يا ردة الحاجب عن قـوة ونكسة من بعد براء العليل

ان كل ما جاء في هذه القصيدة ينطبق على العصر العباسي الاول ويمكن
ان نستخلص منها امورا كثيرة جاءت عرضا لوصف هذا الرجل لكنها في
الحقيقة من مميم هموم ذلك العصر ، منها اجرة البيت التي ذكرها
الشاعر والتي تـُفني ان بعض القوم كانوا يملكون بيوتا يؤجرونها ويتابعون
اهلها الفقراء مطالبين بتسديد هذه الاجرة كما هي الحال في عصرنا
هذا بالضبط ومنها دور القيان والمواخير التي انتشرت خاصة في
الحواضر الكبيرة كبغداد والبصرة ومنها تلك الاشارة الى الاطباء
ولعل هذا من حسنات ذلك العصر حيث وجد بعض الاطباء يذهبون الى المرضى
حيثما كانوا زيادة على ان الاشارة تذكر اهمية النبات الذي كان اهم

الادوية في ذلك العصر ، فقد تعمق العرب في تلك الصناعة حتى وصلوا الى درجة كبيرة من التقدم ومنها وجود بعض الامراض الخبيثة كالجدام وغيره وكذلك ارتفاع الاسعار من حين الياخر الخ ...

وفيما يلي نلاحظ الامور التالية علومقطوعات الهجاء وقصائده السابقة التي ذكرناها ، وهي:

١ - تطور الهجاء : لقد تطور الهجاء في العصر العباسي الاول تطورا ملحوظا فيه مضمونه وشكله ، ففي مضمونه لم يعد يهتم بتلك القضايا التي اهتم بها في العصر الجاهلي مثلا كالهجاء باحتقار النسب وجعل القبيلة كلها مرمى للمفات السيئة ولم يعد مثل العصر الاسلامي هجاء مبني على اسس دينية ولم يعد فقط هجاء سياسيا كما كان في العصر الاموي بل زيادة على هذه الامور كلها نجد اشياء جديدة يمكن ان نجعلها كلها بتسمية الهجاء الاجتماعي لان التركيبة الاجتماعية التي ولدت انماط الهجاء السابقة قد تفتت في العصر العباسي الاول او بدأت تتفتت . وهكذا اختفى تدريجيا دور القبيلة وتأثيرها على الفرد وكذلك بسبب تلك الشعوب الوافدة على الاسلام والتي آصحت جزءا من المجتمع العربي . رفع هذا التفتت من قيمة الفرد على حساب القبيلة وعلى حساب الجماعة الضيقة التي عرفت من قبل بهذا الشكل وما شابهه فأصبح الفرد جزءا من مجتمع عريض يصعب على الفرد ان يتحسس خصوصياته كلها بسبب هذا العرض ولكنه في الوقت نفسه تغيرت اهتماماته فأصبح يهتم ان قليلا وان كثيرا بما يجرى في هذا المجتمع الكبير الذي خلقت الظروف الجديدة . وما الهجاء الاجتماعي هذا الا ضرب من ذلك الاهتمام وهو نقد او تقويم او وجهة نظر في تطورات هذا المجتمع الكبير . لقد اختلطت الاجناس والعقليات والعادات بسبب تنوع عناصر ذلك العصر وطبيعي ان

لايوافق هذا الاختلاط بعض النفوس بل انهم كانوا يرون في بعض جوانبه نقما
فاحشا او تدنيا لالاخلاق والعادات الحميدة فراحوا يتصدون لها •

وهذا لايعني ابدا ان انواع الهجاء الاخرى اندثرت فيالعصر
العباسي الاول بل تراجعت قليلا فقط واصبحت تحتل مرتبة ثانوية بعد
ان كانت تحتل الصدارة في يوم من الايام • لقد اوجد المجتمع الجديد
اخلاقا جديدة وامورا لم تكن ذات اهمية من قبل اولم تكن موجودة املا،
وبدهيان يتأثر الشعراء بالوضع الجديد وان ينعكس ذلك في اشعارهم
بالموافقة والتشجيع حينما وبالرفض والنقد حينما آخر ومن هنا اختلافت
الهجاء فيالعصر العباسي عن العصور السابقة •

ب - التصوير الكاريكاتورى : من مميزات هذا الجديد ذلك الوصف
الكاريكاتورى الساخر الذى هو وسيلة يقصد بها الايذاء والايلام للذان
يؤملان الى النتيجة المتوخاة وهى التلقيح الاجتماعى ضد تلك الامراض
التي ظهرت فيه بسبب التطور الحضارى الكبير الذى عرفه ذلك العصر
ومن خصائص هذا الاسلوب انه يبعث فيالصورة حركة تجعل القصيدة اوالمقطوعة
تنبض بالحياة حتى يجلب اليه اهتمام السامعين •

ج - المبالغة : وهى امر مقبول فيالشعر عموما ، لكن شعراء الهجاء
في العصر العباسي استفادوا منها كثيرا وطوروها لتخدم اغراضهم المنشودة
واضافوا اليها الغلو حتى يكون لشعرهم وقع انفذ في النفوس لتتم الفائدة
بأقصى حد ممكن ولعل ذوق عصرهم كان يشجع على ذلك •

د - المفارقات : وهى جزء آخر من عملية الايصال تلك حيث
يتم بواسطتها جلب انتباه السامع وجعله يضحك من تلك العيوب فيسمجها
ويزدريها ثم يحاربها ويتجنبها فيالنهاية • والمفارقات من صميم

الهجاء في العصر العباسي اذ اعتمد عليها كثير من الشعراء في طرحهم
لمشاكل سرهم .

هـ - استعمال العبارات النابية : لقد كان هذا الاستعمال امرا
مألوفاً لدى شعراء ذلك العصر فهم لم يكونوا يتقربون من ذكر بعض الامور
التي نخط نحن من ذكرها الان وفاعتهم عندهم انها تقيد احيانا في توضيح
الفكرة التي يريد الشاعر تطبيقها على مجتمعه، وربما كانت لها اسباب اخرى
ذات علاقة بعلم النفس ولم تكن هذه الظاهرة خاصة بالشعراء الشعبيين
وهم بل لقد وجدت لدى جميع الفئات في ذلك العصر حتى تلك الفئات
الوقورة كرجال الدين والكتاب والاعيان وغيرهم، وربما كانت تدل على
بعض التحرر في مثل هذه الامور التي قد سبقونا فيها احيانا اشواطا كبيرة .

و - شعبية الهجاء : اي انه كان يهتم اولا بالشعب والجماعة
ويحاول ان يقوم سلوكه مستعينا في ذلك بالزاد الحضاري لذلك الشعب
ومستغلا له احسن استغلال وذلك بذكر بعض التقاليد والعادات وبعض
الاعتقادات الشائعة لدى الشعب كما في قصيدة لحظة انفة الذكر ؟

وكما لاحظنا من قبل في غرض المدح ان الكرم نال الحظ الاوفر
فان البخل في غرض الهجاء استحوذ على حصة اكبر وذلك لان الشعراء
الشعبيين كانوا يركزون على ذم البخل انطلاقا من واقعهم ومن حياتهم
التي كانت على الدوام مراعاة ضاريا ضد مختلف العوامل والظروف التي
جعلت منهم طبقة " دنيا " . ان للبخل علاقة بعيشهم وحياتهم
اليومية لانهم كانوا فقراء وكانوا في حاجة ماسة ودائمة الى الطعام
والبخل مقرون بالطعام بالدرجة الاولى .

البخل ظاهرة شائعة يحتقرها العربي بطبعه لان مجتمعه عود على
الكرم ذلك الكرم الذي جاء هو الآخر نتيجة ظروف معينة فرضتها قساوة

الطبيعة حتى بدا. وكان بين العرب اجمعين اتفاقا على طول الجريسة وعرضها ان يكرم المسافر في الصحراء ايا كان، البيت الذي طرقة ويفض النظر عن كون صاحب ذلك البيت غنيا ام فقيرا ، عدوا ام صديقا، لان الجود بالموجود كما يقال مولنا في قصة الطبيعة مثل رائع على ذلك لان الكرم اصبح واجبا على العربي حتى ولو كان الطارق عدوا ، فهم يعرفون حقوق المعرفة ان كل واحد منهم قد يضطر ذات يوم الى السفر وسيحتاج الى الزاد وإلى الماء اثناء الطريق . وهكذا انخرزت تلك العادة فسي نفسية العرب حتى اصبحت طبيعة ثانية فيهم ، ومنها جاء احتقارهم للبخل الذي هو نقيضها . ولذلك نجد الشعراء الشعبيين كثيرا ما يتناولون هذا الموضوع ، اي البخل ، فيبينون مفسدة وسلبياته ، وهم بهـذا يهتمون في تربية الجماهير على حب الاخلاق الحميدة وعلى تشجيع العادات الايجابية وعلى نبذ كل ما هو فاسد ومخالف للعرف .

وكان على هؤلاء الشعراء المعلمين ان يكونوا هم اولا نماذج تقتدى بها الجماهير ، اي كان عليهم ان يكونوا صادقين فيما ينادون به ، لانهم مطالبون اكثر من غيرهم بان يكون كرماء حتى تنفذ كلمتهم الى الجماهير الواسعة وتوثر فيها التأثير المرغوب ، وبعبارة اخرى كانوا مطالبين بالايكونوا بخلاء ، كما قال ابن ابي فتن: (١)

وان احق الناس باللوم شاعر يلوم على البخل الرجال ويبنل

وهذا البيت بيان هام في هذه القضية لانه يؤكد على التطابق بين النظرية والتطبيق ويؤكد على الصدق في المبادئ لدى الشعراء الشعبيين الذين هم طليعة المجتمع ومعلموه بوصفهم نماذج تقتدى بها الجماهير لما لهم

(١) ابن عبد البر القرطبي: بهجة المجالس: ق ١ ص ٦٢٩

من سمعة طيبة لديها وتأثير واسع عليها •

وتجدر الإشارة هنا العلاقة الفرس بالبخل فقد ألف فيهم الجاحظ ما ألف ، فما حقيقة ذلك ؟ قد يتبادر الى الذهن ان الجاحظ قد زيّد عليهم من اجل التندر ، وانه ربما كان يفعل ضمن حملة الشعوبية التي عرفها ذلك العصر بحيث راح الفرس يبحثون عن عيوب العرب ويخرجونها للناس فتصدى لهم بعض القوم بالاسلوب نفسه اى باظهار عيوب الفرس والبخل واحد منها • كل هذا جائز لكنه ليس بالتفسير الوحيد لتلك الظاهرة ، اذ يبدو لنا ان الفقر كان وراء البخل ايضا لان البخل من نتائج الفقر السلبية • الفقر اذا ولد الكرم والبخل معا ، ولسنا هنا ندافع عن اهل المنع والجمع بل يبدو ان البخل كان الوجه الثاني للقضية فالانسان الذي عانى الحرمان سنين طويلة فواتاه الحظ يوما قد يخشى ان تسرده الايام مرة اخرى الى حاله الاولى مفيلجا حينئذ الى التوفير وبعبارة ذلك العصر الى البخل • ونحن نظن ان البخل لم يكن عند الفرس وحدهم بل تعداهم الى العرب علواً رغم من ان اخلاق العرب لفتحهم ضد هذا المرض منذ العصر الجاهلي وربما ابعد منه ، لان الظروف المحيطة تغيرت فلم يعودوا وحدهم بل اندمجوا بغيرهم من الامم ولان الحاجة ازدادت والمكاسب قلت •

ومع ذلك فقد كان البخل عند شعرائنا مذموماً بكل مواصفاته لكنهم ركزوا على شيئين اثنين هما البخل بالطعام والبخل بالمال ، وهما مرتبطان اشد الارتباط فبالمال يستطيع الانسان ان يحمل على الطعام • ولهذا فمن بخل بالمال فكأنه بخل بالطعام • والبخل بالطعام يعد اشنع انواع البخل • وهذا لا يعني ابداً ان الشعراء الشعبيين كانوا يهتمون ببطونهم اكثر من اللازم بل ان الازواج الاقتصادية كانت تدفعهم دفعا

الى ذلك فهم لا يحصلون على ما يرغبون بسهولة لان طرق الحصول على المال معدودة ولا يستطيع ان يمارسها جميع الناس ولم يكن لهم الا الزراعة البسيطة او تربية المواشي من غنم وجمال وما شابه ذلك . لقد كانت الثروة الوطنية الكبيرة في ايدى اقلية صغيرة هم الحكام عمومها واتباعهم ، وحين لم يجد الفقراء شيئا من طموحاتهم راخوا يظالبون بالاشياء الضرورية العادية وهي توفير الغذاء اليومي لهم ولذويهم . ووضع كهذا زاد الطين بلة اذ جعل ظاهرة البخل تنتشر لدى كثير فممن يملكون الاموال ويعبارة اخرى يملكون الطعام ، الامر الذي جعل شاعرا كأبي العتاهية يتشائم الى درجة ان يقول : (١)

اطرح بطرفك حيث شئت فلن ترى الا بخيلا

وفي هذا الشر مبالغة واضحة لكنها لابد ان تكون مستندة الى واقع ما . ان الحرص على المال او الطعام ناتج كما قلنا عن تلك الظروف الصعبة التي كان يحياها الناس في ذلك العصر لان الدولة لم تكن تهتم بما يحتاجون اليه بل كان ممثلوها يحصرون الثروات والخيرات فيهم فقط وينتفعون بها دون سواهم .

اما البخل بالطعام فقد شنعوا به كثيرا والخوا على اظهاره بمظهر العيب البشع الذي لا يفتقر فقد قال الحسن بن هانئ (ابو نواس) : (٢)

-
- (١) الراغب الاصبهاني: محاضرات الادباء م ١ ج ٢ ص ٥٩٥
(٢) ابن عبد البر القرطبي : بهجة المجالس ١ ص ٦٣٣ - ٦٣٤

رأيت الفضل متكئا	يناغي الخبز والسمكا
فقطب حين ابصرني	ونكس رأسه وبكس
فلما ان حلفت له	باني مائم ضحكا

وسوف نلاحظ في هذه المقطوعات ان مذكرناه سابقا في الهجاء عموما
يهتكر فيها ايضا كالكاركاتور والمبالغات والمفارقات ومنها اقوال
ابي نواس السابقة ومن ذلك قوله ايضا في بخيل آخر: (١)

ابو نوح دخلت عليه يوما	فغداني براءة الطعام
فكان كمن سقى الظمان آلا	وكنت كمن تغذى في المنام

وابو نواس هارح فيايجاد هذه المفارقات الذكية والجميلة ومنها هذه
التي بين فيها بخل هذا الرجل وانها فعلا صورة جذابة لجأ فيها الى
هذه المقابلات التي تجعل ذلك البخيل ينتصر في الحالتين فهو يسقي
الظمان سرابا ويتغذى ضيفه في المنام .

واشنع من هذا كله ذلك البخيل الذي يهمل حتى على نفسه واهله
وهذه قمة البخل كما قال ابن الرومي: (٢)

يقتر عيسى على نفسه	وليس بباق ولا خال
ولو استطيع لتقتيره	تنفك من منخر واحد

وماذا عسانا نقول عن مثل هذا الرجل ؟ هذا الرجل الذي جمع البخل
والكسل في شخص واحد فراح يقتتر حتى في الهواء الذي يتنفسه وهو موجود

(١) ابن عبد البر القرطبي : بهجة المجالس ١ ص ٥٢٨

(٢) الراغب الاصبهاني: محاضرات الادباء ١ ج ٢ ص ٦٦٦

بكثرة ، وهذا ما جعل ابن الرومي ينجح في فضح هذا الرجل .

اما ابو فرعون الساسي فيجمع بين دُم البخلين : بالمال وبالطعام ،
بقوله : (١)

ولا يهرم الدهر من مكانه اشجع من ليث على دكانه
لا يطمع السائل في رغائه اعطاني الفلّس على هوانه

وقريب من هذا قول ابي الشمقق : (٢)

يبس اليدين فما يسطيع بسطهما كان كفيه شدا بالمسامير

وهذه لقطة أخرى تبين مدى استهجان هؤلاء الشعراء للبخل حتى راحوا
يبدلون اقصى ما عندهم من اساليب وطرق فنية فيذمه واحتقاره كما
يتضح اكثر فيما يأتي من مقطوعات ، فمن ذلك قول ابي الشمقق ايضا: (٣)
رأيت الخبز عزّ لديك حتى حسبت الخبز في جو السحاب
وما روحنا لتذب عنا ولكن خفت مرزية الذباب

ومن ذلك كذلك قول حماد مجرد فياحد اصدقائه وهو حريث ابو الفضل (٤)
حريث ابو الفضل ذو خبرة بما يصلح المقد الفاسده
تخوف تخمة اضيافه فعودهم اكله واجده

ان بعض البخلاء كانوا يعلمون ان البخل مذموم من اغلب الناس ولذا
نجههم كثيرا ما يبهرون بخلهم ذلك بايجاد علل تبدو لهم منطقية او عبارة
اخرى كانوا يفسفون هذا البخل ويجدون له الاعذار الكثيرة .

(١) ابن الجراح : الورقة ص ٥٧

(٢) ابن المعتز : طبقات الشعراء ص ١٢٨

(٣) الجاحظ : الحيوان ج ٣ ص ٣١٧ وابن المعتز طبقات الشعراء ص ١٢٨

(٤) الاصفهاني: الاغانى ج ١٤ ص ٣٣٩ وابن المعتز طبقات الشعراء ص ٧٠

ويأتون بمختلف الحج التي تخدم قضيتهم فابو الفضل حريث هذا منهم
ورايه ان كثرة الاكل تتخم الانسان وفي التخم اذى وضربه ولذا فمن
الافضل له ان يكتفي بوجبة واحدة حفاظا على معدته وهو ايضا كما
قال حماد عجرد : (١)

زرت اسرا في بيته مـرة له حيا * وله غير
يكره ان يتخم اضيا فيه ان اذى التخم محذور
ويشتهى ان يؤجروا عنده بالصوم والصائم ما جـور

فانظر الى الحيلة التي لجأ اليها حتى يجعل اضيافه يمسيون عن الطعام
فهو يحدثهم اولا حديث طبيب بالمعدة عليم ثم يحدثهم حديث فقيه يمس
في الصوم اجرا عظيما .

ومن حيلهم كذلك لجوؤهم الى تصغير القصاص حتى يقدموا للضيـف
اقبل شيء ممكن كما قال منصور الاصبهاني في ذلك : (٢)

خوانك يابن ابي نوفل كما زعموا فلكة المغـزل
وكبي قصاعك مخروطة من البخل من اصغر الخرد لـ

وقد اشتهر بعض الناس بالبخل حتى صار يضرب بهم المثل و يقول فيهم
الشعرا القصاص كثيرة مثل ولد سعيد بن سلم الباهلي الذي هجاهم
احمد بن يوسف بقوله : (٣)

ابني سعيد انكم من معشر لا يعرفون كرامة الاضياف
قوم لباهلة بن يعصر ان هم نسبوا حسبيتهم لعبد مناف
قربوا الغدا الى العشـاء وقربوا زادا لعمر ابيك ليس بكاف

(١) - ابن المعتز : طبقات الشعراء ص : ٧١

(٢) - ابن المعتز : المصدر نفسه ص : ٣٤٤

(٣) - المبرد : الكامل في اللغة والادب ٢ / ٢٦٦ والشريف المرتضى : الامالي ٢ / ٢٦٩

وكانني لما حطت اليهم
رحلي نزلت بأبرق العراف
بينما كذلك اتاهم كبراً وهم
يلجون في التبذير والاسراف

ويقول فيهم ابو الشقمقوب بالاصح في سعيد نفسه (١) :
هيهات تضرب في حديد بارد
والله لو طك البحار بأمرها
ينغيه منها شربة لطهوره
ان كنت تطمع في نوال سعيد
واتاه سلم في زمان مدود
لايى وقال : يمين بصعيد

وربما تزيد بعض الشعراء على هؤلاء الناس الا ان هذا التزديد لم
يات اعتباطاً فلا بد من وجود سوابق له حدثت فعلاً فتراج الشعراء يبرهنون
حولها اشعارهم .
ويدلي مسلم بن الوليد بدلوه فيذم بخل سعيد بن مسلم الذي لحقته لعنة
الشعراء بقوله : (٢) :

سعيد بن مسلم الأم الناس كلهم
خريمة لأبأس به غير الله
وما قومه من بخله ببعيد
لم يخن قفلاً وباباً حديثاً

وقد هجا مسلم بن الوليد شخصاً آخر اشتهر بالبخل اسمه موسى بقوله : (٣)

يا ضيف موسى اخي خريمة صم
اطرق لما اتيت ممتدحاً
فخفت ان مات ان اقاد بسه
لو ان كنز البلاد في يده
او فتزود ان كنت لم تصم
فلم يقل لافضلاً على نعيم
فقمت ابغي النجاة من امم
لم يدع الاعتلال بالعدم

هذا من ذمهم البخل والبخل لكنهم وصفوا بدقة الجيل التي يلجأ اليها

(١) المبرور: الكامل ٢٥/٢

(٢) المبرد : الكامل ج٢ ص ٢٥

(٣) ابن المعتز : طبقات الشعراء ص ٣٦

البخيل عند ما يجد نفسه مضطرا الى استقبال ضيف وذلك بالتشاغل عن هذا الضيف
باشياء كثيرة ومنها التظاهر بالصلاة كما قال احد الشعراء : (١)

تراهم خشية الاضياف خرسا يقيمون الصلاة بلا اذان

وقد يطول سجودهم حتى يمل الضيف ويهرب من الجوع بحثا عن الطعام في مكان
اخر .

ويظهر البخيل لاضيافه ان قضايا كثيرة تشغله فيقوم ويقعد حتى يعذروه وينصرفوا
كما قال الشاعر : (٢)

يا قائما في داره قاعدا من غير معنى لا ولا فائده
قدمات اضيافك من جوعهم فأقرأ عليهم سورة المائدة

وقد يهرب البخيل في وجه الاضياف ويترك البيت حتى لا يضطر الى تقديم الطعام
لهم كما قال احد هم : (٣)

يا ايها الخارج من بيته وهاربا من شدة الخوف
ضيئك قد جاء بزد لسه فأرجع وكن ضيفا على الضيف

ومن العجب ان الضيف يدعو المضيف الى الطعام كما فعل هذا الشاعر ؟ وكل ذلك
لان البخيل قد انتشر لديهم . والذي يحاول ان يأكل من طعام البخيل انما يذل نفسه
دون فائدة لان البخيل سوف يمتنع مهما كانت الظروف .

ولذا تكون محاولة الحصول على طعامه امرا مهينا للغاية كما قال دعبيل الخزاعي
في ابن طاهر : (٤)

(١) بهيج شعبان : اثر المعدة في الادب العربي ص ٢٠٨

(٢) المرجع نفسه ص ١٩٥

(٣) المرجع نفسه ص ١٩٤

(٤) المرجع نفسه ص ١٩٩

اتينا ابا طاهر مفطرين الى داره فرجعنا صياما
وجاء بخبز له حامض فقلت دعوه وموتوا كراما
وبعد فاننا نلاحظ من الامثلة السابقة امرين هما :

اولا: ان ذم البخل جزء من غرض عام هو الهجاء الذي تطور في العصر
العباسي في رأينا فتناول موضوعات جديدة لم تكن تحظى بالاهتمام الزائد
في العصور السابقة ومنها البخل الذي افردناه لماله من خفيات
اقتصادية ولانه وان كان يحجى المهجو الا انه يمنح المجتمع مناعة
حصينة ضد هذا المرض الخطر .

ثانيا: ان المبالغة واضحة في الشعر الذي يذم البخل وهي كما قلنا
سابقا من اساليب ذلك العصر وكانت سبحة لدى النقاد زيادة على ما
كانت تؤثر اكثر في المتلقي .

+++++

+++++

٤ - رثاء المتاع

كان الرثاء وما زال اصدق ما قيل من شعر لانه ينبع من عاطفة صادقة
لنفس جياشة داهمها الموت فلم تجد الا الشعر متنفسا لها عن الالام التي
يسببها لغز الالغاز ، الموت بحيث تطفى العاطفة على الشعر في هذه
الحال حتى يأتو ذلك الشعر يقطر حزنا وكمدا .
وزيادة على هذا فان كل الاغراض الشعرية الاخرى قد يرجو صاحبها فائدة
منها اما الرثاء فلا رجاء معه سوى ان الانسان عاجز امام الموت وعجزه
هذا يولد فيه الحزن وفي الحزن يكون الانسان صادقا ختما .

لكن الشعراء الشعبيين زيادة على رثاء الاقارب والاهل والاصدقاء
فقد كانوا يرثون كل ما افتقدوه من متاع والمتاع يشمل كل ما يملكه الفقير
من ادوات او حيوانات او ممتلكات ما ، لان فقد اي شيء لدى الفقير ،
مهما كان تافها في نظر غيره فهو جليل عنده لان من الصعب على الفقير
ان يعوض ما ضاع منه وليكن غرة او جملا او هرة او فانوسا او لوحة وما الى
ذلك . ومن امثلة شعرهم ذلك قول ابي محمد القاسم بن يوسف في عنزة
سوداء له ، وكان كثير الشعر في رثاء البهائم : (١)

عين بكى لعزنا السوداء كالعروس الادماء يوم الجلاء

ذات لون كالغبر الورد قد عدل بما فاق لون الطلاء

ذات رقبين امسسين روقين وضرعين كالذلاء الملا

وهي قصيدة طويلة عدد ابياتها سبعة واربعون بيتا تسير كلها على
هذا النسق ويبدو تأثره بموت عنزته السوداء كبيرا لانه كانت تعطيه

تعطيه واولاده الحليب فحين ماتت فكأن مصدر الرزق انقطع عليهم •
ويقول فيهرة كانت لجيرانه وماتت : (١)

الا قل لمحة او مباردة	تعزوا عن الهرة الصايدة
عسى ان تدور صروف الزما	ن بحسن الخلافة والفائدة
وان رحلت عنكم نعمة	ففي غلوكم نعمة وافدة
يقولون كانت لنا هرة	مربية عندنا تالدة
لها قنص كاقتناس الفهو	د واثبة فيه او لابدة
ترى الفأر من خوفها خشعا	جواحر وهي لهم راصدة
فان اطلعت رأسها فسارة	فليست الوجرها عائدة
كان المنية في كفها	اذا اقبلت نحوها قاصدة

وفي هذه القصيدة تبدو مقدرة الشاعر الكبيرة على الوصف الدقيق كهذه
الهرة التي تلعب دورا كبيرا في حياة الانسان البسيط لانها تخلصه
من الفئران وكأنها حارس امين على بيته •

اما ابو الشبل البرجمي فقد اشترى كبشا للاضحى فجعل يسمنه ويعلفه
فأفلت منه يوما على قنديل له كان يسرجه وبين يديه سراج قارورة للزيت
فمنطحه الكبش فكسره وانصب الزيت على ثيابه وكتبه وفراشه ، فلما عاين
ذلك ذبح الكبش قبل الاضحى وقال يرثي سراج : (٢)

(١) المولي : الاوراق ص ١٧٢ - ١٧٣

(٢) الانصاني ج ١٤ ص ٢٠٤

يا عين بكى لفقد مسرجة كانت عمود الضياء والنور
كانت اذا ما الظلام البسني من عند من الليلشوت كديجور
شقت بنيرانها غياطله شقا دعا الليل بالدياجير

وهي قصيدة طويلة عدد ابياتها واحد وخمسون بيتا تأثر فيها الشاعر
اشد التأثر لغقد سراجة وصف فيها غضبه على ذلك الكبح الذي كان السبب
في فقدانها .

ولابي الشبل هذا قصة اخرى مع قرطاسه ، فقد ذكر الحسن بن علي
الشيباني قال (١) : " دخلت على ابي الشبل يوما فوجدت تحت مخدته
ثلث قرطاس . فسرقته منه ولم يعلم بي ، فلما كان بعد ايام جاءني فانشدني
لنفسه في ذلك الثلث القرطاس :

فكير تعترى وحزن طويل كسقيم انحنى عليه التحول
ليس يبكي رسما ولا طملا مح كما تنذب الريا والظلول
انما حزنه على ثلث كان لحاجاته فغالت به غـول
كان للسر والامانة والكتمان ان باح بالحديث الرسـول

وعدد ابيات هذه القصيدة ثلاثة وعشرون بيتا . ويلاحظ ان لابي الشبل
نفسا طويلا في رثائه لمتاعه وهذا يدل على تأثير فقد تلك الاشياء
في نفسه فهي ثمينة الفاعدة .

اما ابن ميسير فقد رثى الواحا له سرقها منه رجل اسمه قثم وفيها
يقول : (٢)

(١) الاغانى ج ١٤ ص ٢٠٩ (صورة عن دار الكتب)

(٢) مصطفى الشكعة : الشعر والشعراء في العصر العباسي ص ٥٧٠

واقيمي ماتم الالواح	عين بكى بعبرة تسفاح
في بكورى وعند كل رواح	اوحشت حجرتي وردناى منها
كان فيها من مرفق وملاح	وانكريبها اذا ذكرت بماقد
ن لباب من اللطاف الملاح	اينوس دسماء حالكه اللو
ذات نفع خفيفة القدر والمحمل	وسريع جفونها ان محاما
عند كل مستعجل القوم ما حي	هي كانت على علوتي والا
داب والفقه عدتي وسلاحي	هي كانت غدا زورى اذا زا
روري النديم يوم اصطباحي	

ويقول فيها مرة اخرى: (١) :

حرقه في القلب تضطرم	ابقت الالواح اذا اخذت
واحمرار السير والقلم	زانها فصان من صدف
لاتولى نفعها قثم	وتولى اخذها قثم

وبعد فهذه مجموعة من مقطوعات الرثاء الشعبي نستبدل منها على ان حياة الانسان تكسب بعض القيم بارتباطها ببعض الاشياء احيانا لان الانسان حين يملك هذه الاشياء يشعر بالسعادة اما اذا ضاعت منه فانه يجزن ويحس بالتوتر وقد يبكى كما فعل هؤلاء الشعراء لان الفة بعض الامور تولد رابطة بينها وبين النفس زيادة على ان بعضها ضرورى لحياة الانسان ومن هنا تفهم مدى الخسارة التي احس بها اولئك الشعراء حين فقدوها ولا عجب حينئذ ان ينعكس هذا الحزن على شعرهم فيبثونه كمدهم وبكاءهم وطبعي ان يوءثر فينا هذا الشعر لانه رثاء ومعناه ان الانسان لا يرثي احدا او شيئا ما الا اذا كان صادقا .

(١) مصطفى الشكعة : الشعر والشعراء في العصر العباسي ص ٥٧١

ربما كانت الأغراض الشعرية الأخرى ناتجة عن المصالح التي تتحكم
في الفرد أما الرثاء فإن الشاعر لا ينظر من وراءه فائدة معينة اللهم
إلا الراحة النفسية التي قد يشعر بها عند ما يروح عن نفسه بالحديث عن
الإنسان أو الشيء المفقودين . أن رثاء الأهل والأقارب هو اسمى أنواع الرثاء
لكن الشاعر الشعبي أو الإنسان العادي يرتبط بتلك الأمور التي لها
قيمة في حياته كالحيوانات الأليفة أو أشياء المنزل حتى يصبح يحس
وكان بينه وبينها قرابة معينة ولا عجب حينئذ أن يبكيها كل ذلك
البكاء .

.....

.....

٥ - التعامل مع البيئة الشعبية

حياة الفقير شكوى مستمرة ، شكوى من الحياة نفسها ومن وضعه
التعس ومن الحاجة والحرمان . ان الفقر يجلب له كل شيء سيء ويوثقه
بأمور كثيرة جدا فتحس الطبيعة نفسها تبدو وكأنها تتألب عليه لانسه
لا يملك شيئا يواجهها به فهو اعزل الا من الايمان بالله وبالناس وفي
ان هذه الظروف لابد ان تتغير يوما فيسعد فيه النقص . لم يكن الطبيعة
ان تراه يزرع في كل هذه المصائب حتى تطلق عليه بعض مخلوقات لتزيد
من عذابه .

تطلق عليه البق والبرغوث والنمل وما شابه ذلك لتغص عليه نومه السدى
ربما كان الفترة الوحيدة التي يسعد فيها بنسيانه بوعسه . ان هذه
الامور كلها من نتائج الفقر فلو كان يسكن في بيت صحي ويملك ما لا يشتري
به ثيابا جديدة ويحارب به تلك الطفيليات لما انزعج ابدا . ولكن ما
الحل وهو لا يملك ما يدفع به تلك المنغصات ؟ لم يكن له حل سوى ان ينفس
على نفسه اذا كان شاعرا بوصفها وذمها والشكوى منها ، فقد تخصص بعض
الشعراء فيمثل هذه الامور وابرزهم هو ابو محمد القاسم بن يوسف فقيد
قال مرة يشكو النمل : (١)

خراب الدور عامرها	فواقعها وطاعرها
لنا جارات سوء مؤ	ذيات من يجاورها
حوارث غير زراعة	اذا انتشرت مساكرها
كتعية الكتائب حين تلقى	من يغاورها
فمقتول ومأسور	اذا خربت مشاعرها

وهي قصيدة طويلة قوامها أربعة وثلاثون بيتا اكتفينا بذكر ما ذكرنا
لنعطي فكرة عن الموضوع * وهو يقول من قصيدة أخرى طويلة عدد أبياتها
أربعة وعشرون يشكوف فيها من البق والبراغيث : (١) .

قد منينا بهنات هن من شر الهنات
نافرات آمـرات قلقات مقلقات
سافكات لدماء النياس منها شارات
معنا في الرش والقمص علينا واثيرات
بين محنك وفال ثوبه في الغاليات

وبين أن الشاعر يملك قدرة عجيبة على الوصف الدقيق لهذه المنفصات
زيادة على صدقه ومعاناته في هذه الحادثة .

وفي البراغيش قول اعرابي كان بالبصرة حين ارقته : (٢)

ظللت في البصرة في مـراش (٣)
وفي براغيث اذ لها فاشـي
من نافر هـيها وذى خـراش (٤)
يرفع جنبي عن الفـراش
فانا في حرب وفي تخـراش .
يتترك في جنبي كالحواشي

(١) المصدر السابق ص ١٧١-١٧٢

(٢) ابن عبد البر القرطبي : بهجة المجالس ق ٢ ص ٩٨ - ٩٩

(٣) المـراش : الخراش

(٤) الخراش : التحرش للقتال

ويبدو ان مثل هذا الشعر كان كثيرا لكن الايام غالتة اويعبارة
اخرى فان رواثنا القداموسامحهم الله قد ترفعوا عن ذكر مثل هذه
الامور وان صانف وذكرها بعضهم فمن اجل التفكه لاغير . ومثل هذا الشعر
يكشف عن جوانب عديدة من حياة الشعب اليومية ومن المشاكل الحياتية
التي كانوا يعانون منها .

ولايمكن ان نحصر هذه المشاكل ضمن هذه الامور القليلة لان الشاعر
كان يتعامل مع محيطه وبيئته وكانت هذه البيئة متقلبة الاحوال تفرجه
حيناً وتحرّضه حيناً اخر او تنقص عليه عيشه ومن هنا جاء هجاءه لمثل
هذه الاشياء او مدحه لها .

وكما هو معروف فان بيئة الشاعر متعددة الجوانب اجتماعية وسياسية
واقتصادية ودينية وجغرافية وثقافية وما الى ذلك ويحكي ان نقول
باختصار ان كل ما قلّه الشاعر الشعبي كان نتيجة تفاعله وتعامله مع
جانب من هذه الجوانب .

.....

٦ - الفكاهة والتندر

=====

لم نر فيما سبق من موضوعات الا الجذ والصراحة لكن سوء الا ملحها يطرح نفسه علينا وهو : هل انعدم الفرح كلياً من حياة أولئك الشعراء الفقراء ؟ والجواب انهم يكفيهم ما نالوه من عذاب ومشقة ومعاناة ممن واقعهم المر الذي لم يرحمهم ابداً بل كان باستمرار يتفنن في دحرهم ويبيشهم كلها رأى منهم استعداداً للثورة عليه ، فقد تألبت عليهم جملة من الظروف آحالت حياتهم جحيماً . لكن الانسان ، مهما كانت ظروفه فقد تمر عليه لحظات يفرح فيها ويجد نفسه مدفوعاً الى ان يروح على نفسه وينفس عنها ، وفي التنفيس عن الاحزان والواقع الاليم فواقد كثيرة منها ان الانسان يجد نشاطه بتلك اللحظات التي يدوس فيها على الفقر ويضحك منه فيها ملء فيه ومنها انه يضحك ذلك يواجه اليأس ولا يستسلم له ابداً .

ومن هنا يصعب تحديد الفكاهة لكثرة الاغراض التي تحتوى عليها ، فهي تشمل السخرية والذع والتهكم والهزاء والنادرة والدعابة والمزاح والنكتة (١)

وكل هذه الامور تحتاج الى تعريفات دقيقة حتى نفهم معنى الفكاهة على حقيقتها ، لكننا سوف ننظر اليها نظرة اجمالية لتفصيلية .

واهم شيء نلاحظه هو ان للفكاهة قسمين : فكاهة هادفة ذات مغزى اخلاقي او سياسي او اجتماعي الخ ... وفكاهة عادية تأتي من اجل التندر لا غير . والذي يهمنا هو الشق الاول نظراً لماله من علاقة ببحثنا اي بالشعر الشعبي في العصر العباسي الاول ، لان شعراء الفكاهة في ذلك

(١) شوقي ضيف : الفكاهة في مصر ص ١٣ دار الهلال العدد ٨٣

العصر كانوا باستمرار يسقطون على فكاهاتهم همومهم ومشاكلهم وما شابه ذلك .

وتبعاً لهذا فقد كان للناس دائماً موقفان (١) من الفكاهة ، موقف متزمت يرى فيها تفاهة وقلة عقل ، وموقف متقبل لها لكونها نابغة من الشعب ومعبرة عنه .

ويرى بعض الباحثين (٢) ان الفكاهة العربية تتميز بخصائص ثلاث

هي :

١ - واقعيتها المكشوفة .

٢ - هجوميتها واستعدادها .

٣ - تكلفها او صنعها .

ويعني بواقعيتها المكشوفة تناولها لجميع الموضوعات بدون حرج ، ويعني بهجوميتها واستعدادها تلك الشجاعة التي تحلى بها اصحاب الفكاهة في ادبنا العربي اذ كانوا يسخرون من كل من خرج على الصواب حتى ولو كان خليفة . اما تكلفها فيقصد به بعض النماذج التي تأتي فيها الفكاهة متكلفة متصنعة وهي غالباً ذلك النوع الذي يخترعه المثقفون في ذلك العصر .

ونحن نوافق الباحث : علواً لخاصيتين الاوليتين اما الثالثة فنحن

نلحقها بذلك النوع الذي لامغزى اجتماعياً فيه .

ويقول الباحث ان الفكاهة العربية نضجت في العصر العباسي و" ما كان لها ان تنضج الا في هذا العصر ، عصر الشرف والقوة والاستمتاع بالحياة المليئة " (٣) ونحن نوافقه علماً ان هذا العصر كان عصر شرف وقوة واستمتاع بالحياة ولكن من ناحية الحكام والموسرين فقط .

(١) انيس فريجة : الفكاهة عند العرب ص ٣٧ - ٣٨ مكتبة رأس بيروت ط ١ ١٩٦٢

(٢) المرجع نفسه ص ٢٤٠

(٣) المرجع نفسه ص ٥٢

فهم وحدهم الذين كانوا يملكون هذه الاشياء ، اما غيرهم من الجماهير العريضة فكان يزرع تحقير الفقر والحرمان .

ويناقض الباحث نفسه هنا بعض الشيء عندما يجعل الفكاهة ناتجة عن مثل هذه الامور مع العلم انه يقول في مكان آخر ان الفكاهة " ناتجة من الشعب وهي دليل على الكبت والحرمان " (١)

ولكن لاندومه على هذا التناقض لانه لم يكن يبحث في كتابه عن الفكاهة الشعبية وحدها بل كان يبحث في الفكاهة العريية ككل .

ونعود الى شعرائنا الشعبيين الذين لهم اساليب متعددة في تنديدهم تحمل كلها على الروح المرحية التي كان يتمتع بها الانسان في ذلك العصر . وسوف نتعرض لبعض الموضوعات التي تناولوها بأسلوب ساخر والملاحظ انها سارت جميعا مسرى الامثال كشاة سعيد ونعجة منيع وطيلسان ابن حرب وحمار طياب وبغلة ابي دلامة وضرطة وهب الخ

اما وهب هذا الذي اشتهر بضرطته فهو " وهب بن سليمان بن وهب ابن سعيد صاحب بريد الحضرة ، اُفليت منه ضرطة في مجلس الوزيري عبد الله بن يحيى بن خاقان وهو غاص بأمله فطار خبرها في الافاق ووقع في السن الشعراء وصارت مثالا في الشهرة حتى قالوا : اشهر من ضرطة وهب وافضح من ضرطة وهب ، وعمل احمد بن ابي طاهر كتابا في ذكرها والاعتذار عنها بعد كلام كثير قليل فيها " (٢) .

ومن الشعراء الذين ذكروها في شعرهم ابو علي البصير الذي قال

(١) الميس فريخة : الفكاهة عند العرب ص ٣٧ - ٣٨

(٢) الثعلبي : ثمار القلوب في المضاف والمنسوب ص ٢٠٦ - ٢٠٧

فيها : (١)

قتل لوهب البغيض يا وحش الخلقة يا ناطقا بغير لسان
كانت المضربة المشومة نارا اضرمت في جوانب البلدان
قتلت مفلجا وكان لعمرى عدة في الحروب للسلطان

والملاحظ ان الشعراء الظرفاء لا ينسون واقعهم الاجتماعي حتى وهم يتندرون
بل نجدهم في موضوع كهذا يشيرون الى الكرم والبخل والفقر وما شابه ذلك
فهذا ابن الرومي يقول (٢) :

مالقينا من ظرف شرطة وهب تركت اهل دهرنا شعراء
هي عندي كجود فضل بن يحيى غير انها ليس تنعش الفقراء

وهي اشارة واضحة الى ان الشعراء كانوا يرتزقون بشعرهم وكان الفقير
يجعلهم شعراء يكسبون بشعرهم قوتهم *

وقال فيها شاعر آخر ربط بين اسراف آل وهب فيمثل هذه الامور

وبين منعهم وبخلهم ، قال : (٣)

يا آل وهب حدثوني عنكم لم لاترون العدل والاقساط ؟
ما بال ضرطتكم يحل رباطها عفوا ودرهمكم يشد رباطا ؟
صروا ضراطكم المبذر صركم عند السوء الى الفس والقهراط ؟
اوقأ سمحوا بنوا لكم وضراطكم هيهات لستم للنوال نشاطا
لوجدتم بها معا لوجدتكم فرشا لكم عند الرجال بساطا
لكنكم افرطتم في واحد وهو الضراط فعدلوا الافراطا

(١) الثعالبي: ثمار القلوب فيما لمضاف والمنسوب ص ٢٠٧

(٢) المصدر نفسه ص ٢٠٧

(٣) المصدر نفسه ص ٢٠٧

ولقد تفنن الشعراء بعد ذلك في وصفها فأحدثوا لها تشبيهات جميلة وراح كل واحد منهم يبين مقدرته على الوصف وعلى ابتكار المصانيف لهذه الحادثة فقد قال أحدهم : (١)

يا وهب ذا الضرطة لا تبتئس - فان ... انفا سا
واضرب لنا أخرى بلا كلفة - كأنما مزقت قرطاسا

وقال آخر معتذرا له ومواسيا : (٢)

ايا وهب لا تجزع لافلات ضرطة - نعاها عليك العائبون واغرتوا
ولا تعتذر منها وان جل امرها - فقد يغلط الحر الكريم فيضرب

وقال أحمد بن يحيى البلاذري ساخرا : (٣)

ليت طبول العيد تحكي لنا - ضرطة وهب بن سليمان
فانها كانت تروع العدا - من بين مصر وخراسان
يا ضرطة لو انها اشرقت - اودت بمنا وسجستان

وقال آخر متبهكما (٤) :

ان وهب بن سليمان - ان بن وهب بن سعيد
حمل الضرطة للرى على ظهر البريد - لم يجد في القول فاحتاج الى دبير مجيد

(١) الثعالبي: ثمار القلوب في المضاف المنسوب : ص ٢٠٧

(٢) المرجع نفسه ص ٢٠٨

(٣) المرجع نفسه ص ٢٠٨

(٤) المرجع نفسه ص ٢٠٨ - ٢٠٩

اما طيلسان ابن حرب فقد قال فيه الحمدوني قرابة ما فتى مقطوعة
 وكان ابن حرب اهدى هذا الطيلسان الى الشاعر وفيه يقول : (١)
 يا ابن حرب اظلت فقري برفوى طيلسانا قد كنت عنه غنيا
 فهو في الرفو آل فرعون في العرض على النار بكرة وعشيا
 والملاحظ هنا انه يشير الى فقره وقد كان فقيرا فعلا وزاد من فقره هذا
 الطيلسان البالي الذي اضطر الى رفوه مرارا حتى ذهب الطيلسان ويقضي
 الرفو كما قال : (٢)

طيلسان لو كان لفظا اذا ما شك خلق في ايه بهتان
 كم رفوناه اذ تمزق حنسى بقي الرفو وانقضى الطيلسان
 وفي هذا المعنى يقول ايضا : (٣)

فيما كسانيه ابن حرب معتبر فانظر اليه انه احدى الكبر
 قد كان ابيض ثم ما زلنا بسفه نرفوه حتى اسود من صد الابر
 ومن نوادر ما قال فيه مقتبسا من القرآن وقد كانوا يلجؤون الى التراث
 بكل مناحيه فيأخذون منه كما قال : (٤)

يا ابن حرب كسوتني طيلسانا امرضته الاوجاع فهو سقيم
 واذا مارفوته قال سبحانه لك محيي العظام وهي رميم (٥)

وقال مقتبسا من الحديث الشريف : (٥)

-
- (١) ابن المعتز طبقات الشعراء ص ٣٧٠
 (٢) الثعالبي : خاص الخاص ص ١١٩ مكتبة الحياة بيروت ١٩٦٦ م
 (٣) ابن المعتز : المصدر السابق ص ٣٧٠
 (٤) الحصري القيرواني : جمع الجواهر في الملح والنوادر ص ١٥٧
 (٥) الثعالبي : ثمار القلوب ص ٦٠٢ - ٦٠٣
 (٦) سورة يس ٢١ (٧٧)

وطيلسان ان تأملتته شقيقته بالطول والعرض
لو انه بعض بني آدم كان اسير الله في الارض

لان في الخبر: ان العبد اذا بلغ تسعين سنة كتبت له الحسنات وكفرت عنه
السيئات وسمي اسير الله في الارض (١)

وقد لجأ الحمدوني في مقطوعاته هذه الى التضمين فمن ذلك قوله مضمنا
قول ابراهيم الموصلي وغناه : (٢)

كساني ابن حرب طيلسانا كأنه فتى عاشق بال من الوجد كالشن
يغني لبراهيم حين لبسته : - ذهب من الدنيا وما ذهب مني

وعنى الرغم من هذا الهجوم على ابن حرب في الطيلسان الذي اهداه الا ان
الشاعر يعترف بالجميل ويذكر لنا بعض اياتى هذا الطيلسان قائلا : (٣)

طيلسان لابن حرب	ذو اياد ليس تحصي
انافيه اشعر النسا	س اذا ما الشعر نسا
واراني صرت ادنى	بعدهما كنت اقصى
واتقاني الناس وازدا	دوا على شعري قمصا
كان دهرا طيلسانا	ثم قد اصبحت شصا (٤)

ومن احسن التشبيهات التي قالها فيه هذه المقطوعة الجميلة : (٤)

-
- (١) الثعالبي : ثمار القلوب ص ٦٠٢ - ٦٠٣
(٢) المصدر نفسه ص ٦٠٣
(٣) الحصرى القيرواني : جمع الجواهر في الملح والنوادر ص ١٥٣
x الشمس : اللص الذي لا يدع شيئا الا اتى عليه .
(٤) المصدر السابق ص ١٥٣

قل لابن حربيلسا	نك قوم نوح منه احدث
اغنى القرون ولم يزل	عما مضى من قبل يورث
فاذا العيون لحظنه	فكأنه باللحظ يحمرث
يودي اذا لم ارفسه	واذا رفوثة فليس يلبيث
كالكلب ان تحمل عليه الدهر او تتركه	يلهث

واما حمار طياب فقد اشتهر كذلك على لسان ابي غلالة الذي وضع فيه كثيرا من المقطوعات كان يضمنها بعض الاصوات الغنائية التي اشتهرت في عصره . وكان هذا الحمار لطياب جاره وكان طياب هذا فقيرا لم يستطع ان يعلف حماره فاصبح جلدا على عظم ، ساهم البالد بمحتارا ، فوصفه ابو غلالة على هذه الطريقة وهو صواء ادرك ام لم يدرك فقد كان يشير الى فقر جاره وامثاله فقد قال فيه : (١)

ياسا علي عن حمار طياب	ذاك حمار حليف اوصاب
كأنه والذباب يأخذه	من وجه نقار ووشاب

وقال متهمكما على اسلوب الاطلاق والوقوف عليها وانه لايهتم بذلك بل يهتم بحمار طياب هذا : (٢)

اقسمت بالكأس والمدام	وصحبة الفتية الكرام
ان لست ابكي على رسوم	غيرها هائل الغمام
لكن بكائي على حمار	موكل الجسم بالسقام
قد ناب ضرا ومات هزلا	فمار جلدا على عظام
ومر يوما به شعير	مقدار كفين للحمام
وحمل قتل لشاة قوم	كلاهما في يدى غلام

فظل من فرجة يفتسي وقال : قد جاءني طعامي
يا زاعرينا من الخيام حياكم الله بالسلام
لم تطرقنا بي وببي حراك الى حلال ولا حرام

وفي هذا المعنى يقول كذلك (١) :

لم ابك مشجوا لفقد حب ولا ابتلاني بذاك ربي
لكنني قد بكيت حزنا علو حمار لجار جنب

وقال اخيرا مضمنا بعض الالحان كعادته : (٢)

وحمار بكت عليه الحمير دق حنونه الذباب يطير
اكان فيما مضى يقوم بضعف فهو اليوم واقف لايسير
كيف يمشي وليس يعلف شيئا وهو شيخ من الحمير كبير
ياكل التبن في الزمان ولكن ابعد الابعدين عنه الشعر
عائنه القت مرة من يعيد فتغنى وفي الفؤاد سكير
ليس لي منك يا ظلوم نصير انا عبد الهوى وانت امير

اما بغلة ابي دلامة فهي ايضا يضرب بها المثل في الشهرة وقد وصفها
ابو دلامة في قصيدة طويلة عدد ابياتها ستة وخمسون بيتا ذكر فيها
كيف عذبت فاحتال حتى باعها لاحدهم . ويذكر فيها جملة من عيوبها وهذا
مطلعها وبعض من ابياتها : (٣)

ابعد الخيل اركبها ورادا وشقرا في الرعيل الى القتال

(١) الثعالبى ثمار القلوب ص ٣٦٨ .

(٢) المصدر نفسه ص ٣٦٧ .

(٣) الجاحظ : القول في البغال : ص ١٠٠ - ١٠٥ .

ورزقت بغيلة فيها وكسال	وغير خصائلها فرط الوكال
رأيت عيوبها كشرت وغالت	ولو افنيت مجتهدا مقالتي
ليحمي منطقي وكلام غيسري	عشير خصائلها شر الخصال
فأهون عيبها انها اذا ما	نزلت وقلت : امشي لاتبالي

ونكتفي بهذا القدر لان مثل هذه الامور كثيرة جدا لاستطيع ذكرها كلها .
لكن قد يتبادر الى الذهن سؤال : لماذا اهتم هؤلاء الشعراء بمثل هذه
الامور التي لاتبدو جادة ؟ لقد قلنا من قبل ان حياتهم كانت قاسية
وانهم كانوا يفتنمون الفرص ليروحوا عن انفسهم وزيادة على هذا كان عليهم
ان يملأوا الفراغ الهائل الذي كان يحيط بهم فلم يكن العمل يشغلهم
لانه كان غير موجود او لنقل كان نادرا جدا فكان لزاما عليهم ان يجدوا
وسيلة يتحلون بها ومثل هذه الموضوعات كانت افضل وسيلة لديهم بحيث
ينسون للحظة من الزمن قهرهم وان كان لاوعيههم يتذكر وضعهم باستمرار
فينعكس حتى على هذه الموضوعات كما رأينا ، اضافة الى ان بعض الشعراء
كانوا فكهين بالطبع مثل الحمدوني وابي دلامة وغيرهما .

.....

....

٧ - تسلط المال

=====

تحولت بعض الحواضر الكبيرة في العصر العباسي الاول الى سوق استهلاكية كبيرة مما زاد من قيمة المبادلات الغذائية الامر الذي اعطى للمال نفوذا كبيرا . والذين يكسبون المال هم الاغنياء طبعا وهم لا يشبعون ابدا كما لا يشبع الفقير لكن شتان بين الشبعين والغني لا يشبع لجشع في نفسه بينما لا يشبع الفقير لانه لم يجد ما يأكل . وحال كهذه تغطي صاحب المال هيبة وتجعله مرهوبا مطاعا مسموع الكلام باخذ الراى ، كما تجعله يتصرف في شؤون غيره من الضعفاء وفي معاشهم بواسطة ماله . وهذا ما دفع اناسا الى التكالب على جمع المال بينهم جعل اخرين يمدون ايديهم لانهم لم يكونوا محظوظين حتى يكونوا اغنياء . وهكذا اصبح للمال لسان ينطق فيقنع ويجعل الباطل حقا كما يجعل الحق باطلا ، فهذا احد الشعراء يقول مشيرا الى الرشوة التي انتشرت : (١)

بعثتني حاجتي رسولا يكنو ابا درهم فتمت
ولو سواه بعثت فيها لم تحظ نفسي بما تمت

ولهذا انتشرت ظاهرة التزلف لذوى المال لدى بعض الناس فعابها الشعراء لانهم راوا فيها حطا من قيمة الانسان واستعبادا له واستذلالا لكن في كل مجتمع يوجد افراد يرضون بهذا الاستعباد ومثال ذلك ما قاله عبيد الصمد بن المعذل في اخيه احمد حين قبض خمس مئة دينار من اسحاق بن ابراهيم ثم رجع الى البصرة وكان خرج منها على ان يغزو : (٢)

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٢ ص : ١٢٧

(٢) زهير غازى : شعر عبد الصمد بن المعذل ص ١٣٣

يرى القراة بان الله همته وانما كان يغزو كيراسحاق
فباع زهدا ثوابا لانفاده وابتاع عاجل رفد القوم بالباقي
ويبدو ان احمد هذا كان كثير التزلف لذوى الجاه واصحاب السلطان
فها هو يقول فيه مرة اخرى : (١)

عذيري من اخ قد كان بيدي على من لايس السلطان عتبه
وكان يذمهم في كل يوم يشي بالجهل والهذيان خطبة
فلما ان انته دريهمات من السلطان باع بهن ربه
كسبت ابا الغفول لنا معايا وعارا قد شملت به وسبه

ومرنا يعبر صراحة عن موقفه من امثال اخيه الذين يتزلفون للسلطان
ويبيعون انفسهم مقابل دريهمات ويحتقرهم، وهو يفضل ان يبقى زاهدا
في الحياة على ان يمد يده لصاحب مال لان صاحب المال لن يعطيه شيئا
دون مقابل فالعطاء تتبعه عادة ضغوط لايرضى بها عبد الصمد وامثاله .

ومن عجب الاسرار ان بعض الناس اصبحوا يقيسون الانسان بما يملك
من مال ، وان كان معدما فان الاصابع تشير اليه بالعيوب كما قال احدهم : (٢)

اذا قل مال المرء قل صديقه واومت اليه بالعيوب الاصابع
ويتعد عنه الاصدقاء والناس اذا ادبرت عنه الدنيا كما قال آخر : (٣)
اذا كان جد المرء في الشيء مقبلا تأتت له الاشياء من كل جانب
وان ادبرت عنه دنياه توعرت عليه واعيته وجوه المطالب
وان قل مال المرء اقماه اهله واعرض عنه كل الف وماحب
وكذبه الاقوام في كل منطق وان كان فيه صادقا غير كاذب

(١) زهير غازي: شعر عبدالصمد بن المغنل : ص ٢٤٤

(٢) البيهقي : المحاسن والمساوي ص ٢٧٦

(٣) المصدر نفسه ص ٢٨٠

هذه هي حال الانسان الذي لا يملك مالا في ذلك العصر ينفر منه الاصدقاء
ويقصيه الاهل ويصبح عديم المعنى في نظرهم لايساوي شيئا كما قال احمد
ابن ابي طاهر : (١)

ولايساوى درهما واحدا من ليس في منزله درهم

لقد فقد الانسان قيمته واصبح يقاس بما يملك من اموال ، لكن الشعراء
كما قلنا تمدوا لهذه الظاهرة وحاولوا ان يبينوا ان الانسان يجب الا تطفئ
عليه المادة وتستحوذ على مصيره ، والا فسوف يفقد انسانيته ، ولذلك لجؤوا
الى عدة اساليب ليظهروا عيوب المال فربطوه بالمعاصي وجعلوا الغنى
ملازما للشر وجعلوا الفقر محمودا كما قال محمود الوراق : (٢)

من شرف الفقر ومن فضله على الغنى لوضح منك النظر
انك تعصي لتنال الغنى ولست تعصي الله كي تفتقر

ولكن هذه الصيحات لاتنفع لان الاوضاع الاقتصادية فرضت على الناس ان يبحثوا
عن المال بجميع الوسائل لان المال أصبح يملك سطوة على نفوسهم وعلى
ارزاقهم ولذا ظلوا يميلون الى الاغنياء متى ما ضكت لهم الدنيا وان
مالت مالوا معها كالريح ، وذلك ما قاله ابو العتاهية من قصيدة جميلة
نذكر منها هذه الابيات وهي : (٣)

اذا انقطعت عني من العيش مدتي فان بكاء الباكيات قليل
سيعرض عن ذكرى وتنسى مودتي ويحدث بعدى للخليل خليل
احبك قوم حين صرت الى الغنى وكل غني في العيون جليل

(١) الراغب الاصبهاني: محاضرات الادباء م ١ ج ٢ ص ٤٩٨

(٢) المصدر نفسه م ١ ج ٢ ص ٥١٣

(٣) الشريف المرتضى: امالي المرتضى ج ٢ ص ٢٢٨-٢٢٩

إذا مالت الدنيا إلى المرء رغبته إليه ومال الناس حيث يميل
وقريب من هذا ما أشار إليه بشار وإن كان يقصد به مدح الكرم إلا أنه
من جهة ثانية ذم للذين يهرولون إلى أصحاب المال حين يقول : (١)
يسقط الطير حيث ينتثر الحب وتتشى منازل الكرماء

وكذلك لأن المال في نظر البعض كالمرهم يجبر العظم الكبير كما قال
مطيع بن أبياس : (٢)

ثناء من أمير خير كسب لصاحب مغنم وأخي ثراء
ولكن الزمان برى عظامي ومالي كالدرهم من دواء

وهذا ما جعل جعيفران ينفجرو ويسقط لأنه رأى أن المال عقل من لا عقل
له وحسن من لا جمال له، وإن كان فقيرا فكل النواقص تلتحق به وذلك في
قوله : (٣)

رأيت الناس يدعوني	بمجنون على عمد
وما بي اليوم من حسن	ولا لبس ولا عقد
وإن كنت كقارون	وواليرجة الجند
وأوني راجح العقل	جميلا حسن القد
وما ذاك على حق	ولكن هيبة النقد

وفي الأخير نقول إن هذه الظاهرة لم تكن دخيلة على ذلك العصر بل
أوجدتها ظروفه التي تحدثنا عنها سابقا وإن الذين هرعوا إلى أصحاب

(١) ابن عبد البر القرطبي : بهجة المجالس ١ ص ٢٦٨

(٢) ابن المعتز : طبقات الشعراء ص ٩٣

(٣) النيسابوري : عقلاء المجانين : ص ٨٩ المطبعة العربية بمصر ١٩٢٤

المال يطلبون مالهم ويمدون ايديهم كانوا معذورين ان لم يكن امامهم
من وسيلة اخرى غير ذلك. صحيح انهم كانوا لابد ان يثوروا على الوضع
وقد فعلوا وان لم تنجح ثوراتهم وحاولوا بشتى الطرق الممكنة تغيير
ذلك الوضع . وكان الشعر احد الاساليب المستعملة فينضالهم ذلك وما
هذه المقطوعات التي ذكرناها لهم الادليل عليها .

وفيختم هذا الفصل نكرر ان حياة الشعب لا يمكن حصرها في قوالسب
واغراض محددة ومحدودة وجامدة بل هي متنوعة تنوع الحياة نفسها . وما
هذه الاغراض التي ذكرنا الادليل على ذلك التنوع والخصب .

.....

.....

الفصل الثاني

الخصائص الفنية

أ - الأوزان

ب - القوافي

ج - اللفاظ :

١ - سهولة اللفاظ

٢ - المعرب

٣ - المصطلحات

د - في ثنايا الشعر :

١ - الاقتباس

٢ - الحسنات اللفظية

٣ - الصور الشعرية الشعبية

٤ - المبالغة

هـ - الصدق في التعبير .

هـ - بناء القصيدة .

.....

مدخل :

تغيرت الحياة الاجتماعية في العصر العباسي تغيرا كبيرا نتيجة للتطوُّر السريع الذي شهدته المنطقة اعقاب انتصار العباسيين واستيلائهم على السلطة. وكان من نتائج هذا التغير ان اهتمت السلطة من العرب عليا فحتى العاصمة لم تعد قريبة من المناطق العربية كما كانت من قبل بل حاذت فارس التي كان اغلب جند الخلافة من فرسها وعربها وغيرهم من سكان تلك الاقاليم . وهذا مما يساعد تلك الشعوب على الانصهار بجدية في المجتمع الجديد ما اتاح لهم فرصة التأثير في الحضارة العربية الاسلامية بجميع مجالاتها . ان نظرة بسيطة لاصل الشعراء في ذلك العصر واللغويين والنحويين ومن شابههم تكفي للدلالة على ذلك ، فقد تعلموا العربية حتى اتقنوها والفوا فيها الكتب والمصنفات الكثيرة كما نظموا الشعر فمهروا فيه الى غير ذلك من النشاطات الفكرية . وهكذا استطاعت تلك الحضارات التي كانت متنافرة من قبل ان تمتزج في بوتقة واحدة بفضل الاسلام وان تكون مجتمعا جديدا يمتاز عن عناصره المكونة بما يمتاز به الكل عن الاجزاء . وبالعقاب تطورت جميع البناءات الفوقية بحيث لم تعد وسائلها القديمة والموروثة من بني امية تتلاءم مع العصر الجديد ولم تعد تكفي للتعبير عما وجد فيه الامم الذي حدا بهم الى خلق أنظمة وقياسات جديدة جاءت بطريقة موضوعية اي ان الناظر اليها لا يراها مفروضة فرضا على هذا العصر او مقحمة فيه بصفة تعسفية بل هي نتيجة ظروف منطقية ، ومع ذلك لانستطيع ان نعدد تلك الاسباب الان واحدا فواحدا بل يمكن ان نذكر بعضها عرضا عندما نتعرض لجوانب التغيير التي حدثت في شعر ذلك العصر فيما يلي .

لقد كان الشعر يمتاز بهيمنة كبيرة على نفوس العرب وكأن له سحرا يأسرهم اليه ، حتى قيل ان بيتا من الشعر قد يشعل حريا كما ان بيتا اخر قد يطفئهناء . وهذا ان دل على شي * فانما يدل على ان تأثير الشعر على العرب كان عظيما جدا لانه كان كل شي * عندهم فهو المدافع عن انسابهم والذاب عن اعراضهم والسرار على خصومهم (١) . وهو مستودع عواطفهم وتراث تجاربهم اضافة الى انه كان وسيلة الاعلام الوحيدة التي لها مفعول عظيم على الجماهير ، وما زالت بقية من ذلك في عصرنا هذا المتسم بالتطور (التكنولوجي) الهائل .

لكن الشعر العربي ، او اى شعر اخر ، لا يبقى جامدا عبر العصور وكيف
يمكنه ان يركد وهو ابن الانسان ، والانسان في اضطراب دائم ٣ لذا كان محكوما
على الشعر ان يتطور وان تلحقه اسباب التغير لانه يمثل جانبا هاما من النشاط
الفكرى والعاطفى للانسان .

وليس قولنا هذا مقصورا على الشعر الشعبي وحده ، لان الشعر ايا كان نوعه
يبقى مرتبطا بانسان معين يعيش وسط ظروف معينة ، فسوف نرى ان ما حدث للشعر
الشعبي انعكس صدهاء على الشعر الرسمي والعكس صحيح ايضا لان عملية التأثير
والتأثر لا يمكن ان تحول دونها الطبقات .

حركات التفسير في هذا الشعر ، لافي اغراض العامة فحسب ، بل في شياها
في معناه وفي شكله ، فمن حيث الشكل تطورت الازان والقوافي ومن حيث المعنى
تغيرت الموضوعات التي تناولها .

محمد شكبي الالوسي : بلوغ الارب في معرفة احوال العرب ج ٣ ص ٨٤ :
شرح وتصحيح محمد بهجة الانبي ، طبع المكتبة الاهلية ، طبعة

ففي الاوزان مثلا حدث امران هاما تبدوا فيهما روح العصر واضحة جدا
هما :

اولا : ظهور الاوزان القصيرة التي شغف بها العباسيون ايما شغف وافتتنوا
بها حتى نظم كثير من شعرائهم عليها .

لقد وجدوا تراثا من الشعر يتسم بالجدية والعبوس وهم في مجتمع تعسدت
فيه اسباب الفقر والحربان من جهة واسباب الرفاء واللهو من جهة ثانية فاحسروا
بهم حينئذ ان يعيشوا عصرهم وان يطرحوا جانبا تلك الاوزان الطويلة التي تشبه
امتداد الصحراء وركابيتها .

ماكان احوجهم الى اوزان قصيرة تتمثل فيها الحياة الجديدة بصخب حواضرها
الكبيرة المحتوية على جميع التناقضات والمعبرة عن التطور السريع الذي حدث في
عصرهم . كانت وتيرة التطور سريعة جدا بعد ثورة العباسيين فكان محكوما عليهم
ان يحدثوا ثورة في كل شي .

وبقي ان نشير الى ان الشعراء الشعبيين وغيرهم من الشعراء لم يهطلوا الاوزان
الطويلة كلها بل نجدهم يستعملونها من حين لآخر لانه من الصعب عليهم جميعا
ان يتخلوا دفعة واحدة عن الموروث الشعري سواء في المعاني ام في الاشكال .
لقد بقيت اسباب الحياة متداخلة وقد بقيت الاتجاهات متداخلة فكلما ابتعدنا
عن المدن كلما كان الشعر اقرب الى العصر الاموي والجاهلي من قبله وكلمنا
اقتربنا من الحواضر كلما بدت لنا الاساليب الجديدة المتلائمة مع العصر الجديد .
هذا من جهة ومن جهة اخرى فان الشعراء لم يكونوا دائما شعبيين خلصا
اورسميين خلصا لان اغلب الشعراء كانوا في بداياتهم من طبقات فقيرة لكنهم مع
الايام ومع اقترابهم من السلطان قد تغير بعضهم وتأثر بحياة البلاطات فنسبي
اصله وصار يصدر انطلاقا من وضعه الجديد . فلأتناقض اذا ان نستشهد احيانا
بشعر بعض عالىي الشعراء الرسميين في ذلك العصر كيشار وابي نواس وابي تمام
 وغيرهم .

وليست هذه هي الاسباب الوحيدة في بروز الاوزان القصيرة في تلك الفترة. فهناك ايضا تطور الغناء وازدهاره بشكل استثنائي لم يشهدوا له مثيلا من قبل وحسبنا ان نتذكر كتاب الاغاني لابي الفرج الاصفهاني لنعي مدى هيمنة تلك الظاهرة على العصر العباسي . صحيح ان الاغنياء هم الذين كانوا يستمتعون بهـذا الغناء وان شعراءهم هم اول من تأثر بذلك لكن لا ننس ايضا عملية التأثير والتأثر بين مختلف طبقات ذلك العصر ، وهكذا لعب الغناء دورا كبيرا في هيمنة الاوزان القصيرة التي تناسبه وتناسب الموسيقى السريعة النابضة بالحياة .

ثم لاننسى ايضا شيوع التعليم والشعر التعليمي في ذلك العصر والنتاج عن تلك الحركة الثقافية الواسعة التي نتجت عن اختلاط الاجناس والحضارات ، فقد عمدوا الى صب القواعد والقوانين والعلوم المختلفة في قصائد شيقة موزونة يسهل حفظها لمافيها من موسيقا زيادة على حب الناس للشعر . وطبيعي ان يلجؤوا في مثل هذه الظروف الى الاوزان الخفيفة السهلة القصيرة .

وكانت وسيلتهم في هذه الامور كلها ، في الغناء والتعليم والتعبير عن امور الحياة ، هي استعمال الاوزان القصيرة اولا وتقصير الطويلة ثانيا بتجزئتها وانهاكها وما الى ذلك ، مثل قول ابن منذر في رثاء عبد المجيد (١) :

يا عين حق لك البكاء
لحادث الرزء الجليل
فابكي على عبد المجيد واعولي كل العويل
وابكي لمتاع النسيدي
والحمد بالثمن الجليل

وهي من مجزوء الكامل ؛ او كقول جحظة البرمكي : (٢)

-
- (١) ابن المعتز : طبقات الشعراء ص ١٢٤-١٢٥
(٢) الراغب الاصفهاني : محاضرات الادباء ج ٢ ص ٦٠٤

وباحسنت لا يباع الدقيق

او كقول جعيف=ران : (١)

ولاله بشبيه	ما جعفر لابييه
فكلهم يدعيه	اضحى لقوم كثير
وذا يخاصم فيه	هذا يقول بنسي
لعلمها بابيه	والام تضحك منهم

او كقول عبد الصمد بن المعذل : (٢)

قالا حيل	ماذا العمل
شوم الفزل	هذا الرجل
حين احتفل	اهدى بصل

وهي على غرار قصيدة سلم الخاسر التي يقول فيها : (٣)

موسى المطر	غيث بكر
ثم انهمر	الوى المرر
كم اعتسر	ثم ابتسر
وكم قدر	ثم غفر

وكلاهما على تفعيلة واحدة هي مستعملن مع جوارزاتها ، وهذا ما يبين ايضا ان الاتجاهين الرسمي والشعبي قد تأثرا معا بمختلف الامور التي جدت في ذلك العصر .

(١) الجاحظ : البيان والتبيين ج ٢ ص ٣٢٦

(٢) عبد الصمد بن المعذل : شعر عبد الصمد بن المعذل ص ١٥٣

(٣) احمد كمال زكي : الحياة الادبية في الكوفة ص ٣٣٨

وكما قلنا فان الشعراء لم يستعملوا الاوزان القصيرة وحدها بل نجد هــم
ايضا يستعملون الطويلة منها فهذا جحظة البرمكي يذكر ان الفقراء ايضا
كرما في قصيدة من بحر البسيط مطلعها : (١)

جاء الشتاء وما عندي له ورق ما وهبت ولا عندي له خلع
كانت فبدرها جود ولعت به وللمساكين ايضا بالندی ولع

وقريب من هذا ما قاله الحسين بن مطير من بحر الطويل : (٢)

ات رجلا اودى بوافر لحمه طلاب المعالي واكتساب المكارم
خفيف الحشا ضربا كان ثيابه على قاطع من جوهر الهند صارم
فقلت لها لاتعجبين فانتسي ارى سنن الفتيان من المشاتم

اما الفناء فاناره واضحة جدا في شعرنا العباسي الشعبي والرسمي ، ويبدو
ذلك جليا مثلا في مقطوعة لبشار بن برد تتردد فيها عبارة معينة كما كان الشعراء
يفعلون ان يختارون عبارة يرددونها لتكون بمثابة ايقاع لقيمة الابيات مثل
هلليلنة هلليلنة التي هجا بها ابودلامة بشار بن برد (٣) او كقول بشار
نفسه : (٤)

ذرخلتا ذرخلتا
ذرخلتا ذرخلتا
ذرخلتا ذرخلتا
ذرخلتا ذرخلتا
ذرخلتا ذرخلتا
ذرخلتا ذرخلتا
ذرخلتا ذرخلتا

(١) الراغب الاصبهاني : محاضرات الادباء ج ٢ ص ٥٠٦

(٢) الجاحظ : البيان والتبيين ج ٢ ص ٢٩٩

(٣-٤) مصطفى هداره : اتجاهات الشعر ص ٤٣٢

ثانياً : وثاني الامر هو اختراع اوزان جديدة ، فالشعر العربي القديم او على الاقل منذ عرفناه كان ينظم وفق انماط معينة فرضتها ظروف الحياة المختلفة وجاء الخليل بن احمد الفراهيدي فاكتشف الية الشعر بحيث وضع قوانين سماها علم العروض تيمناً بمكة المكرمة لاعتراضها وسط البلاد (١) وربطها بحياة العرب فسمى البحور الشعرية باسماء لها علاقة بوضعهم ، فالعربي كما نعرف فارس ، والغروسية ان لم يجدوها لاتكتمل رجولته ، فربما قضى الواحد منهم ثلثي حياته متطياً صهوة جواده بحيث كان يقطع مسافات طويلة اما غازياً واما باحثاً عن العشب والكلاء . وعينها كانت تطول عليه الطريق كان يحدو او بمباراة اخرى كان يترنم بما يعتل في نفسه وكانت حوافر الخيل والابل خير ايقاع يصب فيه تلك الشحنات العاطفية التي تعتمل في داخله اذ على وقمها يتغنى اويشكو مابه . (٢) ومن هنا استنبط الخليل بن احمد تلك التسميات التي اعطاها لبحور الشعر كالطويل والسريع والخفيف وما شابه ذلك . وكشف الخليل في دوائره عن البحور المستعملة والمهمة معا . وظل الدارسون والباحثون من بعده يرددون اختراعه ويضيفون عليه من الاحتمالات والمصطلحات حتى اثقلوا كاهله فأصبح من الصعب على طالب الادب ان يعي باستمرار كل تلك المعادلات الرياضية التي اصبحها علم العروض .

ومع ذلك فان الشعراء لم يربطوا انفسهم بما ابتدع الخليل ، وان ساروا على مبادئه ، لان النفس يستحوذ عليها النظام . ومع ذلك فلم يرضخوا له لان الحياة في تفاعل مستمر لاترضى بالقيود ابداً ، والبشر مدفوعون حتماً الى ايجاد الاشكال المناسبة للدلالة على اوضاعهم المختلفة عبر الازمان .

(١) ابراهيم انيس : موسيقى الشعر ص ٤٩

(٢) اغناطيوس كراتشكوفسكي : دراسات في تاريخ الادب العربي ص ٨-٩ ترجمة المعصراني دار النشر موسكو ١٩٦٥ .

ولذا حدث في العصر العباسي ان استنبط الشعراء بحورا جديدة تتناسب مع عصرهم دون ان يلجؤوا بالتراث في غياهب النسيان بل استغلوه الى اقصى درجة ممكنة ، فقد نهلوا منه المعاني اولا وظل بعضهم يسير على عمود الشعر المعروف حتى عصرنا هذا .

ان ابا العتاهية فارس بعيد الشأ وفي هذا المضمار - مع العلم ان ابا العتاهية اقرب الى روح الشعب في شعره معنى ولفظا - فالمصادر تذكر ان لــــه اكبر الفضل في ابتكار الاوزان ومثال ذلك ما قاله عنه ابنه محمد : " سئل ابي : هل تعرف العروض ؟ فقال : ان اكبر من العروض . وله اوزان لا تدخل في العروض " (١) . ومن هذه الاوزان دق الناقوس او ماسماه الاخفش بالمتدارك او الخبيب وهو كقول ابي العتاهية : (٢)

قال القاضي لما عوتب	هم القاضي بيت يطرب
هذا عذر القاضي واقلب	ما في الدنيا الا مذنب

وربما كان يقصد الغدر في الشطر الاخير وذلك بقلب لفظة عذر ، وهي كما نلاحظ على وزن فعلن اربع مرات مع الجولات في كل شطر .

ومن خير الامثلة التي توضح مخالفة ابي العتاهية لقواعد العروض الخليلي قوله من وزن المنسرح : (٣)

(١) سعد شلبي : الشعر العباسي ، التيارات الشعبية ص ٢٠٠ مكتبة غريب بدون تاريخ .

(٢) ابراهيم انيس : موسيقى الشعر ص ١٩٥ طبع مكتبة الانجلو المصرية طبعة خامسة القاهرة ١٩٢٨

(٣) ابراهيم انيس : المرجع نفسه ص ١٩٥

من لم تعظه الخطوب	لم تثنه الايام والحقب
يا ايها المبتلى بهتته	الم تر الدهر كيف ينقلب
راى خلق الاله يعجب	يعجب والخلق كله عجب

ويسمى شاعر اخر برزين العروضي لخروجه على العروض ومن ذلك قصيدته التي مدح بها الحسن بن سهل واخاه الفضل وقال عنها يا قوت انها غريبة العروض وهي : (١)

ذو الرياستين اخوك النجيب	فيه كل مكرمة وفيك
ذو الرياستين وانت اللذان	يحييان سنة غازى تبوك
لم تزالا كالحيا للهلال	والعباد مالكما من شريك
انتما ان اقحط العالمون	منتهى الغيث وماوى الضريك

واذا ناقشا الان هذه الظاهرة فاننا نلاحظ الامرين التاليين :

اولا : قد تكون هذه الحالات التي خرج فيها بعض الشعراء على العروض الخليلي محاولات حقيقية لايجاد اوزان جديدة وهذا امر محتمل جدا لان العصر العباسي كان عصر تشكل للحضارة الاسلامية العربية على اسس جديدة تختلف عن المراحل السابقة بسبب انصهار مجموعة من الثقافات والعقليات فيها . وليس غريبا ان ينزع بعض الشعراء الى تجديد الاوزان العربية المعروفة وادخال اوزان ربما كانت لها اصول غير عربية لان كثيرا من الشعراء كانوا من جنسيات مختلفة ولم يتخلوا دفة واحدة عن حضاراتهم السابقة .

ثانيا : والامر الثاني له علاقة بالاول وهوان الشعراء وجدوا انفسهم في مجتمع ظهرت فيه لغتان ، لغة راقية وهي العربية الفصحى ولغة شعبية فيها الفصح وغير الفصح ، مع العلم ان الناس غير المتخصصين في علوم اللغة كانوا

على استمرار العصور . ساهلون في قواعد الاعراب ، ومن هنا قد ينظم بعضهم شعرا على غرار اوزان الخليل لكن دون مراعاة للقواعد بصفة صارمة فتج هذا الذى سمي خروجا على العروض لان تلك الاشعار اذا قرئت معرفة اختل الوزن . ودليلنا في هذا هو تلك القصائد الزجلية التي اشتهرت فيما بعد وقد ذكر ابن خلدون بعضها في مقدمته لكن بعض الباحثين لا يراها تطورا في " وزن الشعر وحسوره وانما هو تطور في القافية وتنويعها من ناحية وقواعد الاعراب من ناحية ثانية . " (١)

وتذكر بعض المصادر انهم لجؤوا الى قلب الاوزان المعروفة اود مجهلا في بعضها البعض ما ولد لديهم محورا جديدة تماما منها المستطيل والمتوافر والممتد والمطرود والمنسرد والممتد ولم يكفهم كل هذا " فلجأوا الى اوزان اخرى حصرها الدمنهورى في سبعة انواع هي : فن السلسلة والدوبيت والقوما والموشح والزجل وكان كان والمواليا . . . (٢)

لكن الذى يهمنى من كل هذا هو هل كان للشعراء الشعبيين دور في هذه المحاولات التطويرية ؟ الجواب هو انهم لهم كل الفضل في ذلك لان التفسير الجوهري في مثل هذه المجالات لا ينتظر ابدا من الشعراء الرسميين لارتباطهم بالسلطة التي من اهم خصائصها المحافظة .

وهنا نريد ان نناقش قضية تبدو متناقضة للوهلة الاولى وهي :
بما ان الشعراء الشعبيين هم الذين حملوا لواء التطور في الاوزان فلماذا لم يسبق اى دليل من شعرهم على ذلك ؟

ان بعض الاشارات المتناثرة هنا وهناك في طيات كتب الشعر والادب تعطينا على ذلك ، فقد كان الرواة لا يهتمون الا بالشعر الرصين الفصيح حسب رأيهم واهملوا ما سواه . وان اخطأ احد هم مرة وذكره فمن اجل التفكه والتندر لا غير . من المؤكد

(١) ابراهيم انيس : موسيقى الشعر ص ٢١١

(٢) محمد نبيه حجاب : معالم الشعر ص ١٢٥

ان الجماهير الواسعة في ذلك العصر كانت تتكلم لغة ليست كاللغة الفصحى التي بقيت من ذلك العصر وان كان فيها كثير من الالفاظ الفصيحة ، وهذا يعني حتما انه كان هناك شعراء يكتبون بتلك اللغة التي تفهمها الجماهير والتي يمكن ان نسميها عامية ذلك العصر ، فاین شعرهم ؟

هل ضاع لانه ضعيف لا يستحق البقاء ام انه كانت هناك ايد تعمل في الخفاء من اجل وادء وطمسه ؟ نرجح الشق الثاني من التساؤل لان كتب الادب واللغة التي وصلت اليها تدل على ذلك فعثلا نجد ان المواليدا كان مشهورا في ذلك الوقت وهو ضرب من الاوزان قريب جدا من الروح الشعبية لان الشعراء قد استخدموا فيه العامية ولان بعض الروايات تقول ان الخليفة هارون الرشيد حين نكسب الهرامكة منع الشعراء من رثائهم باى شعر لكن جارية من جواربهم كانت ترثيهم بهذا الشعر وهي تردد كلمة يا مواليدا ، فسمي بالمواليدا ولانهم ذكروا ايضا ان المعتابي الشاعر قال على وزن المواليدا : (١)

ياسقيا خصني بماتهبوا لاتنزع اقداحي رعاك الله
دعها صرفا فاني امزجها حين اشربها بذكر من اهواء

ولان كتب العروض تستشهد على الوزن المخترع الممتد بقول ابي العتاهية : (٢)

عتب ماللخيال خبريني ومالي لا اراه اتاني زائرا مذ ليالي

وهذا ان دل على شي فانما يدل على ان تلك الضروب من الشعر قد عرفت فعلا في العصر العباسي الاول او على الاقل كانت لها فيه بدايات وارهاسات

(١) محمد نبيه حجاب : معالم الشعر ص ١٢٥

(٢) محمد نبيه حجاب : المرجع نفسه ص ١٢٤

ساعدت على ظهورها جليا فيما بعد لكن ظروف عديدة حالت دون وصول الشواهد
اليها . ونحن نرجح ان السبب هو ان تلك الضروب كانت ذات صلة وثيقة
بالجماهير العريضة في ذلك العصر .

.....

ب - القوافي

=====

القافية هي انتهاء الجملة الموسيقية التي تحمل شحنة عاطفية معينة وقد عرفها الباحثون تعريفات عديدة ومتنوعة منها انها * الوحدة الصوتية التسيي تكرر في اخر كل بيت من القصيدة واليها تنسب القصيدة كلها . . . * (١) فيقال لامية فلان مثلا .

ومثلا جدد العباسيون في الاوزان فانهم قد جددوا في القوافي فتحسروا من الكثير من القيود لان القافية التي وصلت الى ذلك العصر من العهود السابقة لم تعد وحدها كافية للتعبير عن مستحدثات العصر بل ربما كانت تمثل احيانا حاجزا امامهم من الصعب اجتيازه على غير المتعلمين في اللغة منهم . كان لابد من ايجاد قافية تتعدد فيها الحركة للدلالة على حركة الحياة الجديدة السريعة الخطى .

وتجدر الاشارة هنا الى ان بعض الشعراء قد استفادوا مما دخل الى الحضارة العربية من الحضارات والثقافات الاخرى في هذا الشأن من انواع شعرية وطرق لم تكن معروفة ومنها تعدد اشكال القصيدة ، وربما كان بعض الشعراء مازال محافظا على لفظة الاصلية كالفارسية مثلا ورومانظم فيها الشعر وحاول ان يستغل خبرته في شعر لفته الاصلية ليزيده الى الشعر العربي وبذلك يحدث التطور .

ان التجديدات التي احدثوها كثيرة منها المزدوج وهو ما اتفقت عروضه وضربه وهذا نوع انتشر بكثرة وكان للتعليم دور كبير فيه مع العلم ان المزدوج يختلف عن الارجوزة بكون المزدوج ليس من بحر الرجز كما قال ابو العتاهية من

(١) رجاء عيد : الشعر والنغم ، دراسة في موسيقى الشعر ص ٢٨٤

طبع دار الثقافة للطباعة والنشر القاهرة ١٩٧٥ .

بحر السريع : (١)

واوسط واصغر واكبر	لكل شي * معدن وجوهر
مزوجة الصفو بالوان القذى	ما زالت الدنيا لنادار اذى

ومنها المسط وهو عبارة عن قصيدة تدور حول المسط الذي يسمى العمود اى انها تتألف من ادوار يتركب كل منها من اربعة اشطر او اكثر على ان تتفق كلها فـ في القافية ما عدا الشطر الاخير الذى يجب ان يوافق باستمرار قافية المسط او العزود او القافية الثانية التي بدأ بها الشاعر . (٢)

وبقي ان نشير الى ان الشعراء الشعبيين هم اقرب الى هذه التجديدات من الشعراء الرسميين لارتباط الاخيرين بالسلطة التي كانت تشجع الحفاظ على التقاليد الموروثة كما قلنا سابقا بينما الشعراء الشعبيون سريعو التأثر بمختلف التيارات الفكرية والفلسفية والفنية الناتجة عن اختلاط الشعوب والعادات والثقافات الخ . . هذا على الرغم من ان شعرهم لم يصل الينا كله ولكن من المؤكد انهم تأثروا جدا بتلك الافكار التجديدية في ميدان الشعر .

ونقول هنا مثلى الذى قلناه اعلاه من ان الشعراء الشعبيين هم اقرب الى هذه التجديدات على الرغم من ان الشواهد لم تصل اليها لاسباب عديدة .

وهناك تجديد اخر في القوافي اشتهر به ابو العتاهية خالصا لكن بعض الشعراء الاخرين قد استعملوه ايضا وهو النوع الذى يجعل الابهات كلها تتصل فيه اتصالا وتتداخل فيه تداخلا يجعل القصيدة كلها مترابطة متماسكة متمسدا بذلك عن الطريقة القديمة التي كانت تجعل كل بيت مستقلا بحاله في اطار القصيدة

الواحدة وان كان يمثل جزءاً هاماً في بنائها الكلي . ولقد عاب النقاد القدامى هذا الضرب الذي اشتهر به ابو العتاهية لكن ماجدوى كلامهم اذا كانت اسباب الحياة تدعو الى ذلك وتحبذ وهو كقول ابى دلالة : (١)

ووسوسوا بقران في مسامعه مخافة الجن وانه انسان لم يخف
شيئاً ولكنه من حب جارية امسى واصبح موقوفاً على التلف

وكما نلاحظ فان هذين البيتين متصلان بعضهما ببعض اشد الاتصال بحيث انك لو قرأت بيتاً دون ما يتبعه لما فهمت المراد .

وهناك نوع اخر من التجديد تبدو فيه اللفظة بكاملها قافية بحيث تتكرر هذه الكلمة على طول القصيدة ، وهو نوع طريف تتضح فيه الصنعة لانها ضرب من الجناس وسوف نرى ان كل كلمة تحمل معنى جديداً وتضيف ايحاءاً جديداً مثل قصيدة دعبل بن علي في الفضل : (٢)

نصحت فاخلفت النصيحة للفضل	وقلت فسيرت المقالة في الفضل
الا ان في الفضل بن سهل لعبرة	ان اعتبر الفضل بن مروان بالفضل
وفي ابن الربيع الفضل للفضل زاجر	اذا ازدرج الفضل بن مروان بالفضل
وللفضل في الفضل بن يحيى مواعظ	اذا فكر الفضل بن مروان في الفضل
فابق جميلاً من حديث تغرير به	ولاتدع الاحسان والاخذ بالفضل
فانك قد اصبحت للحكم قيماً	وصرت مكان الفضل والفضل والفضل
ولم اراها من الشعر قبلها	جميع قوافيها على الفضل والفضل
وليس لها عيب اذا هي انشدت	سوى ان نصحي الفضل كان من الفضل

(١) الاصفهاني : الاغاني ج ١٠ ص ٢٦٢ (مصورة عن دار الكتب)

(٢) مصطفى الشكعة : الشعر والشعراء في العصر العباسي ص ٣٣٨-٣٣٩

أومثل قول أبي النبهني : (١)

والأيا مالك الناس	وخير الناس للناس
اتنهياني عن الناس	فاغني عن الناس
والأفدع الناس	ودعني أسأل الناس

ومن القوافي المبتكرة تلك التي لا قافية لها وإن كانت تسير كلها على وزن واحد مسن بحور الشعر المعروفة كقول رزين الشاعر المروزي : (٢)

قربوا جمالهم للرحيل	غدوة احبتك الاقربون
خلفوك ثم مضوا مد لجين	منفردا بهمك ماودعوك

وهي محاولة جديدة وإن لم يكتب لها النجاح في ذلك العصر إلا أنها وجدت بعثها في عصرنا هذا في ظاهرة الشعر الحر الذي يلتزم التفعيلة ولا يعطي القافية الواحدة أي اعتبار لاعتماده على الموسيقى الداخلية للاشطر الشعرية .

إن رزينا المروزي لم يبلغ الشكل العام للقصيدة في ذلك العصر فقد بقيت البيت عنده مقسما إلى شطرين متساويين إلا أنه ألغى القافية بمفهومها الشائع في ذلك العصر ولم يبلغ شكلها .

(١) ابن المعتز : طبقات الشعراء ص ١٣١

(٢) مصطفى هداره : اتجاهات الشعر ص ٥٤٢

ج - اللفاظ

=====

ان اللغـة ، اية لغة ، لاتعيش بمنأى عن المجتمع بل هي تتفاعل باستمرار بالمجتمع الذي نشأ فيه ومن هنا نجد ان اللغة العربية في العصر الامـسوى كانت اقرب الى لغة الجاهليين نظرا لبطء حركة التطور في تلك الحقبة — تاريخ العرب ، وهذا لايعني انها بقيت كما كانت من قبل لان التغيير — ولو كان طفيفا — قد حدث فعلا وما علينا الا ان نتذكر اللفاظ الاسلامية (١) اوعبارة اخرى تلك المجموعة الهائلة من اللفاظ التي لها علاقة بمصطلحات الدين الاسلامي الحديث لتعرف مدى التطور الذي طرأ عليها . الا ان العصر الامـسوى صار مع مرور الايام حاجزا امام ذلك التطور لان القائمين على الحكم ارادوا ان يحيوا سنن الماضي وتقاليد مثل العصبية القبلية والسلفية الخ . . . وكان لهذه العملية انعكاس على مختلف مناحي الحياة ومنها اللغة . اما في العصر العباسي فان الامر يختلف . لقد كانت الثورة العباسية — قبل ان تنحرف — ثورة على الظلم والمعاصي والاضطهاد وثورة على كل ماله علاقة بالعهد السابق وحين نقول ثورة على كل ما يذكر بذلك العهد فان اللغة ايضا لكونها تتأثر باحداث المجتمع تدخل ضمن هذا . لم تكن اللغـة اذا بمنأى عن تلك الثورة ، وحين نقول اللغة فنحن نقصد اشكالها ومعانيها معا ان الشكل لايتطور ابدا الا اذا تطـور المحتوى الذي يحمله هذا الشكل ، والعكس صحيح ايضا لان العلاقة بينهما مترابطة . لم يعد معقولا ان تبقى اللغة على حالها بعد ان امتزجت حضارات عديدة مولدة بذلك حضارة جديدة تتفاعل فيها تلك المعطيات الجديدة وتنصر بعضها ببعض لان اللغة هي " الواقع المباشر للفكر " (٢) وهي الصورة الخارجية منه وهي التي

(١) جلال الدين السوطي : الزهر في علوم اللغة وانواعها ج ١ ص ١٧٢ وما بعدها
طبع محمد علي صبيح واولاده بدون تاريخ .

(٢) مجموعة من الاساتذة السوفييت : في المادية الديالكتيكية والمادية التاريخية
٢٣٦ ترجمة خ . الضامن . دار التقدم موسكو ١٩٧٥ م

تنتشره على ابناء جيلها وتنقله الى الاجيال القادمة .

وبسبب ذلك كله ظهرت العاميات في وقت مبكر او بالاصح ظهرت عاميات جديدة لاختلاف المناطق التي كان يسكنها المسلمون العرب والمستعمرون . ونحن نقول هذا لان اللهجات العربية في العصر الجاهلي مثلا ليست سوى صور متعددة للغة العربية تكون في مجملها الفصحى التي نعرفها عن ذلك العصر ، وهذا امر طبيعي لان الظروف التي تتعرض لها الجماعات تختلف باختلاف المناطق ولهذا فلا غرابة ان تختلف بعض الاسماء عند هذه القبيلة او تلك وماشابه ذلك . ويمكننا ان نقول باطمئنان ان العرب على اختلاف عصورهم كانت دائما تربطهم لغة واحدة مشتركة .

اما اذا عدنا الى لغة الشعر الشعبي الذي وصل اليها من العصر العباسي الاول فاننا سوف نلاحظ الامور التالية :

١- سهولة الالفاظ

اول ظاهرة تلقانا في هذا المجال هي ما نسميه مؤقنا بسهولة الالفاظ ، وذلك ان الشعراء الشعبيين قد استعملوا الالفاظ المتداولة بين الناس والتي يسميها احيانا بعض اللغويين القدامى والمحدثين على السواء بالالفاظ المبتذلة ، والسبب في هذه التسمية ان جماعة المؤلفين من نحاة ولغويين وغيرهم - اى الخاصة - هي التي كانت تتمسك بالقديم تمسكا استثنائيا وكانت ترى كل شيء " حديثا خروجيا على القواعد والاعراف فتحط من قيمته لذلك السبب . ومن هنا ايضا جاءت صفة الابتذال التي الصقوها بتلك الالفاظ الشائعة .

وكان جمهور الشعراء في نظرنا على حق في استعمالها لانهم بذلك يعيشون عصرهم حقيقة فيعرفون من انتاجه اللغوى ما يفهم من جميع الناس ولنا فيما حدث

لا ي تمام مثال واضح عند ما دج ابا العميثل - كاتب عبد الله بن طاهر بقصيدة
مطلعها :

اهن عوادى يوسف وصواحيبه

فقال ابو العميثل : لم تقول ما لا يفهم ؟ فكان رد ابي تمام : ولم لا تفهم ما يقال ؟ (١)
فعلى الرغم من ان الناس اولعوا بجواب ابي تمام المفعم الا ان ابا العميثل كان على
صواب لانه ليس من المفروض ان يعرف كل شخص مفردات اللغة ويفهم قديمها وحديثها .
وكانه متخصص فيها .

ان العقلية السائدة في ذلك العصر بين جمهور المؤلفين من لغويين
ونحاة وغيرهم لم تكن شاذة في اطار ذلك العصر لانها تعكس ما يسميه بعض الباحثين
بالنظرية الهرمية في الفكر العربي لكسل (٢) وهي نظرية ترى ان مختلف
المجالات في ذلك الفكر وفي تلك الحضارة على شكل هرم بحيث نجد الخليفة في السلطة
السياسية هو رأس الهرم وقمته وعنه تنحدرج نزولا جميع السلطات الاخرى وكذلك
الجال في الشعر حيث وضع المدح ، الذي هو الغرض المناسب للملوك والباطلات
حسب العقلية القديمة على قمة الهرم وكان غيره من الاغراض تأتي في مرتبة اقل منه .
ونجد الامر نفسه في اللغة والفاظها حيث وضع اللفظ الفصيح الذي يناسب المدح
اي يناسب الخلفاء ومن لف لفهم على رأس ذلك الهرم وتنحدر عنه الالفاظ الاخرى حسب
قيمتها وحسب قرابتها من البلاط وانظفته .

(١) محمد نبيه حجاب : معالم الشعر واعلامه ص ٢٤٧-٢٤٨

(٢) مجموعة من السوفيت : بحوث سوفيتية في الادب العربي ص ١٥ حتى ٤٩

ترجمة خيرى الضامن دار التقدم موسكو ١٩٧٨ م

وكنا سمينا في البداية هذا الطبع من اللغة بسهولة الالفاظ مؤقنا لاننا نراها هي الفصيحة بينما يراها الآخرون غير ذلك . نراها هي الفصيحة ونسميها كذلك لانها تستوفي بعض الشروط قد لانجدها فيما سمي بالفصح (١) فهي اولا شائعة بين الناس وهي ثانية مفهومة من قبلهم وهي ثالثا اقرب الى الروح الشعبية بينما كادت ان تصبح الالفاظ الفصيحة لغة صالونات بمفهوم عصرنا هذا . وما اصدق الجاحظ حين قال وهو الذي عاش ذلك العصر: * كلام الناس في طبقات كما ان الناس انفسهم في طبقات * (٢)

والامثلة على الالفاظ السهلة التي استعملها الشعراء الشعبيون في ذلك العصر كثيرة جدا نذكر منها مايلي : يقال ان امرأة اعترضت المأمون وكان قد غصبها ضيعتها فقالت له : (٣)

لا ايها الملك المرتجى	لريب المنون وصرف الزمن
بحق النبي وحق الوصي	وحق الحسين وحق الحسن
وحق التي غصبت حقها	ووالدها بعد ذما ما اندفن
شفعت اليك باهل الكساء	فان لم تشفع شيخي فمن ؟

وهذا شعر لانجد فيه لفظة غريبة حتى عن عصرنا الحاضر كل ذلك لان الفاظه سهلة بسيطة لم تنحتها صاحبها من صخر ولم تأخذها من قاموس للالفاظ الجاهلية بل استمدتها الشاعرة من واقعها اليومي ومن اللغة التي يتحدث بها البائع الجوال والجرار والفلاح والعامل البسيط في عصرها . ويقول الحمدوني في شاه سعيد : (٤)

-
- (١) جلال الدين السيوطي : المزهري في علوم اللغة وانواعها ج ١ ص ١١١ وما بعدها
 - (٢) الجاحظ : البيان والتبيين ج ١ ص : ٩٠
 - (٣) الراغب الاصبهاني : معاضرات الادباء ج ٢ ص ٤٨٥
 - (٤) سعد شلبي : الشعر العباسي ص ١٤٣

سلبها الضم والعجف	لسعيد شويهة
برء ما بي من الدنف	بأبي من بكفه
وأنته لتعتلف	فأتاها مطمها
تغني من الاسف	فتولس فاقبلت
عذب القلب وانصرف	ليه لم يكن وقف

وهذا ايضا شعرا كلمة وعرة او حوشية فيه ولا لفظ غريبا بين جنباتـــه
بل انه بسيط كبساطة الناس حين يفرحون ويغضبون ويتألمون ويشكون. وهذا
ابو الهول الحميري يغضب لنفسه من بخيل كان مدحه ولم ينل من عطاياه
شيئا فقال فيه (١)

أصبحت محتاجا الى الضرب	في طليبي المعروف من كلب
قد وقع السبله وجهه	فصار لا ينحاش للضرب

ومن سهولة الالفاظ ايضا ما قاله محمد بن امية في شكل حكمة رائعة
تدل على ان الرجل جرب الحياة فاعطانا هذه الابيات الجميلة: (٢)

اقطع الدهر بظن حسن	واجلي كرسبة لاتنجلي
كلما املت وجها صالحا	عرض المكروه دون الامل
وكذا الايام لاتدني الذي	ارتجسي منها وتدني اجلي

وفوق هذا كله فقد استعمل شعراء ذلك العصر العبارات الموهلة في
العامة وكان ذلك الشعر فيه مثل هذه العبارات لم يصل اليها منه الا القليل
القليل كقول الفضل بن هاشم: (٣)

- (١) - ابن المعتز : طبقات الشعراء صفحة ١٤٣
- (٢) - الراغب الاصبهاني : محاضرات الادباء ج ٢ ص : ٤٥٥
- (٣) - ابن الجراح : الورقة ص : ١٢٩

قل لساها ايها الرسول عساها ان ترد وصلنا نعيش بخير
ايش معنى لصوق صدغ بصدغ انما الشأن

نلاحظ اولاً ورود لفظة (ايش) التي هي استعمال شعبي محض لعبارة
(اى شيء) وهذا ناتج عن تطور اللغة عموماً وهذا ما يسمى ايضاً بظاهرة
الاقتصاد اللغوي حيث يلجأ المرء عادة في حديثه اليومي الى اختصار
الالفاظ ودمجها او تبديل الحركات من الصعب الى السهل حتى يبذل أقل
جهد عضلي ممكن دون ان يضر بالمعنى المراد توصيله .

وثانياً نلاحظ عدم احترام قواعد الاعراب حيث جعل الشاعر جواب الشرط
غير مجزئ في الشطر الثاني من البيت الاول (نعيش) .

٢- المعرب والدخيل *

=====

نحن امام عصر تعددت فيه مناهل الثقافة ومشاربها اى تعددت فيهم اللغات واللهجات بتعدد الاجناس الداخلة في الاسلام . وكان امرا طبيعيا ان تأخذ هذه الحضارات بعضها من بعض وان تتأثر كل واحدة منها بغيرها فتأخذ ما تراه مفيدا لها . وكانت اللغة بمفرداتها وتراكيبها هي رقل تلك الخبرات والتجارب من مجتمع الى اخر . وليس هذا دليل ضعف اذا لجأت لغة ما الى مثل هذا الاسلوب في الاخذ ، بل هو رمز قوة بحيث ان لغة ما اذا استطاعت ان تستوعب محتويات لغة اخرى (اى حضارة اخرى) فهذا مؤشر صحة وهذا يعني ايضا انها مقتدرة ومتفتحة بشرط الاتذوب اللغة المستقبلية في الوافدة .

وكانت اللغة العربية منذ عرفناها في العصر الجاهلي تلجأ الى هذا الاسلوب في الاستفادة من غيرها من اللغات ولنا خير دليل في القرآن الكريم الذي وجددت فيه بعض الالفاظ من اصل حبشي او فارسي او رومي الخ . . . وهو ماسي بالمعرب ، شرط ان يخضع لشروط وطرق معينة يتم بها ذلك النقل حتى يتلبس بزى العربية .

لقد ظل الامر على تلك الحال في العصر الجاهلي وجزء كبير من العصر الاموي ، اما في العصر العباسي فقد تغيرت الامور كثيرا . فقد بقيت حركة التعريب مستمرة لكن الذي حدث حينئذ ان وابلا من المصطلحات والالفاظ دخلت العربية نظرا لانفتاحها على اصناف جديدة وخاصة الفرس ، حتى اصبح التعريب المقنن غير كاف ماسمح لعدد من الالفاظ ان تدخل العربية وتبقى على شكلها دون تغيير حتى وان خالفت النطق العربي وهذا في الالفاظ الفارسية بصفة استثنائية لظروف معروفة .

والامثلة على ذلك كثيرة جدا نذكر منها مايلي :

* انظر في باب المعرب : السيوطي : المزهج ١ ص ١٥٩ وما بعدها .

قال اسود بن ابي كريمة : (١)

لزم الغرام ثوبي	بكرة في يوم سبت
فتمايلت عليهم	ميل زنكي بمست
قد حسا الداذى صرفا	او عقارا باهخست
كم كفتهم ذو زيباد	ويحكم ان خر كفت
ان جلدى دمفتسه	اهل صنعا بهفت
وابو عمرة عنسدى	ان كور يذنس
جالس اندر مكنس	ايا عمد بنهشت

وواضح ان هذا الشاعر يعيش ازا واجبة رهبة قد توثرت
على حياته كلها هذا ان لم يكن قاصدا ذلك قصدا .

وقال ابن منذر يعير قاضيا : (٢)

جعل الحكم بالناس من آل طليق
ضحكة يحكم الناس برأى الجاثليق

او كما قال الفضل بن هاشم : (٣)

انا المخبيل صرفا	حماقتي ليس تخفى
فما جلوني بلطم	وشججوا الرأس نقفا
ثم اقصفوا الظهر مني	بالبشتانات قصفا

فالبشتانات ليست عربية على الاطلاق وحتى تركيبها غريب على لغتنا .
لكننا اذا عرفنا ان عددا كبيرا من شعراء العصر العباسي الاول شعبيين ورسميين ،

(١) الجاحظ : البيان والتهيين ج ١ ص : ٩٠

(٢) سعد شلبي : الشعر العباسي ص ١٤٧

(٣) ابن الجراح : نة ص ١٣٠

كانوا من الموالي فان الامر لا يصبح غامضا ولا موجبا للتساؤل ، فهو "لا" الشعراء
لم يستطيعوا ان ينسوا لغاتهم الاصلية زيادة على بعض الامور الاخرى كالشعبوية
التي تفرض عليهم احيانا ان يمزجوا العربية بلغتهم احياء لعاثرهم وحطام مسن
قيمة العربية . لكن المدهش ان يلجأ العرب انفسهم الى استخدام بعض اللفاظ
غير العربية ، وقد تنبه الجاحظ لهذه القضية حين قال : " ... قد يتطرح
الاعرابي بان يدخل في شعره شيئا من كلام الفارسية كقول العماني للرشيد
في قصيدته التي مدحه فيها : (١)

من يلقه من بطل مسرود في زغفة محكمة بالصرود
يجول بين رأسه والكرور *

ان الجاحظ يرى ان هذا من التلح او بعبارة اخرى من عرض العضلات بمعرفة
اللغات لكن الحقيقة ان هذا الاعرابي والاعراب اشد حفاظا على لغتهم لعدم
اختلاطهم بغيرهم من الناس - يعكس الحال التي كان عليها عصره حيث اصبح
للفرس مثلا نفوذ كبير فطغت لغتهم من جديد واللغة تتصرف وفق الجماعة التي
تنتمي اليها .

ويعطينا الجاحظ صورة اخرى من تلك الشعوب التي دخلت الاسلام وتعمقت
العربية بقوله : " وقد يتكلم المغلاق الذي نشأ في سواد الكوفة بالعربية
المعروفة ويكون لفظه متخيرا فاخرا ، ومعناه شريفا كريما ، ويعلم مع ذلك السامع
لكلامه ومخارج حروفه انه نهطي وكذلك اذا تكلم الخراساني على هذه الصفة فانك
تعلم مع اعرابه وتخبر الفاظه في مخرج كلامه انه خراساني وكذلك ان كان من كتاب
الاهواز ... (٢)

(١) الجاحظ : البيان والتبيين ج ١ ص : ٨٩

* الكرور : اي العنق .

(٢) الجاحظ البيان والتبيين ج ١ ص ٥١

وقد اشار الجاحظ هنا الى قضية اللكنات التي تبقى لدى الفرد حين يتعلم لغة جديدة لان من الصعب ان يتعلم الانسان خصائص لغة ما الا بعد طول مدة ومراس ، فسيما تعمق المرء في قواعد تلك اللغة وظواهرها ، فان لكنته الاصلية او بالاصح لغته الاصلية تبقى مسيطرة ~~في~~ في خارج بعض الحروف مثلا . ولكن الذي يهمنا هوان هذه اللكنة اذا كانت بكثرة ورددها قوم عديدون فانهم قد توتر في اللغة التي يستعملونها اى قد توتر في العربية وهذا ما حدث فعلا ومنه ما بقي حتى في عصرنا هذا فاننا نجد مجموعة قليلة من الناس هي التي تستطيع وحدها ان تفرق عمليا بين حرفي الصاد والظاء .

وهذا الاختلاف مع هذه اللكنات من الاسباب المكونة للعاميات ، وما كلام الجاحظ سوى دليل على وجود تلك اللهجات ، فالغفلاق الذي تحدث عنه قد يلجأ حين يخونه مخزونه اللغوي العربي الى مخزون لغته الاصلية فيستعمله محاولا الياسه بلبوس عربي ، ومع التكرار وتداول الناس له يدخل ذلك اللفظ في العربية .

+++++

٣ - المصطلحات

=====

نشأ كثير من العلوم في صدر الاسلام وتواصل البحث فيها على امتداد العصر الاموي ، وكان للدين الاسلامي الاثر الكبير في نشوئها ، فقد كان من الضروري نشر الدين الجديد وتعليم تعاليمه وتحفيظ القرآن للداخلين في الاسلام من غير العرب وهذا من الاسباب التي اضطرتهم الى ايجاد النحو والصرف وعلوم اللغفة المختلفة زيادة على الامور التي تهم الدين مباشرة كالغقه والتفسير وماشابه ذلك لان انتشار الاسلام في اقاليم عديدة لاتعرف العربية جعل امرا كهذا حتميا .

وجاء العصر العباسي فازدهرت تلك العلوم ازدهارا عظيما كما ظهرت الى الوجود علوم اخرى نتيجة التطور الهائل ونتيجة الترجمة والاحتكاك بشعوب اخرى .

وقد كانت حركة الترجمة حثيثة الخطى في مجالات عدة كالغلسفة والطب والهندسة والزراعة وغيرها ولاضر ان نذكر ان بضعة مئات من الكتب قد نقلت الى العربية منها* ثمانية في الغلسفة والادب لافلاطون و ١٩ كتابا في الغلسفة والمنطق والادب لارسطو وعشرة كتب في الطب لابقراط وثمانية واربعون في الطب لجالينوس وبضعة وعشرون كتابا في الرياضيات والنجوم لاقليدس وارخميدس وابو لونيوس وسالاس وبطليموس . . . وغيرهم . . . * (١)

واما المنقولات الاخرى فمنها نحو* عشرين كتابا نقلت عن الفارسية فسي التاريخ والادب ، ونحو ثلاثين كتابا من اللغة السنسكريتية واكثرها في الرياضيات والطب والنجوم والادب ، ونحو عشرين كتابا عن السريانية والنبطية واكثرها فسي السحر والطلسمات الا كتاب الفلاحه النبطية وهناك بضعة كتب نقلت عن اللاتينية والعبرانية . . . * (٢)

(١) جرجي زيدان : تاريخ اداب اللغة العربية ج ٢ ص ٣٥

طبعة دار الهلال ، بدون تاخي .

والذي حدث فوق هذا كله ان هذه المعارف وجدت طريقها الى الجماهير العريضة لان طريقة التدريس المتبعة في ذلك الوقت في المساجد تسج لكل من اراد ان يتعلم ان يحصل ما يريد بحيث لم تعد هذه المعارف حكرا على المتخصصين في ذلك العصر بدليل ان بعض الشعراء ، شعبيين كانوا ام رسميين ، كانوا يستعملون مصطلحات تلك العلوم في شعرهم وهذا يدل من جهة اخرى على شيوع تلك العلوم بين الناس .

ومن امثله استعمالهم لتلك المصطلحات قول الخريبي متأثرا بالفلسفة وعام الكلام : (١)

اذا مامات بعضك فابك بعضا فبعض الشيء من بعض قريب

لفظة (بعض) هذه قد اتخذت مدلولاً جديداً في ذلك العصر وهو فلسفي كما هو واضح .

ولذا فان هذا الشاعر قد تأثر بتلك المدارس الفلسفية والفكرية التي كانت موجودة في عصره وما اكثرها وكذلك فعل غيره من الشعراء وليس في هذا عيب ابداً لان تلك المدارس ساعدت على تطور اللغة في معانيها ومدلولاتها .

ويقول ابو الشمقق ايضا متأثرا بتلك المعارف واصفا البرغوث : (٢)

يا طول يومي وطول ليلته فليهن برغوشه بجلده
قد عقدت بندها على جسدي واجتهدت في اقتسام جلته

فلا جتهاد معروفه هو احد ، عناصر التشريع في الاسلام والجملة هنا مصطلح فلسفي اي الكل .

(١) الثعالبي : خاص الخاص ص ١١٣ تقديم حسن الامين طبع مكتبة الحياة

بيروت ١٩٦٦

(٢) الراغب الاصبهاني : محاضرات الانباء م ٢ ج ٤ ص ٦٨٢

وقال احمد بن يوسف واصفا غلامه بعبارات يبدو فيها التأثر بالهندسة واضحا
جدا وذلك بقوله (١) :

ولي غلام طال دقة	كخط اقليدس لا عرض له .
وقد تناهى عقله خفة	فسار كالنقطة لا جزء له

وتكفيها هذه الامثلة لناخذ فكرة عن تداخل العلوم وتأثيرها على الناس .

(١) سعد شلبي : الشعر العباسي ، التيار الشعبي ص ١٥١

د - في ثنايا الشعر

=====

هناك جملة من الامور كان الشعراء يلجؤون اليها من حين لآخر كالاقتباس
والمحسنات اللفظية والصور الشعرية والمبالغة والصدق في التعبير ، والحقيقة
انهم لم يكن لهم خيار في اللجوء الى هذا اوزاك من هذه الامور بل ان المواقف
التي يتناولونها شعرا هي التي تفرض عليهم سلوكا معيناً وسوف نعرضها الان واحدا
فواحدا .

١- الاقتباس

لجأ الشعراء في كثير من الاحيان الى الاقتباس من التراث الموجود لديهم
من قران وحديث وشعر وامثال وخرافات واعتقادات حسب ما يتطلب منهم الموقف
الشعري بحيث يصبح لشعرهم عادة صبغة من الحكمة والجد ، معتبرين بالماضي
وتجاربه اضافة الى طابع الاخلاق الذي يهيمن على مثل هذا الشعر .

والاقتباس امر مشروع وليس سرقة ، ليس في الشعر فحسب بل في جميع مجالات
الحياة لان تطور الانسانية على مر العصور يتم بطريقة حلزونية اي ليس متجهاً
دائماً نحو الامام كالسهم او نحو الوراء كالصخر النازل من عل بل ان الانسانية تبدو
وكانها تخطو خطوة الى الوراء وخطوات عديدة الى الامام حتى يبقى هذا الرباط
المتين بين الانسان واخيه الانسان في مختلف العصور وتبدو تلك الخطوة التي
تقوم بها الانسانية الى الوراء كنوثة جديد واخذ للنفس حتى تقفز الى الامام
تلك الخطوات التي يجب ان تسيرها .

وفي هذا الاطار يمكن ان نفهم فلسفة الاقتباس في الشعر وفي غيره . وهناك
امثلة كثيرة لدى الشعراء الشعبيين في هذا المجال منها قول اسماعيل القراطيسي (١) :

(١) نبيه حجاب : معالم الشعر واعلامه ص ١٢٠

الاقبل للذي لم يهده الله الى رفســـــــــــــــــع
لئن اخطأت في مدحيك اخطأت في منعي
لقد انزلت حاجاتي بوان غير ذي زرع^(١)

واثر القرآن الكريم واضح في هذه الابيات .

وقول عبد الله بن المبارك : (١)

ارى اناسا يادنى الدين قد قنعوا ولا اراهم رضوا بالعيش بالدون
فاستغن بالدين عن دنيا الملوك كما استغنى الملوك بدنياهم عن الدين
وهذا القول مأخوذ من كلام المسيح عليه السلام : " كاترك لكم الملوك الحكمــــــــــــــــة
فاتركوا لهم الدنيا . . . "

اما دعل بن علي فيقول : (٢)

وكان كالكلب ضراء مكلبه لهيده فعدا يصطاد كلابه

وهذا مأخوذ من المثل القائل : " انا اجره الدالمحارب وهو يجرنى الى الخراب " .
واما ابو الجهم احمد بن يوسف فيقول في محمد بن حماد مستنبطا كلامه ———
الامثال : (٣)

كان فبان والرزايا قمن بان تسوء من تراخي اجله
فهبي كما ارسل حي مثلا مالك من شنجك الا عمله .

وهو غني عن التعليق .

(١) ابن الجراح : الورقة ص ١٥

(٢) الثعالبي : خاص الخاص ص ٢٥

(٣) ابن الجراح : المصدر السابق ص ١٣٢

(٤) سورة ابراهيم آية (٧٥)

٢ - المحسنات اللفظية

=====

لقد بدأ الاهتمام باللفظ وتحسينه منذ مدة لا بأس بها قبل العصر الذي نتناوله بل منذ العصر الجاهلي فما مدرسة زهير بن أبي سلمى إلا اتجاه من تلك الاتجاهات التي تهتم بمقل القصائد وتجويد ما أي تهتم بالالفاظ في اطار القصيدة العام ، لكن هذا الاهتمام لم يكن هدفا بعد ذاته وكثيرا ما كانت الصنعة بسيطة ، يأتي أغلبها عفو الخاطر . وإذا تقدنا قليلا في عصور الادب نجد ذلك الاهتمام يتزايد حتى يصبح في النهاية غاية خاصة تؤلف الاشعار لابرارها وحدها دون الاهتمام بضمون تلك الاشعار .

ونجد في العصر العباسي الاول بعض معالم تلك الصنعة تبرز لدى شعراء كصريح الغواني ، مسلم بن الوليد ، وهو مثل واضح على بروزها ثم يتابع المسيرة بعده ابو تمام والبحثري ، حتى يتفاقم امرها في عهد الدول المتتابعة .

لكن الذي يهمننا من هذا كله هو ان نبحث عن المحسنات اللفظية عند الشعراء الشعبيين وهل اهتموا بها مثلما فعل الشعراء الرسميون ام لا ؟ الحقيقة انه لا بد ان يكونوا قد اهتموا بها في اطار التأثير والتأثر بين الاتجاهين الرسميين والشعبي ولان كثيرا من الشعراء كانوا يختلفون الى هذين الاتجاهين . لم تكن الصلة معدومة بينهم ابدا ويكفي ان نتذكر ابا العتاهية الذي كان وسطا بين الاتجاهين فلا يجوز اطلاقا ان نحسبه على الاتجاه الرسمي كما لا يجوز ان نحسبه على الاتجاه الشعبي وحده .

وفي هذا المجال فان هناك قصيدة فريدة من نوعها قبل هوالة الاعلام جميعا وهي فريدة لانها غريبة فعلا على عصرها حيث نظمها شاعر مخضرم بين الدولتين الاموية والعباسية وهو ابن هرمة القرشي . وهي غريبة لانها تعتبر بحق بداية الصنعة الشكلية ، اذ عمد فيها ابن هرمة الى عدم اعجازها

كلها بحيث لا يوجد فيها حرف معجم الا تاء التانيث وهي : (١)

ارسم سودة محل دارس الطفل	معطل رده الاحوال كالحل
لما رأى اهلها سدوا مطالعها	رام الصدود وعاد الرد كالمهل
وعاد ودك داء لا دواء لـ	ولو دعاك طوال الدهر للرحل
ما وصل سودة الا وصل صارمة	احلها الدهر دارا مأكّل الوعل
وعاد امواها سدا وطار لها	سهم دعا اهلها للصرم والمعل
صدوا وصد وساء المرء صدهم	وحام للورد ردها حومة العلل
وحلوه رداها ما وءى عسل	ماما رده لعمر الله كالعسل
دعا الحنام حماما سد سمعه	لما دعاه رآه طاح الامسل
طوح سارحة حوم ملمعة	ومرع السر سهل ماكد السهل
وحاولوا رد امر لامر لـ	والصرح داء لاهل اللوعة الوصل
احلك الله اعلى كل مكرمة	والله اعطاك اعلى صالح العمل
سهل وارده سمح مواعده	مسود لكرام سادة حمسل

وبين ان هذه القصيدة لم تأت عفوا لظن لان معالم الصنعة فيها واضحة لاحتياج الى دلالة عليها ان لا يعقل ان تأتى قصيدة بكاملها على هذا النحو عفوا .

ان هذه القصيدة التي قبلت في وقت مبكر بالنسبة لعصرنا العباسي تحاول ان تبين تلك الازدواجية التي كان يحياها الناس بين تراث ما زال ماثلا وبين نزوع نحو المستقبل الذي يحمل في طياته بوادر التغيير . انها تعبر عن ان المرء بدأوا يخرجون من الاطار الضيق الذي كانت تحد هم به جزيرتهم بالرغم من فساحتها .

وانا سرنا قليلا في العصر العباسي نجد هذا التيار ، تيار التجديد ، يتضح

(١) الاصبهاني : الاغاني ج ٤ ص ٣٧٨ - ٣٧٩ (مصورة عن دار الكتب) .

أكثر فأكثر ولا داعي لذكر تلك الأمور التي اهتم بها علماء اللغة كثيرا والتي تدل على هذا التجديد في الشعر الرسمي خاصة غير أن هذه الأمور لم تأت من عدم ولم تكن غريبة على الشعر العربي كل الغرابة ، والتشبيه والجناس والطباق وماشابه ذلك كانت موجودة كلها من قبل في الشعر الجاهلي لكنها كانت تأتي عفوا الخاطر كما قلنا . أما في العصر العباسي فقد حدث أن اهتم بها الشعراء اهتماما خاصا وليس ذلك لابرار مقدرتهم فقط بل هو امر فرضته المرحلة التي كانوا يهرون بها .

وقد يتساءل بعض الناس لم حدث ذلك في ذلك العصر بالذات ؟ ربما يسرد على هذا السؤال بان ازدهار المجتمع وتنوع الثقافات هو السبب ، وهذا صحيح غير انه لا يكفي لاننا نجد هذه الظاهرة تستفعل فيما بعد عندما ينحط ذلك المجتمع سياسيا واقتصاديا . ويبدو ان المجتمعات ، في عهد ركودها وانحطاطها تهتم بالشكل اكثر من المضمون وهذا ما حدث فعلا فيما يسمى بعصر الانحطاط . ومن هنا نعرف لك الولع بالبحث عن الالفاظ المبتكرة والصور المستحدثة والبراعات اللغوية . ويمكن ان يكون ذلك الولع ناتجا عن تأثر العرب وشعراء ذلك العصر عموما بالزخرفة الغنية الموجودة في انماط الشعر الفارسي .

أما في العصر العباسي الاول خاصة فان الشعر اتضح مليا بعد ان كان متشبها بالموروث القديم واصبح خالصا لعصره في الاغلب الا ان فبدأت مفارقة كبيرة هدفها البحث عن معان تلائم هذا العصر وبدأ السعي الحثيث وراء الصور الطريفة التي تدل على حضارتهم الزاهية ومفاهيمها المستجدة ، فقد صار العصر العباسي كما كان العصر الجاهلي من قبل عصر ابتكار في الاساليب الشعرية المختلفة .

.....

ما ان رأيت ولا سمعت بمثلها فيما مضى من سالف الاحقاب
من فعل تلج جثته يخيـطـلي ثوبا فخرقه كفعل مصـاب
فعلته بهراوة كانت معـي ضربا فولى هاربا بالـباب
ايشق ثوبي ثم يقعد آنـسا كلا ومنزل سورة الاحزاب

ان هذا الاعرابي جاد عليه الزمن فاستطاع ان يحصل على قطعة من الثياب واراد ان يخيـط بها ثوبا لكن الخياط خرقها وافسدها ، وامر كهذا جدير باغضاب الاعرابي لانه من النادر ان يحصل على مثل هذه الامور .
انها صورة الفقر تتكرر مرة اخرى . الفقر الذى يجعل لمثل هذه الاشياء قيمة خاصة في نفوس اصحابها .

وصورة الفقر هذه تتكرر باشكال مختلفة كاختلاف مظاهرها من ذلك ما قاله ابو فرعون الساسي واصفا احد البخلاء ، وللبيخل علاقة وطيدة بالفقر : (١)

هذا زمان عارم من ييسه ترى اللثيم ينتقي من جنسه
يصبح من صبيانه وعرسه مستأثرا بخبزه ودبسه

لان سعادة الانسان كانت دائما في ان يجلب القوت لعياله فاذا خالف احد هـم هذه القاعدة عد ذلك من اعظم الشائعات .

وكما رأينا من قبل صورة ذلك الخياط الذى افسد ثوب الشاعر فاننا سنـوف نجد ان الشعراء الشعبيين تناولوا الحرف في شعرهم لالتصاقها بالطبقات المحرومة لان الاغنياء كانوا يعدونها امرا مهينا ، وتناول الشعراء لهذه الصور يتخذ اشكالا مختلفة نذكر على بعضها بالحلق وكيف ينظر اليه الشاعر الشعبي وذلك في قول عتبة الاعور لابراهيم بن سيابة الذى كان ابوه حجاما : (٢)

(١) ابن الجراح : الورقة : ص ٥٧

(٢) ابن المعتز : طبقات الشعراء ص ٩٣

ابوك اوهى النجار عاتقه
كم من كمي ادمى ومن بطسل
ياخذ من ماله ومن دمه
لم يمس من ثاره على وجل
ذلت رقاب الملوك خاضعة
من بين حافله ومتعسل

ان الشاعر هنا يسخر من الحلاق لكنه يود من ان يدري، اشارة الى ان الحلاق ملتصق بالناس وان مهنته شعبية بالدرجة الاولى .

ان حياة اولئك البسطاء تزخر بالمشاكل والامال والاعتقادات ولقد استطاع ابونواس ، الشاعر الرسمي ، ان ينقل لنا صورة شعبية صادقة وذلك بقوله لاحد الناس هاجيا : (١)

ياغراب البيـن في الشؤم وميزاب الجنابـه
ياكنايا بطـلاق
ياغزاة بمصابـه
يامثالا من هموم
ياتياريح كآبـه
يارغيفا رده البقال ببسا وصلابـه

انها حقا مجموعة من الامور التي تجلب الغم للانسان البسيط فغراب البيـن طائر اعتقد الناس انه مفرق الاحباء وهذا ناتج عن طيرة موروثة عن العصور السابقة وربما كان لشكل الغراب ولونه وصوته دور في هذا الاعتقاد؛ وكذلك ميزاب الجنابـه امر يتحسس منه الانسان البسيط الذي يكون الدين عنده عادة قويا؛ وكذلك كـتاب الطلاق الذي هو مصيبة عظيمة بالنسبة للمرأة البسيطة في ذلك العصر لانها تفقد بيتا ومعيلها ولان وجودها في بيت ابوها سوف يسبب لها المشاكل الكثيرة لكونها فردا غير منتج بل مستهلك فقط . والرغيف كان اكبر مصائبهم على الاطلاق في جميع حالاته .

(١) مصطفى هدارة : اتجاهات الشعر ص : ١٩١

وهذا يجرنا الى صورة اخرى ذات علاقة بما سبق وهي من صميم الحياة الشعبية واليومية لاولئك الناس ، فقد ذكر الاصمعي انه كان على بعض الاعراب * دين ثقيل فتعلق به غراموه وكان معدما ، فساموه ان يحلف لهم بالطلاق الا يهرب ، فحلف لهم بطلاق امرأتين كانتا له ، ثم هرب وانشأ يقول : (١)

لو يعلم الغرما ماقتني لهم	ماحلفوني بالطلاق العاجل
قدلتا وطلت من وجهيهما	عجفا مرصعة واخرى حاسل

ان هذا الشاعر مطارد من قبل غرمائه وحين لم يستطيعوا ان يأخذوا مالهم من عنده حلفوه بالطلاق فصادف ان كان هوايضا يرغب في ذلك ، وبغض النظر عن السخرية الموجودة في هذه القصة التي ذكرها الاصمعي - كعادته - فان الجانب الثاني فيها هو الذي يبهنا وهوتكوين الاسرة في ذلك العصر وتركيبها مع وجود الغرما ، ونحن نشم في هذا الشعر رائحة سياسية وان كانت مغطاة بصفة اجتماعية واقتصادية وهذا ما يجعلنا نستشهد بقول شاعر اخر في وزير : (٢)

ومظهر نسك ما عليه ضميره	يحب الهدايا بالرجال مكور
إخال به جينا وبخلا وشية	تخبر عنه انه لوزير

وهذا القول تعبير عن رأي الناس في الاوضاع السياسية والاقتصادية في ذلك الوقت فهو يرى مع الناس ان حكام ذلك العصر جشعون مرتاشون ، يتلاعبون بأرواح الناس زيادة على إخلهم الفاحش وجبنهم المشين . وفوق هذا كله كانوا يحاولون الظهور بمظهر النساك امام الناس لكن سيماهم على وجوههم فهم اينما ذهبوا تخبر عنهم انهم حكام .

١ - الراغب الاصبهاني : محاضرات الادباء ج ٢ ص ٤٨٥

٢ - ابن طيفور : بغداد في تاريخ الخلافة العباسية ص ٨٧ مطبعة مكتبة المثنى

بغداد ومكتبة المعارف ببيروت طبعة اولى ١٩٦٨ م

وخلاصة القول ان الصور التي استعملها اولئك الشعراء الشعبيون
في شعرهم كانت مستمدة من واقعهم الاجتماعي والسياسي والاقتصادي وهي كثيرة
جدا ولذا نكتفي بما ذكرنا .

.....
.....
.....

٤- المبالغة

=====

كانت المبالغة مظهرا من المظاهر المستمرة في الشعر العربي على امتداد عصوره لانها خاصية من خصائص الشعر وهي مقبولة في الشعر وغير مقبولة في سواء من الامور . ان المبالغة وليدة الخيال والشعر يحتاج الى الخيال دائما ولذا كانت المبالغة مرتبطة بالشعر فهي اذاً نوع من الصنعة فيه لاتأتي عفوية الا نادرا لانها تحتاج الى اعمال للفكر الذي يفوض وراء المعاني ويجرى خلفها ليكشف عنها الغطاء اينما كانت . ان المبالغة مرتبطة ايضا بالصورة الشعرية بل لانكار نجد المبالغة الا مع الصورة الشعرية .

انها وسيلة من الوسائل التي يلجأ اليها الشاعر ليؤثر في مستمعيه وايستدري انتباه المتلقي ويشده اليه فيتذوقها اولا لما فيها من خروج على ما ألف في حياته اليومية ويتأثر بها ثانيا . قلنا ان دور الخيال في المبالغة واضح جدا لكنها يجب الاتصال الى حد الاغراب الذي تندثر معه المعاني المطلوب اتصالها .

وقد لجأ شعراؤنا الشعبيون الى هذه الوسيلة والامثلة على ذلك كثيرة جدا نذكر منها ان احدهم تهكم على شخص فقير فرثاء برثائه الحال قائلا : (١)

يا أتيك في جبة مخرقة	اطول اعمار مثلها يوم
وطيلسان كالآل يلبسه	على قميص كأنه غيـم

المبالغة هنا واضحة جدا وهي لايشترط فيها ان تكون مطابقة للواقع والا لما سميت مبالغة . انها صورة جذابة فيها تشبيهات موفقة تجعل الانسان المستمع يرقى الى عوالم يتعدهم فيها المنطق ويزدهر فيها الخيال لان المهم فيها هو

(١) المبرد : الكامل في اللغة والادب ، طبع مكتبة المعارف ، بدون تاريخ ، ج ٢ ص ١١٥

التأثير الفني الذي لا يحتاج التحليلات منطقية وتبريرات علمية لانها موجهة بالدرجة الاولى الى الذوق .

ويقول ابو الشمق في زيد بن عماره ، صاحب بريد الاهواز ، والذي كان اعرج وكانت ساقه شديدة الاعوجاج : (١)

رجل زيد بن عماره مثل مفتاح مناره

ان هذا البيت يذكرنا بما قلناه سابقا من ان الشاعر الشعبي محكوم عليه ان يستلهم فنه من محيطه اى من حياة الجماهير التي هوفرد منها ، ولذا فان المبالغات التي يلجأ اليها هؤلاء الشعراء مهما بلغت من الغرابة فانها ستبقى دائما مرتبطة بالجماهير فزيد بن عماره هذا الذي يشبه ابو الشمق ساقه بمفتاح منارة لم يعد وضعه غريبا اذا ما عرفنا قيمة المنارة بالنسبة للمسلمين فهي مرتبطة اولا بهذا المكان المقدس الذي هو المسجد وهي ايضا تمثل عظمة المسجد من حيث بناؤه فهو عادة بناء كبير شاهق واعلى مافيه المنارة وهذه المنارة التي تبلغ ارتفاع هذا العلوكه لابد لها من مفتاح عظيم والمفتاح عادة معدب ذو اسنان وهكذا تهدو رجل زيد بن عماره للشاعر .

ويقول جحظة البرمكي في احد البخلاء : (٢)

لا تمذلوني ان هجرت طعامه خوفا على نفسي من المأكول
فمتى اكلت قتلته من بخلسته ومتى قتلته قتلته بالمقتول

انها حقا مبالغة جميلة وظرفية ، وهذا النوع هو الذي اشتهر به الشعراء الشعبيون عموما لانه يحمل طابع النكتة البسيطة التي تضحك لها الجماهير ولانها تحمل فوق هذا كله محتوى ومضمونا قريبا من همومهم ومشاكلهم .

(١) الجاحظ : البرصان والعميان والعرجان والحولان ص ٢٣١

تحقيق فوزى عطوى - دار صعب بيروت ١٩٦٨

(٢) سعد شلبي : الشعر العباسي ، التيار الشعبي ص ٥٤

انها صورة البخل تتكرر باشكال عديدة اولنقل انها صورة الفقر وماقاربه من امور اونتج عنه . وانها فعلا لملاحظة جديدة بالذكر ان الشعراء الشعبيين يبدعون كلما عاجوا القضايا الاقتصادية التي يعانون منها .

وبالمقارنة بهذه المبالغة الجميلة فاننا نلاحظ السخف الذي وقع فيه الشعراء الرسميون او الشعراء عندما يتناولون موضوعا رسميا مثل قول الهنازي عندما مدح احد الخلفاء قائلا (١) :

ان السيوف اذا انتضاها سخطه طالت وقصُرَ ونهد الاعمار
ملك كأن الموت يتبع امسره حتى يقال : تطيعه الاقدار

لا احد يستطيع ان ينكر البراعة الفنية في هذا القول الا ان الذوق ينج مثل هذه الامور لانها تعتمد على التحليلات المنطقية والعقلية وهذا يفسد من فنية الشعر، وهنا نجد راحة الاشارة الى ان هناك فرقا بين المبالغة والمغالاة او الغلو فهذا القول الاخير واضح فيه الغلو والاصطناع لان الشاعر لم يكن صادقا مع نفسه في قوله هذا . وبقي ان نقول ان هذا الكلام يذكرنا بقرعة ابن هاني * الاندلسي حين قال :

ما شئت لا ماشاءت الاقدار فاحكم فانت الواحد القهار

والتأثر بهنازي واضح في هذا القول .

هـ - الصدق في التبيين

=====

ان الواقعية في شعر اولئك الشعراء تتمثل في مجموعة من الاور منها وصفهم لما يحيط بهم من مشاكل وهموم وظواهر وغيرها ومنها ذلك الصدق الذي نلمسه في شعرهم حيث لا مكان فيه لنفاق او تدليس او تزلف . ولعلنا نذكر انهم حتى عندما اضطرتهم الحاجة الى التسول ومد الايدي ، وذلك بمدح الاغنياء ، لم ينحرفوا ابدا عن صدق مشاعرهم .

ويمكن ان ندرك صدقهم جليا من الامثلة التي سنذكرها فيما يلي فسي وصف احوالهم من حب وفراق ووصف للفقر ومدح وهجاء ورثاء الخ

يقول عبد الصمد بن المعذل في حبيب هجره : (١)

صرفت هواك فانصرفا	ولم ترع الذي سلفا
ونبت فلم امت كلفا	عليك ولم تمت اسفا
كلانا واجد في النسا	س من مله خلفا

لقد خالت عاطفة الحب عند شعراء العرب حظوة كبيرة سواء اكانوا شعبيين ام رسميين حتى غدا الحديث عنها يتبع تقاليد معينة ورثوها عن عصر. لكننا من النادر ان نجد شاعرا في مثل صراحة عبد الصمد الذي خالف ذلك العرف وذكر ما كان غيره من الشعراء يترددون في ذكره وان الناس ، لكونهم سبب كسل الادواغفهم ايضا الدواء لها .

واذا انتقلنا الى نقى هذه العاطفة ، اى الى الكره فان شاعرا كمحمد بن ابي امية كان يعقت الرقاش ويغضه فصف ان اجتمع الرجلان في مجلس واحد فقال محمد : (٢)

- (١) عبد الصمد بن المعذل : شعره ص ٤٥
- (٢) الجاحظ : البيان والتبيين جزء ١ ص ٤٠٤

شهدت الرقاشي في مجلس
فقال : اقترح يا ابا جعفر
وكان الي بغيضا مقيتا
فقلت : اقترحت عليك السكوتا

اذا انهم لا يذرون شيئا في صدقهم لانهم اشتهروا بتلك الصراحة المعهودة فيهم
حتى وان تجاوزوا احيانا حد اللياقة والادب . انهم يطبقون المثل القائل : قل
الحق ولو كان مرا .

اما اذا انتقلنا الى لغز الالغاز ، الموت ، فاننا نجد شاعرا كابن يسير يبرتي صديقه
داود بمابلي : (١)

ثوب الدجى فهو في الارض مدود	زل والارض قد غشى وحللها
وكل فرج به في الارض مسدود	وسد كل فروج الارض منطبقا
دون المسير وباب الدار موصود	وفي الوداع وفي الابداع لي عنت
من لي بدادود في ذا الحال يرشدني	من لي بدادود ؟ لهفي اين داود ؟
قدام رجلي فتلقاها الجلاميد	لهفي على رجله الاقدمها
حرف وجرف ودكان واخمدود	ان لازلت ان اقبلت ينكبني
اونكتة من سواد الليل اوعود	فان تكن شوكة كانت تحل به

لا احد يستطيع ان ينكر العاطفة الجياشة التي ولدت هذه القصيدة ولا احد
يستطيع ان يقول ان هذا الشاعر كان مختصعا لان الحرارة النبعثة منها تنفسي
ذلك وتؤكد ان الشاعر كان يتألم لفقد صديقه داود .

فأي صراحة وأي صدق بعد هذا القول نريد ؟ ان ابن يسير ييكسي
داود بعد موته لانه كان في حياته رادا عنه المصائب وحاميا له من عثرات الطريق،
فالشاعر كان سكيما يقضي في الخانات وقتا طويلا حتى يتأخر الليل فلم يكن يجسد
من يسنده او يده له الا داود هذا على ان يتقدم داود ليجنب ابن يسير الحفر والصخور

(١) الاصفهاني : الاغاني ج ١٤ ص ٢٩-٣٠ (مصورة عن دار الكتب)

وماشابه ذلك . نلاحظ ان الشاعر لم يخجل ما كان يفعل بصديقه فهو يرى فـي ذلك نوعا من ضريبة الصداقة وعلى هذا الاساس فان الخجل يكون حين يقوم المرء بفعل ما ثم يذكر عكسه ولهذا كان لابي المخفف ، عاذرين شاكر ، دفتر يسجل فيه اسم كل من له عليه وظيفة ، وكان على الدفتر هذه الابيات : (١)

دفتر فيه اسامي كل قرم وهمام
وكرم يظهر البشر لنا عند السلام
يوجب النصف عليه حاتما في كل عام
او فلوسا كل شهر لثلاثين تمام

وهذا الدفتر يعكس موقف الشاعر من الناس وموقفهم منه بدون حرج فهو يذكر علاقاته بهم بكل وضوح فان اكرموا مدحهم وان خذلوه هجاهم .

ويتجلى صدقهم هذا ايضا في انهم كانوا يصفون حياتهم كما هي بخيرها وبشرها ، ولم يكونوا يظهر من حياتهم ذلك الجانب المشرق فقط ، بل انهم كانوا ايضا يذكرون في شعرهم حتى تلك الجوانب السيئة فيهم فمن ذلك قول احمد الطفيليين : (٢)

كل يوم ادور في عرصة الحي اشم القطار شم الذئاب
فاذا مارايت اثار عرس اوختان او مجمع الاصحاب
لم اروع دون التقم لار هب دفعا ولا لكزة البواب
مستهينا بما هجمت عليه غير مستأذن ولا هباب
فتراني الف بالرغم منهم كل ما قدموه لف العقاب
ذاك ادنى الي من التكلف والغرم وغيظ البقال والقصاب

(١) ابن الجراح : الورقة ص ١٢٤

(٢) الشريف المرتضى : امالي المرتضى ج ١ ص ٥٠١

ان هذا الشاعر يصف اقتحامه ابواب الناس دون خجل او مواراة لان الفقر دفع به الى ذلك ، والفقر ليس عيبا عنده .

كان الشاعر الشعبي يحسن ان وضعه التعسر لم يكن شيئا مختارا بل ان ظروفه معينة هي التي فرضت عليه ذلك الوضع ولذا فانه لم يكن يتخرج من التعبير عن نفسه بمختلف الوسائل فمن ذلك قول جحظة الهرمكي يصف فقره : (١)

والحمد لله ليس لي كاتب	ولا على باب منزلي حاجب
ولا حمار اذا عزمت على	ركوبه قيل : جحظة راكب
ولا قميص يكون لي بدلا	مخافة من قميصي اذا هب
واجرة البيت فهي مقرحة	اجفان عيني بالوابل الساكب
ان زارني صاحب عزمت على	بيع الكتاب لشبعة الصاحب

وبالرغم من فداحة واقع جحظة فاننا نلاحظ صدقه وصراحته في وصف حاله بيد ان بعض الناس كان ربما استحي لوشابه وضعه هذا الشاعر .

ان الشاعر الشعبي يتجلى صدقه ايضا في حبه للناس والخير ، ولذا نجده يركز كذلك على العلاقات الانسانية الشريفة كالقراصة والمخبة والصداقـة وغيرها ويعرض بكل ما يخالفها فيقوم بهجوم عنيف على كل من اساء الى هذه العلاقات الحميمة كالذي يتنكر للصداقـة مثلا ، فهذا محمد بن حازم الباهلي يقول فـسي شخص كان يظنه صديقه : (٢)

وصل الملوك الى العالي	ووفى الملوك من المحال
-----------------------	-----------------------

(١) سعد شلبي : الشعر العباسي ص ٢٢١

(٢) الاصفهاني : الاغانى ج ١٤ ص ١٠٥ (مصورة عن دار الكتب)

مالي رأيتهك لاتدرو م على المودة للرجال
ان كان ذا ادب وظهر ف قلت ذاك اخوضلال
او كان زانك ودين قلبت ذاك من الثقــال
او كان في وسط من الامرين قلت يريغ مالــي
فيمثل ذا - ثكلتك امك - تبتغي رتب المعالــي ؟

وكان هذا الصديق قد نال مرتبة عند السلطان فتغير وتنكر لمعارفه القديمة وجفا اصدقاءه ايام الشدة فما كان من ابن حازم الا ان يذكره ان الملوك لاتدوم عر حال وان وفاءها محال . ان ابن حازم في هذه الابيات ، زيادة على اعطاء رأيه في هذا النوع المتقلب من الرجال ، فانه يبدى رأيه في السلطة التمثيلية في الملوك ورأيه هذا ناتج عن تجربة عاشها او سمع عنها بمر الاجيال السابقة . وهنا تجدر الاشارة الى ان الشعراء الشعبيين عموما كانوا يبدون آراءهم في مثل هذه الامور بكل صراحة وبشجاعة نادرة ، فاننا نجدهم باستمرار يتصدون للسلطان وينتقدونه دون خوف من قوته وجبروته وكل ذلك لانهم كانوا صادقين مع انفسهم اولاً . اننا نجدهم في اغلب الاحيان يتخذون مواقف واضحة من السلطة فيتصدون لها بكل الوسائل لمحاربتها اولمقاطعتها ومن ذلك قول اسماعيل بن عمار عندما عرض عليه ان يعمل للسلطان : (١)

رأيت صبيحة النيروز امرا فظيما عن امارتهم نهاني
فررت من العمالة بعد يحيى وبعد النهشلي ابي اباي
وبعد الزورين ابي كشيــر وفقد اشجع وابي بطيان
فهاب بها ابا عثمان غيري فاشأنا الامارة لي بشأن
احاذر ان اقصر في خراجي الى النيروز اوفي المهرجان

ان ابن عمار هذا يرفض ان يعمل عند السلطان لان هو "العمال محكوم عليهم اما بقهر الجماهير للحصول على الاموال ارضاء للسلطان او السجن في احسن الاحوال ان لم نقل القتل في اغلب الاحيان .

وبعد فان المجال لا يسمح بذكر كل الشواهد عن صدقهم ولذا نكتفي بما ذكرنا حتى الان .

.....

هـ - بناء القصيدة

=====

ان قصيدة الشعر العربي مرت بمراحل عديدة الى ان وصلت الى ما هي عليه الان ، وكان لابد لها ان تتطور حسب العصر الذي تجتاز به . فكانت في العصر الجاهلي تمثل تجربة حياة كاملة تتكرر باستمرار في مناخ متشابه . كان الشاعر الجاهلي في اغلب الاحيان يصب كل همومه في قصيدته وكأنه يخشى ان تغيبه الايام فجأة لان الطبيعة المحيطة به غير مأونة الجانب فهو معرض للهلاك في اى وقت اما بفجرة او بجذب وماشابه ذلك .

كان عادة يصف الاطلال في البداية وذلك ان القبائل كانت ترحل من حين الى اخر بحثا عن العشب ويكون الانسان قد الفمكنا ما وكون فيه علاقات ——— فيتملق بذلك المكان فاذا ما ارتحل ترك ذلك في قلبه حزنا وكدا . بما ان الشاعر كثير التطواف ، فكثيرا ما يصادف ان يمر على مكان كان له فيه شان فيطفوحنينه ومن هنا جاء وصف الاطلال . ثم يصف الشاعر رحلته وراحلته معا بشيء من الاسهـاب لان السفر في حياته جزء هام بل انه كان اغلب حياته مسافرا متقللا . وكثرة السفر هذه تجعله يكون علاقة حميمة مع راحلته ، علاقة صداقة والفة تكونت ——— الايام ثم يمدح ابيهجو الخ . . . ان القصيدة الجاهلية لم تكن مفككة كما يظن البعض وانها تتكون من اجزاء عديدة لا يربطها رابط بل ان تلك القصيدة كل متكاملة لان الشاعر صب فيها حياته كلها .

ان الذى يوحد تلك القصيدة ليس الموضوع الواحد بل ان حياة الشاعر هي التي توحد ها وتعطيها قيمتها الفنية .

ولم تتغير الامور كثيرا في العصر الاموى مع نزوع طفيف الى التحرر من تلك الطريقة الموروثة عن العصر الجاهلي . اما في العصر العباسي الاول فتبعها لمجالات الاقتصاد والسياسة والاجتماع فان الامور اكتست طابعا جديدا شمل

جميع ما كان موجودا من قبل، ولم تنج القصيدة الشعرية من قدرها المحتوم، فكما رأينا من قبل التغير الذي حدث في الاوزان والقوافي والاغراض والموضوعات فـان ذلك كان لابد ان ينعكس على البناء العام للقصيدة .

كان الانسان من قبل يعيش في اطار القبيلة الذي يضمن نوعا من الوحدة اما في العصر العباسي فان هذا الانسان وجد نفسه في مجتمع تغيرت هيكله كلها فصار وحيدا غريبا بين الناس . ان هذا التجزؤ في الحياة فرض عليه ان يجرى هومنه وان يتصدى لها واحدا فواحدا .

ويجدر بنا قبل ان نعطي سمات القصيدة العباسية ان نستمع الى محمد بن حازم الباهلي وهو يقول حين عاتبه يحيى بن اكر على تقصيره الشعر: (١)

ابى لي ان اطليل الشعر قصدي	الى المعنى وعلمي بالصواب
وايجازي بمختصر قريب	حذفت به الفضول من الجواب
وابعثهن اربعا وست	مشقة بالفاظ عذاب
وهن اذا وسعت بهن قوما	كأطواق الحمام في الركاب
وهن ، وان اقت ، مسافرات	تهادها الرواة مع الركاب

ان اول ظاهرة نلاحظها اذا هي قصر القصائد ولنسميها بالمقطوعات والسبب في ذلك ان الحياة لم تعد تسمح بتلك المطولات كما كانت الحال من قبل . ان وثيرة التطور اصبحت سريعة ولا بد ان يواجهها نبض سريع في القصائد فنتج عن ذلك هذا النوع الذي سيمناه المقطوعات التي تتكون من مجموعة قليلة من الابيات تدور كلها حول موضوع واحد فقط في اغلب الاحيان . ان الشاعر اصبحت ينظر الى الامور نظرة تحليلية بعد ان كان ينظر اليها نظرة كلية . ولا يخفى مافي هذه المقطوعات

(١) القفطي : المحدثون من الشعراء ج ١ ص ٢٨٠ تصحيح محمد عبدالستار ، طبع

مجلس دائرة المعارف العثمانية - حيدرآباد - الهند طبعة اولى ١٩٦٦

من دقة وإيجاز لان الشاعر يحصر همه كله في موضوع واحد، ثم ان عقلية المستمع ايضا تغيرت فهو لم يعد يملك الوقت الكافي لينفقه في الاستماع الى الشعر وههنا ما يذكرنا بالاراجيز التي كانت تقال اثناء الحروب في العصر الجاهلي اثناء المبارزة فعين لم يكن المقام يسمح بتضييع الوقت فقد كان الشاعر المقاتل يرتجز بيتين او ثلاثة لاغير ثم يهجم على خصمه .

اذاً هذه هي اهم سمة في القصيدة العباسية الشعبية لان التيار الرسمي استمر على الطريقة القديمة بكل تفاصيلها .

واما ثاني الصفات فهي تبعا للاولى وحدة الموضوع المطروح في القصيدة الشعبية وهي صفة نجدها حتى في بعض القصائد الطوال مثل قصيدة بفلدة ابي دلامة او عنزة ابي محمد القاسم بن يوسف اوهرته اوسراج ابي الشبل البرجمي ، وهي كلها قصائد طويلة تصل احيانا الى الخمسين بيتا .

واخيرا فان القصيدة الشعبية اصبحت تحمل دائما مشكلة حياتية يومية في اغلب الاحيان نظرا لما لتلك المشاكل من تأثير على نفسيات الشعراء .

على ان هناك سمة اخرى كنا قد اشرنا اليها من قبل الا وهي تلك الموضوعة التي ظهرت في العصر العباسي الاول ونعني بها محاربة الاساليب القديمة وخاصة الوقوف على الاطلال الذي هو عنصر هام في بناء القصيدة القديمة . وقد وجدنا هذه الظاهرة عند عدة شعراء من ذلك العصر ويبدو ان هذه الظاهرة قد صارت موضوعة وضربا من التطرف يحاول الشاعر ان يتفرد به بابتكار معين . لم نلمس في تلك المقطوعات والقصائد اية خلفية سياسية كما يظن البعض اى ان محاربة النمط العربي للقصيدة لم يكن في حد ذاته محاربة للعرب انفسهم وخطا من شأنهم . ولكننا لانفي ان هذه الظاهرة ربما كانت في البداية مرتبطة بالظروف السياسية . ولم تكن هذه الظاهرة مقتصرة على محاربة النمط العربي القديم للقصيدة وحده بل ان المحاربة كانت لمضمون تلك القصائد نفسها بدليل ان بعضهم حارب اسلوب

ابن نواس الذي جعل الخمرة مطلعا لقصائده ونقصه به ابا المخفف عاذر بن شاكر الذي وقف شعره كله على وصف الرغبة . (١) وهكذا نرى ان الشعراء اصبحوا في ذلك العصر يفتشون عن موضوع معين ثم يركزون عليه وكأنه نوع من التخصص كما فعل اساعيل بن ابراهيم الحمدوني الذي وصف طيلسان ابن حرب بمقطوعات عديدة ابو بؤلاله الذي نظم قصائد عديدة في حمار طياب . (٢)

ونلاحظ كذلك ان هذا التطرف كان نتيجة صراع بين الشعرين الرسميين والشعبي ، فالرسمي ظل متمسكا بالطرق والاساليب القديمة بينما راح الشعراء الشعبي يبتكر الموضوعات والاشكال تمشيا مع بيئته الجديدة . وكانت الموضوعات التي استبدلوا بها الاطلال كثيرة جدا منها ان منهم من وصف الدفتر او القرطاس والبهرة الخ كل هذا كان استعاضة عن وصف الاطلال بأشياء لها قيمة في حياتهم كما كان للاطلال قيمة في حياة الشعراء الجاهليين . وهذا امر طبيعي لان الغريب هو ان لا يفعلوا ذلك نظرا لاختلاف عصرهم عن سبقهم .

(١) انظر ص ٨٢ - ٨٣ من هذا البحث

(٢) انظر ايضا ص ١٠٦ وما بعدها من هذا البحث .

الفصل الثالث =====

مواقف شعراء الاتجاه الشعبي :
=====

١- الموقف الساخر (اللامبالسي)

٢- الموقف الحيادي (الزاهد)

٣- الموقف المتمرد (الثائر)

xxxxxxxx

xxxxx

مواقف الاتجاه الشعبي :

=====

نقصد بالموقف ذلك السلوك العام الذي التزمه الشاعر في حياته والذي ينمكس بالضرورة على شعره . وهذا الموقف يأتي طبعاً نتيجة مكونات ذلك الشاعر — العلم ان كل شخص فريد من نوعه ضمن حدود معينة ان يستحيل ان نجس شخصين متشابهين في كل شيء . الا ان هذا لا ينفي وجود عموميات تجمع البشر في جماعات معينة .

ومن هنا فاننا نقسم الشعراء الشعبيين في العصر العباسي الى ثلاثة اقسام او ثلاث زمر انطلاقاً من شعرهم الذي وصل الينا . ففي الزمرة الاولى الشعراء اللامبالون او الذين يظهرون بهذه الصفة ، واللامبالاة تتخذ اشكالا عديدة منها السخرية التي يمكن ان نضع فيها مجموعة من الشعراء كابي فرعون الساسي وابي الشمقق وابي الينبغي وابي المخفف عاذر بن شاكر واسماعيل بن ابراهيم الحمدوني وغيرهم كثير . وسوف نأخذ لهم مثالا ابدا لامة .

اما الزمرة الثانية فهم الشعراء الثائرون المتمردون الذين لم يكتفوا بالكلام بل رفعوا السلاح في وجه مضطهدهم مثل دعلج الخزاعي وابي عطاء السندی وشعراء الشيعة كلهم وشعراء الخوارج كلهم . والثورة لدى هؤلاء الشعراء اتخذت ايضا اشكالا عديدة انطلاقاً من المبادئ التي دفعت بهم الى سلوك هذا الامر ، فمنهم من انطلق من خلفية حزبية سياسية كدعلج مثلاً ومنهم من كان الوضع الاجتماعي ككل دافعه الاول كأبي العطاء السندی الذي سوف نتخذه مثالا لهذه الزمرة .

اما الزمرة الثالثة فهم شعراء الزهد الذين كانوا ينادون بسلوك معين فطبقوه اولاً على انفسهم حتى يكونوا مثالا لغيرهم من الناس الا ان الزهد قد اتخذ

هو الآخر شكلين ظاهرين : واحد ايجابي والثاني سلبي ، ويمكن ان نمثل للايجابي
بمحمد بن المبارك الذي كان يخرج الى الشغور غازيا وكان يقوم بالتجارة ايضا
دون ان يؤثر ذلك على زهده . واما الزهد السلبي فاعلامه كثر منهم محمد بن
حازم الباهلي وابو العتاهية وغيرهما . وسوف نمثل لهذا النوع بمحمد بن
حازم الباهلي .

ولكن قبل ان نتعرض لهؤلاء الشعراء لابد من توضيح بعض الامور التي قد تثير
اللبس حول هذه المواقف :

اولا : من الصعب علينا ان نجد شخصا يسلك السلوك نفسه منذ البداية
حتى النهاية وهذا يعني اننا لن نجد موقفا خالصا مئة بالمئة ، فمن صفة الانسان
التغير حسب الظروف المحيطة به وليس في هذا الامر اى عيب .

ثانيا : نحن لانقصد بالموقف نموذج ادبي معين لان هناك فرقا في نظرنا
بينهما ، فالموقف في " تفسير النموذج " ثابت ، والموقف هو الذى يتماشى في
نظرنا مع الادب لانه مظهر من مظاهر الحياة المتغيرة .

.....

١- الموقف الساخر: (اللاهوتي) :

- ابودلامة زند بن الجسون -

ان الضحك من صفات الانسان الميزة وهوياتي لاسباب عديدة وفي ظروف عديدة ، لكن هذا الضحك يكسب قيمة اضافية عندما يستفله شاعر ما ليجعل منه وسيلة يقات بها ويميل بها ذويه ، فيتخذ به موقفا متميزا عن غيره من الشعراء بحيث يصبح الضحك ، وبالتالي الاضحاك ، هادفا وليس عاديا كما هي الحال فسي الظروف العادية .

ان ابودلامة هو ذلك الانسان الذي استطاع ان يجعل من الضحك وسيلة يتكسب بها ، فمن هو هذا الرجل ؟ تجمع المصادر على ان اسمه زند بن الجسون (بالنون) (١) ماعدا اليافعي الذي ذكر انه زيد (بالياء) (٢) ويبدو انه تصحيف وقع فيه الكاتب . اما كنيته ابودلامة فلا خلاف حولها .

ولد ابودلامة في اسرة فقيرة لاتحدثنا المصادر عنها الا انها تذكر كونها تدعى بالولاء لبني اسد فتختلف في اسم مولى هذه الاسرة ، فالخطيب وابن خلكان يسميان قضا (٣) (بالقاف والصاد) بينما يسميه الاصفهاني قضا (بالفاء والصاد) (٤) . وهو اختلافا طفيف وربما كان تصحيفا من احد الطرفين . واختلفوا ايضا في العصر

(١) الاصفهاني: الاغاني ٢٣٥/١٠ (مصوره عن دار الكتب) وابن خلكان : وفيات

الاعيان ٣٢٠/٢ ، تحقيق احسان عباس ، دار صادر بيروت ، وياقوت

الحموي : معجم الادباء ١٦٥/١١ ، طبع دار المأمون .

(٢) اليافعي : مرآة الجنان ٣٤١/١

(٣) وفيات الاعيان لابن خلكان ٣٢٠/٢

(٤) الاصفهاني: الاغاني : ٢٣٥/١٠ (مصورة عن دار الكتب) .

الذي عاش فيه قصاص اوففاض هذا ، فالاصفهاني يذكر ان هذا الرجل اسلم وكان من الصحابة وكان شاعرا فاعتق والد ابي دلالة . (١)

اما الخطيب البغدادي فيذكر ان هذا الرجل كان مولى ابي دلالة مباشرة وان اباد لالة كان عبدا فاعتقه ، وان الشاعر لم ينس هذا الجميل بدليل انه لما التحق بالخليفة ابي جعفر المنصور كلمه فيه فاجابه وصيره من صحابته اي من صحابة ابي جعفر (٢) .

وتجمع المصادر انه كان اسود من اصل حبشي وانه كان اعرابيا ، التحق بالكوفة كعادة اعراب ذلك الوقت اذ كانوا يذهبون الى المدن الكبيرة اما مادحين لوجهائهم واما لتسويق اغلالهم ومواشيهم وشرا ما ينفعهم منها . وربما يكون الشاعر قد عاش فيها مدة طويلة او ولد بضواحيها لان الاصفهاني وياقوت ينسبانه اليها (٣) .

وشاعركا بي دلالة لابد ان يكتنف الغموض ولادته فزيادة على عادة المصادر القديمة التي لم تكن تهتم بولادة الشعراء فكونه اسود واعرابيا جعل المؤلفين لا يهتمون به الا بعد اشتهار امره . ان بخل المصادر بهذه المعلومات ليس خاصا بأبي دلالة فاعلم الشعراء لانعرف سنة ولادتهم ولهذا سبب وجيه وهو ان المؤرخين والمشتغلين بمثل هذه الامور لم يكونوا يهتمون بأحد الا بعد نبوغه او بروز شأنه كأن يكون شاعرا وكاتبنا اوقائدا او ماشابه ذلك ، ونجد هم في الغالب يذكرون سنة الوفاة فقط .

لكن من المؤكد ان ابا دلالة ولد في العصر الاموي ، فقد اتفق ياقوت والاصفهانسي وابن خلكان على انه ادرك آخر ايام بني امية وانه لم يكن له شأن انذاك . (٤)

(١) الاصفهاني الاغانى : ج ١ / ص ٢٣٥ (مصورة عن دار الكتب)

(٢) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ج ٨ / ص ٤٨٩

(٣) الاصفهاني الاغانى : ج ١٠ / ص ٢٣٥ وياقوت : معجم الادباء ١١ / ١٦٥ - ١٦٦

(٤) الاصفهاني الاغانى : ج ١٠ / ص ٢٣٥ وابن خلكان : وفيات الاعيان ٢ / ٣٢٠

وياقوت : معجم الادباء ١١ / ١٦٥ - ١٦٦

اما وفاته فقد كان سنة (١٦١ هـ) امام الخليفة المهدي الا ان الخطيب
البغدادي يذكر انه ربما ادرك خلافة الرشيد وان كان لا يجزم بهذا الرأي (١) .
لقد عاصر ابو دلامة ثلاثة خلفاء عباسيين هم السفاح والمنصور والمهدي
وكان من صحابته ، منقطعا اليهم وكانوا * يقدمونه ويفضلونه ويستطيون ثوابه * . (٢)

وبعد هذه النبرة القصيرة فاننا سوف نحاول فيما يلي ان نعرف ماهي الاسباب
التي دفعت ابا دلامة الى ان يصبح مضحكا للخلفاء . ان المصادر القديمة
لاتشير ابدا الى ذلك فهي تكفي بوصفه انه صاحب نادرة فقط ، بحيث لاتدلنا على
اي عنصر اخر يمكن ان تنطلق منه ، ولهذا لم يبق امامنا الا شعره الذي نحاول ان
نستشف منه شخصيته .

وهناك سؤال ملح يطرح نفسه علينا وهو : هل كان ابو دلامة ضاحكسا
ساخرا من كل شيء ؟ فعلا ام انه كان مضحكا فقط ؟ وبعبارة اخرى هل كان الضحك
من سجاياه ام انه اتخذ هذه الطريقة وسيلة للكسب ؟ ليس في حياة ابي دلامة
ما يشير الى انه من النوع الاول ، فهو اسود حبشي وعرابي فقير لا يملك شيئا ولا نظن
ان شخصا في ظروفه هذه يجد وقتا للضحك . وهكذا لم يبق امامنا الا الشق
الثاني من السؤال الاتف الذكر اي ان ابا دلامة اتخذ من الضحك وسيلة يتكسب
بها . لقد نظر الرجل من حوله فوجد نفسه فقيرا وصاحب عيال لابد من
تغذيتهم وتوفير القوت لهم ووجد ان الشعراء الآخرين قد سبقوه الى جميع الوسائل
من مدح وهجاء وتكسب بمختلف الطرق .

فكر الرجل في حيلة يدخل بها الى قصر الخلافة او بعبارة ادق يصل بها الى
مال الاغنياء من ذوي السلطان ، فما وجد امامه الا هذا المنهج الذي حاول

(١) الخطيب البغدادي : تاريخ بغداد ٨ / ٤٨٨ - ٤٨٩

(٢) ابن خلكان : وفیات الاعيان ٢ / ٣٢٠

ان يوهبنا به وان يوهبهم نفسه ومعاصريه بانه منهج طبيعي . اراد ان يبدوا امام
الناس جميعها بانه يسخر من كل ما في الحياة ، وراح يتحدى في هذا التظاهر بمختلف
الوسائل حتى انه كان احيانا يظهر بمظهر الابله ومن ذلك ايضا انه كان يتظاهر
بالسخرية من تعاليم الدين فمن ذلك ان السفاح امره بلزوم مسجده الذي كان
يصلي فيه ، فقال ابودلامة : (١)

الم تعلموا ان الخليفة لزي	بمسجده والقصر مالي وللقصر
اصلي به الاولى مع العصر آيسا	فويلي من الاولى وويلي من العصر
ويحبسني عن مجلس استلذه	اعل نفسي بالسمع وبالخمس
ووالله مالي نية في صلاته	ولا البر والاحسان والخير من امري
وماضره والله يصلح امره	لو أن ذنوب العالمين على ظهري

ويقول مرة اخرى موجهها كلامه الى المهدي : (٢)

ادعوك بالرحم التي جمعت لنا	في القرب بين قريتنا والابعد
الاسمعت وانت اكرم من مشي	من منشد يرجو جزاء المنشد
حل الصيام فضته متعبدا	ارجو ثواب الصائم المتعبدا
وسجدت حتى جبهتي مشجوجة	ما اكلف من نطاح المسجدا

صحيح ان ابادلامة كان يعرف مسبقا ان هؤلاء الخلفاء سوف يتفاضون عما يقول
بدليل انه لم يصبه من قوله هذا اي مكروه او ضرر الا ان هذا لا ينفي انه يتمادي

(١) ابن المعتز : "طبقات الشعراء" ص ٦١ وجمع الجواهر للحصري ١١٢-١١٣

ووفيات الاعيان ٣٢٢/٢ وتاريخ بغداد ٤٩١/٨

(٢) الطبري : تاريخ الرسل والملوك ١٨٣/٨ - ١٨٤

في تمثيل دور الابلالة الذي اشرنا اليه من قبل . ويتضح من هذا الكلام ان ابا دلامة كان دائما يظهر عكس ما يريد حتى يمعن في الغلبة ، لكن هناك اشارة في المقطوعة الثانية لابد من التنبه اليها وهي ماجاء في البيت الاول (١)

ادعوك بالرحم التي جمعت لنا في القرب بين قريتنا والابعد
تقول الرواية ان الخليفة غضب لدى سماعه هذا البيت وسأله عن نسوع
القربة هذا فما كان من ابي دلامة الا انه قال ان الذي يجمعنا هو ادم ابو
البشرية . بيد وان ابا دلامة كان صادقا في البيت ، فما الذي يفسق بين
هذا الخليفة وهذا الشاعر ؟ كلاهما انسان الا ان الظروف لعبت دورها فجعلت
هذا خليفة وجعلت ذاك شاعرا مهرجا .

ان ابا دلامة ذكي والا لما استطاع ان يبتقى في القصر وان يواجه خلفاءه
بمثل ذلك الكلام . ويتجلى هذا الذكاء من جهة اخرى في انه باستمرار يخرج مطلوبه
امام الناس بأمور لا يمكن لهم ان يرفضوها فهو يقول للمهدي مرة : (٢)

اني حلفت لئن رأيتك سالما بقرى العراق وانت ذو وفر
لتصلين على الرسول محمد ولتعلان دراهما حجري

فقد ربط هنا بين الصلاة على الرسول (ص) وبين الدراهم التي يطلبها من الخليفة
وهو يعرف ان الخليفة لا يمكن ان يفرط في هذا الامر على رأى من الناس ومسمع منهم
وبالتالي سوف يضطر اذا صلى على الرسول ان يعطيه ما يطلب .

وبعد هذا فان ابا دلامة رجل مداحة كغيره من الشعراء لكن بأسلوب
جديد ذلك لانه لم يكن بعيدا عن عصره ، وانى له ان يتعد عنه وهو يعاني هذا

(١) الطبرى : تاريخ الرسل والملوك : ٨ / ١٨٣ - ١٨٤

(٢) اليافعي : مرآة الجنان ١ / ٣٤١ - ٣٤٢ ، وابن خلكان : وفیات الاعيان

العصر وكل ما جد فيه ؟ ونحن نعرف ان اغراض الشعر تطورت في ذلك العصر في محتواها وفي شكلها ، وبما ان ابدا لامة كان مداحة مدفوعا من قبل فقره الى المدح ، فمن الضروري ان تكون له في هذا المجال بعض الاجتهادات التي لا يستطيع فيها ان يخرج على عصره . ان تطور الاغراض الشعرية لابد ان يكون قد سبقه تطور في مناحي الحياة المختلفة لان الفن كما صار واضحا يتأثر ايمسا تأثر بكل ما يجرى في الحياة من ظروف سياسية واقتصادية واجتماعية الخ ولذا فان المدح «برغ» في هذا العصر بصيغة جديدة ولنقل ان المدح اتخذ مظهرا جديدا قزياة على تلك الصفات التقليدية التي كان الشعر ينعت بها المدوح فان الشكل اختلف كثيرا لدى بعض شعراء الانجاه الشعبي في العصر العباسي . لقد اصبح الشاعر يدخل مباشرة في الموضوع دون التطويل في المقدمات كما كانت الحال من قبل ، لكن الشيء الجديد حقا هو ان الشعراء قد اصبحوا يركزون على وصف فقرهم اكثر من قبل بحيث اصبح المدح استجداء واضحا بعد ان كان مقتضا من قبل . اصبح الشاعر يلج في الطلب ويصف حاله وظروفه الاقتصادية السيئة الى الغاية فيذكر بؤسه وشقاءه ومن هنا كانت كثرة ذكرهم لعيالهم وذويهم ، فقد رأينا من قبل ما كان يفعله ابو فرعون الساسي او ابو الشمقق او غيرها من الشعراء الفقراء فقد كانوا باستمرار يركزون على وضعهم المرير وكانت حالة عيالهم موجودة دائما في مداحتهم .

والشيء نفسه فعله ابود لامة الا انه اضاف عنصر الفكاهة وذلك محاولة منه للالتزام بالموقف الذي اتخذته في الحياة ومنها . وتتجلى هذه السخرية في الوصف الكاريكاتوري الذي يصف به اهله كقوله في والدته : (١)

(١) الاصفهاني : الاغاني ١٠ / ٢٥٩ - (مصورة عن دار الكتب)

هاتيك والدتي عجوز همة	مثل البلية درعها في المشجب
مهزولة اللحيين من يرها يقل	ابصرت غولا اوخيال القطرب
كتبوا الي صحيفة مطبوعة	جعلوا عليها طينة كالعقرب
فعلت ان الشر عند فكاكها	ففككتها عن مثل ربح الجورب
واذا شبيه بالافاعي رقت	يوعد نني بتلمظ وتششـوـوب
يشكون ان الجوع اهلك بعضهم	لزي فهل لك في عيال لـزب
لايسألونك غير ظل سحابة	تغشاهم من سيلك المتحلب *

انه يرسم لوحة محزنة لولاده ويبين ان الجوع اهلكهم وانهم يرتجون من هـذا المدوح مايرد اليهم الحياة والافسوف يموتون جوعاء ويصف زوجته مرة اخرى بالطريقة نفسها : (١)

ان الخليط اجد البين فانتجعوا	وزودوك خبالا بئس ما صنعوا
والله يعلم ان كادت لبيـنهم	يوم الفراق حصة القلب تنصدع
عجبت من صبيتي يوما وامهم	ام الدامة لماهاجها الجزع
لابارك الله فيها من منبهة	هبت تلوم عيالي بعد ما هجعوا
ونحن مشتبهو الالوان اوجهنـا	سود قباج وفي اسمائنا شنع
اذا تشكت الي الجوع قلت لها	ماهاج جوعك الا البري والشبع
لا والذي بالسير المؤمنين قضى	لك الخلافة في اسبابها الرفع
مازلت اخلصها كسبي فتأكله	دونني ودون عيالي ثم تضطجع
شوعاء مشناة في بطنها تجل	وفي المفاصل من اوصالها قذع

(*) همة : عجوز فانية . اللحي : عظم الحنك . القطرب : ذكر الغيـلان او الصغير من الجن .

(٢) الاصفهاني : الاغاني ٢٣٧/١٠ (مصورة عن دار الكتب) وجمع الجواهر للحصري ص ١٠٠-١٠١ وطبقات ابن المعتز ص ٦٢
تجل : عظم البطن وارتخاؤه - القذع : الامواج .

ذكرتها بكتاب الله حرمنا	ولم تكن بكتاب الله تنتفع
فاخرنطمت ثم قالت وهي مصفية	انت تتلو كتاب الله يا لكع ؟
اخرج لتبغ لنا مالا ومزرعة	كما لجيراننا مال ومزرع
واخذع خليفنا عنها بمسألة	ان الخليفة للشؤال يخذع

نلاحظ ان الشاعر يستغل هذه الطريقة الجديدة في المدح ليحصل على ما يريد وليس في هذا اى كذب او نفاق لان الشاعر ليس مطالباً بان ينقل الواقع كما هو ، وان فعل فليس بشاعر بل هو موصور لا غير . ووراء هذا القناع الساخر كان الشاعر يخفي حياة مريرة ونفسا كثيبة تحولت من كثرة كآبتها الى التهريج تبعا للمثل القائل : " شر البلية ما يضحك " . وعلى الرغم من هذا الحاجز الكبير الذى وضعه الشاعر امام نفسه فانها كانت احيانا تخرج عن صتها وتغلت من الطوق المحيط بها فترسل اشارات تبدوعادية في سياق القصيدة لكنها تعني الشيء الكثير .

وهناك اشارات كثيرة نجدها في بعض القصائد منها ما جاء في القصيدة السابقة حين قال :

ونحن مشتبهو الالوان اوجهننا سود قباح وفي اسمائنا شنيع

انه هنا يشير الى قضية اللون فقد كان الشاعر اسود حبشيا كما قلنا ، ومثل هذه الاشارات نجدها لدى الشعراء الذين اتخذوا السخرية سبيلا مع اختلاف في العقدة التي يعانون منها فبعضهم يشير الى الموالاة وبعضهم يشير الى انه اعرابي وهكذا .

ولقد كانت نظرة العرب قديما الى السود نظرة احتقار وانتقاص ، فالاسود في نظرهم مواطن من الدرجة الثانية وماعلينا هنا الا ان تذكر التمني وقوله فسي

العبيد . (١)

١ - اشارة الى قصيدته في كافور الاخشيدي : عيد باية حال عدت يا عيد
ولمزيد من المعلومات عن هذا الموضوع انظر : عبده بدوي : الشعراء السود .

من الاشارات الاخرى التي استطاع اهود لامة من خلالها ان يخبرنا بموقفه الحقيقي ما يدور حوله قوله في حكم العباسيين الذي اشرنا اليه من قبل حين تصدى للباس السواد الذي فرضه الخلفاء على الرعية . وهذا منه موقف سياسي واضح يدل على انه اكتشف زيف الدعوة العباسية وخذاعها وانهم كما بقيهم طلاب سلطة لا غير .

ونستنتج من هذا ان ابا دلامة كان يظهر عكس ما يظن ، فهو اذاً يتبع مبدأ التقية الذي ساد في ذلك الوقت لاسباب سياسية . وكان هذا الموقف ينطبق على جميع الاحداث والامور التي عاشها لانه كان مضطراً ومدفوعاً الى ان يطرق ابواب الخلفاء وهو غير راض على طريقة حكمهم . لكنه قبل ذلك انسان يتفاعل بما يدور حوله ويتأثر به وهناتجدر الاشارة الى موقفه من القضاة الذين يمثلون جانباً من الحكم العباسي في ذلك العصر حيث كان الخليفة ونوابه هم الذين يعينون القضاة ، لقد بينا من قبل ان القضاء تطور كثيراً في العصر العباسي بحيث اصبح للقاضي سلطات اكثر من ذي قبل وبالعقاب لم يعد بعضهم يحكم حسب الشريعة الحنيفة بل صاروا يتبعون في كثير من احكامهم شيئاً من الهوى بحيث يؤثر ذلك في اغلب الاحيان على المستضعفين الذين لاحول لهم ولا قوة .

كان القضاء في ذلك الوقت رمزا من رموز السلطة العباسية وهيمنتها على جميع الامور فما كان من ابي دلامة الا ان ينتقد السلطة نفسها في هذا الجانب الحساس ، ولم يستطع ان يفعل ذلك مباشرة كما فعل غيره من الشعراء فلجأ الى طريقة وهي السخرية والتصوير الكاريكاتوري ليدل على فساد القضاء في ذلك العصر حين يلجأ الدايحاءات ذكية بحيث يكشف ذلك الفساد دون ان يعرض نفسه لمكروه او ضرر ومن ذلك موقفه من القاضي ابي ليلى . (١)

(١) الاصفهاني : الغاني ٢٣٨ / ١٠ مصورة عن دار الكتب والخطيب البغدادي :

تاريخ بغداد ٤٨٠ / ٨ ومن خلكان : وفيات الاعيان ٣٢٢ / ٢ وما بعدها

واليا فعي : مرآة الجنان ٢٩٠ / ١

ان من يتخذ مثل هذا الموقف من الشعراء يكون في الاغلب مسالما وهذه ظاهرة عامة نجدها لدى اغلب شعراء هذه الزمرة . وهذه الملاحظة تسوقنا الى ان نحكم عليهم بالسلبية وعدم الثقة في انفسهم . ان الخوف احد اسباب هذا الموقف ولا نعني الجبن لان نقدهم لبعض الظواهر حتى وان كان ذلك في اطار من السخرية يدل على انهم ليسوا جبناء . وهذا يعني ان الخوف لم يكن متأصلا فيهم بل نتج لاسباب اخرى ، فهم كما نعلم اصحاب عيال وفقراء اى ان ارتباطهم اقتصاديا بالاغنياء وبالتالي بالسلطة ، جعلهم يخافون من فقدان مصدر الرزق الوحيد الذي وجدوه ، مع العلم ان فرص العمل كما ذكرنا من قبل لم تكن متوفرة . ولهذا كله اكفى اولئك الشعراء من زمرة ابي لامة بالاشارة الى الوضع الاجتماعي السائد وغير العادل نتيجة الظلم والفهر والحerman الذي تلقوه من ذلك المجتمع لكن دون ان يرفعوا السلاح لانهم لم يجدوا الاطار الذي يستطيعون ان يثوروا من خلاله لان اية ثورة لابد ان تتوفر لها ظروف كالسخط الاجتماعي العام مثلا زيادة على وجود قيادات تستطيع ان تصل بتلك الجماهير الى غاياتها . لم تسنح لهم الفرصة حتى يجتمعوا ولم تقيض لهم الظروف رجلا او رجلا يجمعونهم تحت لواء واحد ويوحدون كلماتهم ، وبالتالي يقودونهم الى الثورة بالسلاح على تلك الاوضاع . ان غيرهم قد سنحت لسه تلك الظروف فثاروا كالأعراب في مناطق عديدة وكالمصريين في الحوف وكالزط وشورة الزنج وماشابه ذلك .

يتضح مما سبق ان من طبيعة من يتخذ هذا الموقف الأيمالي الساخر ان يكون مسالما وبالتالي ان يأنف من الحرب والقتال ، فهذا ابود لامة يشير صراحة الى ذلك في صيغة ساخرة ، فهو لم يثر ايدا في وجه واقعه ، ولاننسى ان هذا الموقف ربما نتج ايضا عن تلك الفكرة السائدة في ذلك الوقت والتي كان يعتقد بها قطاع كبير من الناس وهي ان هذا الواقع مقدر عليهم وان ما يحدث لهم هو من مشيئة الله ، مع العلم ان السلطة كانت تروج مثل هذه الامور حتى تستتب لها الاوضاع .

لقد كان ابود لامة يكره الحرب كما ذكرت بعض المصادر ليس جبناء ولكنه كان

يرى انه ان تعود عليه وعلى امثاله بالفائدة لان الحرب التي شارك فيها لم يكن
مؤمنا بها وهي حرب الخلافة ضد الخارجين عليها من شيعة او خوارج . وهذا موقف
حيادي منه . ويمكن ان نستغل امتناعه عن القتال هذا لنشير الى انه ربما كان فسي
قراره نفسه يناصر اولئك الخارجيين على السلطان الذين وجدوا الشجاعة الكافية
لاعلان الثورة صراحة عكس ما فعل ان بقيت ثورته جيشا نافي صدره فقط .

ان ايا دلامة يرى بعد هذا ان الحرب ليست حلا للمشاكل لانها مهلكة
للنفوس لا غير ، فها هو ذا مرة يرفض العبارة التي فرضت عليه بأسلوب ساخر كعادته
وذلك بقوله : (١)

اني اعوذ بروح ان يقدمني	الى القتال فيخزي بي بنو اسد
ان المهلب حب الموت اورثكم	ولم ارث قط حب الموت من احد
ان الدنو الى الاعداء اعلمه	ما يفرق بين الروح والجسد

وهذا الموقف عموما يتسم بالسلبية لانه في النهاية بقي متفرجا على ما يجري من
امور في ذلك المجتمع الهائج . كان اصحاب هذا الموقف يوهمون انفسهم بانهم
سيتمليون على معاناتهم بالتجائهم الى هذه الطريقة التي تجعلهم لا يشعرون بما
حولهم ولكنهم لم يستطيعوا لان مشاكل المجتمع لحقتهم وارقتهم وجعلتهم يشيرون
اليها بالرغم من انفسهم التي لم ترد ذلك .

.....

(١) الاصفهاني : الاغاني ٢٤٤/١٠ (مصورة عن دار الكتب) وباقوت : معجم
الادباء ١٦٧/١١-١٦٨ وابن خلكان : وفيات الاعيان ٢٢٣/٢
واليافعي : مرآة الجنان ٣٤٣/١

٢ - الموقف الحمادي (الزاهد) : محمد بن حازم الباهلي :

والآن ننتقل الى الموقف الثاني الذي اتخذه مجموعة من شعراء ذلك العصر وهو موقف كان في الغلب الاعم موقفا سلبيا متفرجا على ما يدور من احداث . لقد كان الزهد عبارة عن انسلاخ عن المجتمع حيث كان الزاهد يحاول دون جدوى ان يخرج من هذه الدنيا وهو مازال فيها ، ولهذه الظاهرة كثيرة هي نفسها التي اوجدت النوع الاول او الموقف الانبالي .

ويمكن ان نعد الزهد نقيضا للموقف الاول ، كلاهما هروب من الواقع الا ان الاول ، اي الانبالي ، كان هروبا الى الامام وهذا كان هروبا الى الخلف . ان الزاهد يجسد ظاهرة الخضوع وقابليتها ايما تجسيد : الخضوع لما يحدث له في هذه الدنيا دون مقاومة ولاحتي محاولة للخروج من الورطة التي وجد نفسه فيها .

ان الزهد ظاهرة نتجت في البداية ردا للاحداث السياسية التي شهدتها المنطقة اعقاب مقتل الخليفة عثمان بن عفان لكن هذه الظاهرة تطورت في العهدين الاموي والعباسي بحيث اصبحت ذات مدلول اجتماعي اضافة الى بعدها السياسي . (١)

وسوف نحاول ان نكشف هذه الامور في موقف محمد بن حازم الباهلي بن عمرو

المكنى ابا جعفر والذي سكن بغداد وكان مولده ومنشؤه بالبصرة . (٢)

لانعرف شيئا عن حياته سوى انه كان زاهدا وكان قليل المدح للناس ولم يمدح من الخلفاء الا المؤمن . (٣) لانعرف متى ولد ولا متى توفي الا انه عاش عمره كله في العصر العباسي الاول على ما يبدو .

(١) : انظر : حسين مروة : النزعات المادية ج ٢ / ص ١٤٩ وما بعدها

(٢) الاصفهاني : الاغاني ٩٢ / ١٤ والقفطي : السمعديون من الشعراء ٢٢٩ / ١ تحقيق محمد عبدالستار ط اولي - مط مجلس دائرة المعارف العثمانية

حيدر اباد الهند ١٩٦٦ وتاريخ بغداد ٢ / ٢٩٥ والورقة ص ١١٢

(٣) الاصفهاني : الاغاني ٩٢ / ١٤ وتاريخ بغداد ٢ / ٢٩٥

ولكي نعرف جنوحه الى الزهد لابد ان نضع بالحسبان حالة البصرة في ذلك الوقت والتي ولد بها الشاعر وترعرع فيها . فقد كانت البصرة في ذلك الوقت تمثل خليطا من الاجناس تتصارع فيه المصالح والمذاهب والاهواء وتتمثل فيه جميع الطبقات التي عرفها ذلك العصر من اغنياء وفقراء وما يلحق ذلك من المعبرين عن هذه الطبقات اوتلك . (١)

ومجتمع كمجتمع البصرة لابد ان يخلق مختلف الانماط والانواع والاشكال التي يفرزها مثل تلك المجتمعات . ولعل محمد بن حازم كان من اسرة فقيرة لان الزهد ارتبط في اغلب الاحيان بالطبقات الفقيرة التي لم تستطع ان تجد لنفسها موعظا في خضم المضاربات الاقتصادية فما كان منها الا ان تعلن انهزامها امام ذلك المد المادي الذي اجتاحت الدولة الاسلامية في ذلك الوقت كنتيجة للتطور الذي عرفه ذلك العصر .

ان الظروف الاقتصادية والسياسية اضافة الى التيارات الفكرية والدينية هي من اهم الاسباب التي ولدت ظاهرة الزهد التي هي تعبير سلبي عن السخط العام . ونحن نستثني من السلبية هذه اولئك الشواذ الذين لم يكتفوا بالزهد على الطريقة المعهودة ، اى بطريقة النزوع عن كل شيء ، بل كانوا يجمعون بين الزهد وبين طلب الحياة وذلك بالمشاركة الايجابية في حياة المجتمع كعبد الله ابن المبارك الذي ذكرناه سابقا . (٢)

ان لشعراء الزهد السلبي جميعا صفات مشتركة ومتشابهة ، فهم بالدرجة الاولى متبعدون عن المجتمع وكأنهم يقفون من احداثه وما يجري فيه موقف المهزوم المنسحب من المعركة ، ولذا اكتفوا بنقده بطريقه تغفرة تتجلى في الحكم التي اشتهروا بها .

(١) انظر : احمد كمال زكي : الحياة الادبية في البصرة .

(٢) انظر شوقي ضيف : العصر العباسي الاول ص ٤٠٣

ان الحكمة هي عنوان الزهد في ذلك العصر بحيث لا يوجد شاعر زاهد الا وكان يحاول ان ينقل الينا تجاربه واحاسيسه في اطار من الحكمة رصين ، فمحمد ابن حازم هذا كغيره من الزهاد اشتهر بحكمة المتعددة التي تتناول القناعة والعرض والطمع والشرف وكرامة النفس والحلم وذيء الدنيا والناس والفقر والعقسل والجهل والصدقة وماشابه ذلك من قضايا وامور .

اننا نستطيع ان نصل الى نفسية هؤلاء الشعراء من خلال الموضوعات التي تناولوها في حكمهم ، وسوف يتضح لنا ذلك في شعر محمد بن حازم الباهلي فهو يقول مثلاً في القناعة : (١)

فأواني الى كف وسيع	جعلت مطية الامال بأسا
بالارجل يشد ولا نسوع	فتلك مطية الآمال غفل
به في الاوحد ين وفي الجميع	لعمرك للقليل أصوب وجهي
تمد اليه اعناق الخضوع	أحب الي من طلبي كثيرا
كص الطفل فيقات الضروع	فعرى بالقوت يوما بعد يوم
رفيع في الانام ولا وضيع	ولا ترغب الراحه بحرص

ويقول في القناعة مرة اخرى : (٢)

فبلاؤه حسن جميل	الله احمد شاكرا
ما بين انعمه اجــــول	اصبحت مستورا معافى
الظهر يقنعني القليل	خلو من الاحزان خف
حرص ولا امل طويل	لم يسقني طمع ولا
التلاف والرجل البهيم	سيان عندي ذو الغنى

(١) الشاهشي : الديارات : ص ١٨٢ تحقيق كوركيس عواد . مط المعارف بغداد

١٩٥١

(٢) المصدر نفسه ص ١٨٢

فني فطاب لي العليل
خفت موؤنته خليل

ونغيث بالناس المنى
والناس كلهم لمن

ان هذا الشاعر ، دون ان يريد ، يساعد الظروف التي انشأتها على ان تبقى لاننا لوحللنا شعره هذا لوجدنا القناعة في الحقيقة دعوة الى الركود والى الرضى بكل ما يجرى للانسان ، ولكن تجدر الاشارة هنا الى ان هؤلاء الزهاد كانوا فعلا شديدي التدين وهذا بالطبع ينفي عنهم التهمة التي توجه اليهم من الوهلة الاولى اى انهم دون وعي منهم ، دعة للحكم القائم الذى كان هو الاخر يروج للقناعة ويشجع انتشارها بين الناس . كان هدف هؤلاء الشعراء مخالفا لاهداف السلطات القائمة لكن موقفهم هذا كان من الناحية العملية يساعد السلطة وذلك بتشجيع تلك الاوضاع على البقاء على ما هي عليه . وبالطبع فان موقفهم هذا كان مناقضا لحالتهم لكن دون ان يدركوا ذلك كما اشرنا سابقا .

ان هذا الموقف المرتكز على الدين ، يشل هؤلاء الشعراء الزهاد بالدرجة الاولى ثم يشل باقي الناس المتأثرين بهم . انهم ساخطون على وضعهم لكنهم لم يجدوا حلا الا في سلوك هذا السبيل اى في الابتعاد عن هذا الوضع قدر الامكان ولو ان عملهم هذا لم يغير شيئا في النهاية لانهم لم يستطيعوا ابدا ان يتعدوا عن هذا الوضع او ان يفلتوا من قبضته . ان سلوكهم هذا اجتاج الكرامة الانسانية التي طحتها كلال الظروف الاجتماعية المتداخلة ، ولذا راحوا يبرجون ذلك الموقف المزرى بهذا السلوك السلبي . ان القناعة هي بكل بساطة اعتراف بذلك الوضع وتقبل له ولو على مضض . لقد حدث لهؤلاء الشعراء ما حدث لغيرهم من النوع الاول اى اللامبالين الذين لم يجدوا مخرجا الا في السخرية من ذلك الوضع والقفز فوقه . ان السلبية هي صفة هذين الموقفين وهي في النهاية لن تغير شيئا لان التغيير لن يكون الا بالحركة . لكن انظر في هذه القضية يأتي من كون هؤلاء الشعراء الزهاد متدينين وبذلك يؤثرون في الجماهير من ناحيتين :

اولا من ناحية كونهم شعراء والشاعر كما نعرف كان له في ذلك العصر صدى كبير في نفوس الناس ، وثانيا من حيث كونهم متدينين لان الجماهير تحترم الدين ورجاله احتراما كبيرا وتتأثر بهم ايمانا ، والذي يشفع لهؤلاء الشعراء ان دعوتهم لم تكن مبيتة هذا الغرض بل كانوا يفعلون ذلك عن حسن نية .

ان القناعة التي يدعو اليها هؤلاء الشعراء تدعو في بعض جوانبها الى اليأس من وجود مجتمع احسن مما هو كائن ، فهذا محمد بن حازم الباهلي يقول فسي هذا المجال : (١)

من اعمل اليأس كان اليأس جاعله	معظما اهدا في عين الناس
اليأس خير وما للناس من شر	هات امرا ذل بعد اليأس للناس

من هنا تأتي اشارة الخطر لان هؤلاء الشعراء كان لهم نفوذ كبير على الناس زيادة على اهمية دور الشعر في ذلك العصر وتوجيهه للجماهير .

والناس عادة يقيسون الامور بعضها ببعض فحين يرون هؤلاء الشعراء يذمون الجرى وراء الدنيا فان هذا الذم عندهم سوف ينتقل الى مختلف مناحي الحياة بحيث تصبح هذه الدعوة دافعة للناس الى الركود في جميع انشغلتهم والى السكوت من الظلم والقهر والرضى بالحرمان والفقر .

ان دعوة هؤلاء الشعراء كانت تدفع الى الخمول وتقلل بطريقة غير مباشرة من اهمية العمل ، هذا العمل الذي يعطي الانسان قيمته الاجتماعية .
لقد اتخذت هذه الدعوة اشكالا متعددة وصيغا كثيرة فهم مثلا يحذون الصبر ويمدحونه ويعلمون من قيمته وشأنه ، وصحيح ان للصبر فوائد كثيرة لكن ليس في جميع المجالات .

(١) الشابشتي : الديارات ص ١٨٢

ان كلام محمد بن حازم يدعو عمليا الى الكسل حتى وان كان الشاعر لا يقصد ذلك اذ ماذا تفهم او ماذا يفهم الانسان البسيط في ذلك العصر والذي كان يتأثر بالشعر ويحترم اقوال الشعراء ويطبقها احيانا وخاصة اذا كانوا زهادا ، ماذا يفهم من بيت كهذا : (١)

وفي اليأس من ذل المطامع راحة وفي الناس من لاتحب بديل

والشطر الاول هو الذي يهمني في هذا البيت ، لان الانسان كان دائما يسمى الشيء تلبية حاجاته المتعددة من ملابس ومأكل ومسكن وماشابه ذلك . وان هذه الامور لم يكن يحصل عليها بسهولة او تنزل عليه هبة من السماء بل كان لابد من شقاؤه وتعبه حتى يجلبها لنفسه وهذه الحاجات تكون في مجموعها طموح الانسان في الحصول عليها وكلام الباهلي يرفض هذا السعي ويدعو الى الصبر والقناعة وبعبارة اخرى يدعو الى الكسل والخمول .

ان خطورة شعرهم تكمن في انه صادق فعلا وفي انه مرتكز على تجارب واقعية فعلا عاشها الناس ويعايشونها باستمرار ، اذ من منا يعترض على الصبر ومن منا يعترض على القناعة ؟ ان كلامهم صحيح من عدة نواح لكن كان من المفروض ان يدعم بالحديث على العمل والتحرك والمواصلة لا ان يجعل الناس وكأنهم متفرجون على ما يحدث لهم . هذه النظرة عندهم ربما كانت من رواسب المذاهب والتيارات الفكرية والفلسفية السابقة مثل الرواقية والابيقورية وغيرها .

واذا بحثنا عن الاسباب المعنوية التي دفعتهم الى هذا المسلك زيادة على الاسباب الاجتماعية التي ذكرناها فسوف نجد ان الجانب العاطفي عندهم كان له دور كبير في هذه الظاهرة . ان هؤلاء الشعراء معتزون جدا بانفسهم وبعبارة اخرى

(١) : الشابشتي : الديارات ص ١٨٠

كانت الكرامة النفسية عندهم فوق كل شيء وهم لا يرضون ابدا ان تذلل نفوسهم
لاحد ما اولامرنا . انهم حساسون الى درجة ان ابسط الامور التي تجرى ضمن
حياتهم تؤثر فيهم تأثيرا كبيرا .

ان هؤلاء الشعراء وجدوا انفسهم في مجتمع معقد العلاقات متشابك المصالح
ظروفه الاقتصادية صعبة الوطء عليهم وظروفه السياسية قاهرة لهم وكان عليهم
اما ان يواجهوا هذا المجتمع بمختلف الاساليب الموجودة فيه او ان يندحروا امامه
فاختاروا الطريق الثاني وبذلك ضمنوا لانفسهم كرامتها وصانوها عن كل ما يمكن ان يلحقها
من اذى في الطريق الاول .

ولمحمد بن حازم تجارب من هذا النوع ، فقد سأل مرة صديقه سعيد بن مسعود
القطرلي حاجة فردء عنها فأثر ذلك في نفس الشاعر تأثيرا شديدا فانقطع عن
هذا الصديق لكن ذلك الرجل رجع وبعث الى الشاعر بالف درهم يترضاه بها الا انه
رفضها وقال : (١)

متسع الصدر رحيب لسا	يضيق عنه الحول القلب
راجع بالعتبي فعاتبته	وربما اعتبك المذنب
اجل وفي الدهر على انه	موكل بالبين ، مستعتب
سقيا ورعيا لزمان مضى	غنني وسهم الشامت الاخي
قد جاء منك موئل فلم	اعرض له والحر لا يكذب
ابيت ان اشرب عند الرضا	والسخط الا مشربا يعذب
اعزني اليأس واغنى ، فما	ارجو سوى الله ولا ارهب
قارون عندي في الغنى معدم	وهتي ما فوقها مذهب
فأى هاتيك تراني بها	اصبو الى مالك او ارجب ؟

هذه القصيدة تبين مدى احساس محمد بن حازم فهو لا يرضى ان تهان نفسه حتى وان جاءه ذلك من صديق له .

ان الانسان الحساس لا يستطيع ان يحيا حياة عادية بين الناس لان اختلاطه بالناس سوف يسبب له حتما مشاكل عديدة ولان شعوره سوف يتأثر لأول معارضة من المحيط ولذا نتج عن هذا الاحساس المرفه انطواء على النفس حاد جدا . وهذه صفة نجدها لدى اغلب شعراء الزهد ، فهم يتزهدون من الدنيا وكل من فيها وينعزلون بعيدا عن الناس في جميع الامور . انهم بعبارة اخرى قطاع من الناس مشلول لا يقدم للمجتمع اى فائدة ، بل عكس ذلك نجدهم يؤثرون في المجتمع تأثيرا سلبيا لانهم يؤدون ان يقلد هم الناس في تصرفاتهم هذه .

ان رد الفعل الحاد من الاوضاع السائدة التي قهرتهم جعلهم ينطوون على انفسهم وينغرون من الناس الذين لا ينجحون نهجهم ، ولذا كثر ذم الدنيا والناس في اشعارهم ، فها هو ذا محمد بن حازم يقول في ذم الناس : (١)

وقالوا قد مدحت فتى كريما	فقلت : وكيف لي بفتى كريم ؟
بلوت الناس مذ خمسين عاما	وحسبك بالمجرب من عليهم
فما احد يعد ليوم غير	ولا احد يعود على حميم
ويمعيني الفتى واظن خيرا	فاكشف منه عن رجل لثيم

ولقد كان ابوالعتاهية يذم الكلام نفسه في صيغة اخرى وكذلك معظم شعراء الزهد . انها صفة النفور البشرى وعبارة اخرى انه الانطواء الناتج عن خوفهم من مواجهة الواقع بكل مشاكله .

لكن القضية عند بعضهم لاتقف عند هذا الحد بل تتعداه الى كراهية

الناس جميعها، وربما كانت هذه الكراهية ناتجة عن انهم رأوا ان الناس استطاعوا ان يفعلوا ما كان هؤلاء الزهاد يتحنون في قرارة انفسهم ان يفعلوه اي انه جسد على شجاعة أولئك الذين استطاعوا ان يواجهوا الواقع ويقفوا امامه متحدين جبروته .

ان محمد بن حازم من هذا النوع الاخير الذي جعله موقفه السلبي يكره الناس، فقد طلب منه الحسن بن سهل مرة ان يكف عن هجاء الناس فقال : (١)

وهبت القوم للحسن بن سهل	فموضني الجزيل من الثواب
وقال : دع الهجاء وقل جميلا	فان القصد اقرب للصواب
فقلت له : برئت اليك منهم	فليتهم بمنقطع التسراب
ولولا نعمة الحسن بن سهل	علي لستهم سوم العذاب
اكيدهم مكايده الاعادي	واختلهم مخاتلة الذئاب
وما مسخوا كلابا غير اني	رأيت القوم اشباه الكلاب

ان الشاعر لم يستطع هنا ان يتحكم في زمام نفسه الباطنية ولم تستطع اصابع الحكمة ان تخفي مشاعره الحقيقية . انها كلمات انسان عاجز لم يجد من وسيلة يقلل من شأن تلك الجماهير الشجاعة الا بوصفها بأحققر الصفات .

وبعد هذا فان هؤلاء الشعراء كانوا يقللون ايضا من قيمة الدنيا ويرون انها فتنة يستحسن بالانسان ان يعتمد عنها وعن كل مفرياتها . وربما كان هؤلاء الشعراء صادقين فيما يقولون لان قوة الايمان عندهم قد تجعلهم ينفرون من متع الحياة ويرون فيها منقصة لدينهم الا انه يجب الا ننسى ان الحياة في مفهوم الدين الاسلامي نعمة من عند الله لا بد للانسان ان ينعم بها وكأنه يعيش ابدادون ان يقصر في واجباته الدينية .

لكن هؤلاء الشمراء يرون الدنيا فتنة في جميع حالاتها فهذا ابن حازم يقول : (١)

الا انما الدنيا على المرء فتنة على كل حال اقبلت ام تولت

ان عجزهم هو الذي جعلهم يصلون الى هذه النتيجة .

وسالاشك فيه ان هؤلاء الزهاد كانوا فقراء محرومين ، دفع بهم فقرهم الى اتخاذ هذا السبيل في الحياة بعد ان اكتشفوا ان جميع الطرق التي جربوها لم تنفعهم شيئا . لم يستطيعوا التكيف مع تلك الاوضاع ولم يالفوا ذلك المجتمع ولم يتأقلموا معه . ولنستمع الى شاعرنا وهو يقول : (٢)

رزقت عقلا ولم ارزق مروءة ومال المروءة الا كثرة المال

اذا اردت مسامة تقاعد بي عما ينوء باسني رقة الحال

كانوا فقراء اذا ولكنهم لم يدركوا تمام الادراك ان المجتمع الذي كفروا منه هو السبب الرئيس في حالهم تلك . تنبهوا طبعاً الى هذا الامر فراحوا يشيرون الى ذلك في شيء من الغموض وتجلى ذلك في ذم المال .

ومن هنا يمكن ان نعرف لماذا اشتهر الزهاد بالبخل ، فما بخلهم هذا الا نتيجة لمجمل ظروفهم ، فقد اعلنوا انهزامهم كما اشرنا من قبل وتجلى هذا الانهزام في الابتعاد عن الناس وفي الهروب من متع الحياة ومنها المال طبعاً . ونتيجة لذلك كله بقوا مكتوفي الايدي امام تلك الاوضاع ، يرضون بالقتيل اليسير . ولذا راحوا كلما جاءهم مال بطريقة ما ، يحافظون عليه اشد المحافظة لانهم يعرفون اولاً صعوبة الحصول عليه وثانياً ضرورته لعيشهم .

(١) النويري : نهاية الارب في فنون الادب : ج ٣ ص ٨٨ (مصورة عن دار الكتب)

(٢) الشابشتي : الديارات : ص ١٨٢

ان مجمل هذه الظروف قد جعلت نفوسهم تضطرب وتتعدد ونستنتج ذلك من كثرة التناقض في تصرفاتهم واقوالهم ، فقد رأينا محمد بن حازم وهريدعو الى الصبر والقناعة لكنه يقول مرة اخرى (١) :

اخلق بذى الصبر ان يحظى بحاجته ومد من القرع للابواب ان يلجا
ففي الشطر الثاني يناقض كل ما قال من قبل لانه هنا يدعو الى المواصلة والاستمرار
وبعبارة اخرى يدعو الى الحث على العمل وان من يواصل دون ملل ولا كلل سوف يصل
الى ما يريد .

ان هذا التناقض انتشر الى جميع الموضوعات التي طرقتها الشاعر ، وقد تنبّه
ابن المعتز لهذه القضية وان عساه على مجموعة من الشعراء ، فقد قال فيما يخص
شاعرنا : " كان محمد الباهلي من الحف الناس اذا سأل والحمد اذا استماع مسجع
كثرة ذكره للقناعة بشعره ، وهو احد جماعة كانوا يصفون انفسهم بضد ما هم عليه
حتى اشتهروا بذلك وابن حازم يصف نفسه بالقناعة والنزاهة وكان احرص
من كلب . . . " (٢)

لاندري اكان وراء كلام ابن المعتز هذا امر شخصي ام لا ؟
الا انه قد اصاب الموضوع فعلا ، فهو " لا " الناس كانوا يظهرون عكس ما يبطنون ولنتذكر
ابا العناهيم الذي اشتهر ببخله على كثرة ذمه للحرص ومدحه للكرم . ويشار هنا
الى انه قد مات وترك مبلغا كبيرا من المال .

ان هو " لا " الشعراء جربوا جميع الوسائل ، كما قلنا ، للتلاؤم مع مجتمعاتهم
ولتوفير القوت لاولادهم ان كان لهم اولاد ، فقد هجوا ومدحوا وتقلبوا في امور كثيرة
وحين لم يجدهم ذلك شيئا انعطفوا على انفسهم وتقوقعوا وراء الزهد وراحسوا
ببشون حقدهم على المجتمع في تلك الحكم التي نالت اعجاب الناس .

ومحمد بن حازم كان يمدح هو الآخر فقد مدح المأمون بقوله : (١)

وإذا الكريم أتيت به خديعة فرأيت فيما يزوم يسارع
فاعلم بأنك لم تخادع جاهلاً أن الكريم بفعله يتخادع

وكأنني به أراد أن يقول أن هؤلاء الأغنياء الذين يقدقون الأموال على المادحين يتظاهرون بالكرم حتى ينالوا ثناء الشعراء .

ويقول فيه مرة أخرى : (٢)

أنت ساء ويدي أرضها والأرض قد تأمل غيث السما

وهو هنا أيضاً يشير إلى الفكرة السابقة أي أن الكرم عند هؤلاء الناس لم يكن سجية بل كانوا يفعلون ذلك ليحصلوا على ثناء الناس لأن العطاء لم يكن ابداً بالمجان عندهم .

وليس في هذه المدح ، عدا ذلك ، أي جديد فهو يكرر الأفكار والصفات المتداولة بين جمهور المادحين كالكرم ووصف الكريم بالغيث الخ . . .

وكان أيضاً كثير الهجاء للناس (٣) فقد مر به مرة أحمد بن سعيد بن سالم وهو جالس على باب قلم يسلم عليه سالماً مقبلاً فكتب إليه رقعة وبعتها خلفه وجاء فيها : (٤)

وباهلي من بني وائل أفاد ما لا بعد أفلاس
قطب في وجهي خوف القرى تقطيب ضرغام لدى الياس
وأظهر التيه فتايهتـهـ تيه امرئ لم يشق بالناس
اعرته أعراض مستكبرـ في موكب مركبكمـ

(٢-١) الشاهشتي : الديارات ص ١٨٣

٣ - الأصفهاني : الأغاني ج ١٤ ص ٩٢ (مصورة عن دار الكتب)

(٤) - المصدر نفسه ج ١٤ ص ٩٣

ثم أن هذا الشاعر كان يشرب الخمر على ما يبدو قبل أن يتحول إلى الزهد ويصاحب
الندمان وما شابه ذلك ، حين قال : (١)

ابعد خمسين اصبو	والشيب للجهل حرب ؟
سن وشيب وجهي	امر لعمرك صعب
يا بن الامام فها	ايام عودي رطب
وشيب رأسي قليلا	ومنهل الحب عذب
وان سهامي صباب	ونصل سيفي غضب
وان شفاء الغواني	مني حديث وقرب
فالان لما رأى بي العذال ما قد احب	وا
وأنصر الرشيد مني	قوم ، اعاب واصبو ؟
اليت اشرب كأسا ما حج للـ	ركب

لم نورد هذه الامثلة من مدح وهجاء وغزل ولهو ولا لنبيين ان هذا الشاعر
جرب كثير من الشعراء امورا كثيرة قبل ان يتخذ الزهد مذهباً بعد ان رأى/تلك
الامور لن تجديه فتىلا . ويمكن ان نقول ان شعراء الزهد فعلوا مثله فهم لم يتخذوا
الزهد مذهباً مذ ولدوا لان الزهد يأتي كرد فعل لاوضاع لا بد ان يعاني منها
الانسان اولا حتى يتحول هذا التحول .

لكن هذا لا يعني ان كل من يعاني تلك الاوضاع يتحول إلى زاهد كهؤلاء
الشعراء بل تدخل هنا خصوصيات كل شاعر منهم ونفسية التميز . وهذا ناتج
عن تلك الفروق الفردية بين الناس بحيث تجعل بعضهم يتأثر وبعضهم الاخر
لا يتأثر مطلقا . ان وقع احداث ذلك المحيط الخارجي - وما اكثرها تنوعا - تختلف
من فرد إلى اخر وربما اختلف ذلك في الشخص الواحد بين حين واخر فهذا ابونواس
يقال انه كان فقيها ثم تحول إلى ماجن مشهور .

وفي النهاية نكرر اننا لانعم كل ما قلناه على جميع شعراء الزهد بحسب
نجعلهم جميعا على شاكلة محمد بن حازم الباهلي بل هناك استثناءات لا بد
من الاشارة اليها لكنها لا تؤثر في التيار العام لهذا المذهب ولهذا الموقف
من الشعراء .

.....
.....

٣- الموقف المتمرد (الثائر) : ابوعطاء السندی

=====

وبقي الموقف الاخير للشعراء الشعبيين في العصر العباسي وهو موقف تلك المجموعة من الشعراء التي تمردت فعلا وقولا على الاوضاع السائدة ، لان تلك الاوضاع هي التي دفعتها الى هذا السلوك ، ان التمرد حيلة تناقضات يعيشها الانسان ويرى بعدها ان الحل هو الا يكتفي بالنقد العادي كما فعل الشعراء الآخرون بل يحمل سلاحه القول والفعل لتحقيق اهدافا يصبو اليها وهي اقرار العدالة بين الناس في جميع المجالات لان القول ، وان كان احيانا ايجابيا كتوعية الناس وتبصير الجماهير بأمورها وحقوقها ، لن يغير شيئا كبيرا في قضية الكارحين .

ان الشاعر ، وهو انسان ، قد يتحول من موقف الراح من صف الى آخر ولكن لابد من وجود هزة عنيفة في حياته حتى يتم ذلك التغير ولا بد ان يكون شعراء هذا الموقف عانوا من مثل تلك الهزات فأبو عطاء السندی والذي يمثل هؤلاء قد شهد الانقلاب العباسي وانتقال السلطة من بني امية الى بني العباس وكان هذا بمثابة الانقلاب في حياته وفكره وسلوكه مع العلم انه كان من قبل من شعراء بني امية فقد مدحهم وكان من منصبي الهوى اليهم (١) . وشاركهم في حربهم ضد بني العباس حتى ان غلامه الذي تكلم به قتل مع ابن هبيرة . (٢)

لانريد ان نطرق للأسباب التي جعلته يحارب في صفوف بني امية لكن المهم ان الشاعر حضر شخصا ذلك الانقلاب وقد كان شجاعا وربما كان السبب المباشر

(١) الاصفهاني : الاغاني ج ١٧ ص ٣٢٩ تحقيق علي محمد الجاوي ، طبع الهيئة

المصرية العامة للتأليف والنشر ، القاهرة ١٩٧٠

(٢) المصدر نفسه ج ١٧ ص ٣٣٠

في ذلك هو خوفه من الفقر والافلاس فقد قال في هذا المعنى : (١)

إذا المرء لم يطلب معاشا لنفسه	شكا الفقر اولام الصديق فأكثر
وصار على الدينين كلا واوشكت	صلات ذوى القربى له ان تنكرا
فسر في بلاد الله والتس الغنى	تمش ذاي سار اوتموت فتعذرا
ولا ترض من عيش بدون ولا تنم	وكيف ينام الليل من كان معسرا

في هذه الابيات جواب على الاسباب التي جعلته يشارك في تلك الحرب.

ولكن بعد انتصار العباسيين كان من المباركين كغيره من الشعراء وكان يأمل خيرا من هذا العهد الجديد فراح يمدح الحكام الجدد الا انهم نبذوه و حاول عدة مرات وعاول الكرة ولكن بدون جدوى (٢) .

من هنا انطلق ابو عطاء واظهر كل سخطه على الحكام الجدد فقد قال : (٣)

بني هاشم عود والى نخلانكم	فقد قام سعر التمر صاعا بدرهم
فان قلت رهط النبي وقومه	فان النصارى رهط عيسى بن مريم

ان الشاعر هنا بدأ بموضوعين حساسين للغاية وهوان العهد الجديد لــــم يحقق ما كان منتظرا منه فقد قام العباسيون بدعاية كبيرة قبل انتصارهم وراحوا ينتقدون الوضع السائد ايام بني امية وخاصة الظروف الاقتصادية المتردية التي كان يعاني منها الانسان . وهذا من اهم الاسباب التي تركت الناس يدخلون في حزب العباسيين ويحاربون الى جانبهم املا في تحسن تلك الاوضاع بعد ان يتولى العباسيون الحكم . لكن الخيبة كانت كبيرة جدا ويكفي البيت الاول الذي قاله ابو عطاء ليعطينا فكرة عن تلك الخيبة . فقد ارتفعت الاسعار عوض ان تنخفض وهذا في حد ذاته مصيبة كبيرة لأولئك الفقراء والمستضعفين الذين شاركوا في

(١) الاصفهاني : الاغاني ج ١٢ ص ٣٢٦ (طبع الهيئة المصرية ١٩٢٠)

(٢) الاصفهاني : الاغاني ج ١٢ ص ٣٣٢-٣٣٣

(٣) يوسف خليف : حياة الشعر في الكوفة ص ٤٣٩

الحرب الا لكي يحصلوا على ما كانوا يطمحون به وهو الرخاء العام .

و يتناول بعد ذلك اهم عنصر في الدعاية العباسية بالنقد ويقوضه وهو قرابتهم من الرسول (ص)، ونفهم من كلامه ان الرجل كان مقتنعا بان القربى لا تنفع في شيء بل الاعمال هي التي تقرر قيمة هذا الفرد اذ انك . وقد كانت الحرب الدعاية قائمة بعد انتصار العباسيين بينهم وبين عموميتهم حول هذه القضية بالذات قضية القربى من الرسول والتي تخول لهم حق استلام السلطة دون غيرهم .

ونجد ابا عطاء يشارك في كل امر لينقد الحكام الجدد ، فعندما فرض العباسيون ليس السواد على الناس قال في ذلك : (١)

كسيت ولم اكفر من الله نعمة سوادا الى لوني ودنا ملهوجا
ويايعت كرها بيعة بعد بيعة مبهرجة ان كان امر مبهرجا

وهو هنا يثير قضية الاكراه في البيعة التي كان يفرضها العباسيون على الناس .

ان السبب الرئيس الذي ثار من اجله هذا الشاعر هو انعدام المبدأ في فترة حكم بني العباس وخاصة بعد تلك الدعاية الضخمة التي قام بها دعاة بني العباس بين الناس من ان الرضا من آل محمد الذي يجب ان يحكم هو الذي سيملاء الارض عدلا كما ملئت جورا وهذا ما ذكرناه سابقا . الا ان الواقع كذب هذه الدعاية فقد كشف الناس هذه اللعبة في وقت مبكر من العهد العباسي واكتشفوا انهم كسابقهم يطلبون السلطة فقط لينعموا بالخيرات التي تصبح ملك من يتولاها . وهكذا ضاع الامر مرة اخرى على يد سلطة شارك الشعب في ارسائها

(١) الاصفهاني : الاغاني ج ١٧ ص ٣٣٥ (طبعة الهيئة المصرية ١٩٧٠)

الدين : القنطرة المحدودة الاطراف ، الملهمج : غير المحكم .

لكنها تنكرت له ولم تغب بوسودها وفي هذا يقول ابو عطاء : (١)

ليس الله يعلم ان قلبي يحب بني امية ما استطاعا
وما بي ان يكونوا اهل عدل ولكني رأيت الامراضا

وهنا تجدر الإشارة الى ان الجماهير التي شاركت في تلك الحرب والتي انتصرت على بني امية كانت تنتظر من الحكام الجدد ان يمنحوها العدل والمساواة والرخاء تعويضا على ما لحقها في الايام السابقة من قهر وظلم وحرمان ، لكن هيئات لم يكن بنو العباس الابني امية جددا ولذا فلا غرابة ان نجد بعض الناس يندمون العهد السابق كما فعل ابو العطاء وغيره من الشعراء مع ما اشتهر به ذلك العهد من بطش وجبروت ، لكن الذي يشفع لهم هذا التفكير الغريب ان السلطة التي كانت تثقل كواهلهم من قبل لم يشاركوا في وضعها في ذلك المكان اما السلطة الجديدة فقد وجهت اليهم الطمعة مرتين لانهم هم سبب وجودها ، ولان السلطة السابقة لم تكن تخدمهم بل كانت تواجههم صراحة وتستغلهم صراحة ومن هنا نفهم جيدا قول ابي عطاء السندی : (٢)

فليت جور بني مروان دام لنا وليت عدل بني العباس في النار

ان ثورته على بني العباس لم تكن فقط لانه يحب بني امية ، وهم اعداء بني امية ، بل لان الشاعر كان قبل كل شيء من الفئة المستضعفة فهو مولى وهذا يعني انه كان يشعر بالقهر منذ البداية وخاصة في عصر بني امية الذين كانوا فعلا لا يعطون الموالي ان منصب هام وزاد الطين بلة ان العباسيين لم يفوا بوعودهم فاما كان من هذا الشاعر الا ان يثور لانه لم يجد حلا احسن من الثورة على تلك الاوضاع .

وهنا تجدر الإشارة الى اننا ذكرنا من قبل ان الشعر الشعبي عموما كان مهملًا ولم يرد منه في المصادر الا القليل لكن الاهمال الكامل لحق هذا الجانب الثوري المتمرد منه لانه يمس السلطة الحاكمة انذاك مباشرة . ولولا الحصار الذي ضربه السلطة على الشعر المتمرد لتبين لنا بوضوح موقف الناس من العباسيين .

ان شعراء الموقف المتمرد كانوا شجعانًا لان من يتجرأ على نقد الحكام في ذلك الوقت كان مهدداً بالموت المحتسب ، فعلى الرغم من علمهم بهذه الحقيقة فانهم لم يسكتوا ، وتتمثل هذه الشجاعة ايضا في صبرهم في الحروب واحتقارهم لمن يفر منها كما فعل رجل من بني مرة كان يحارب المسودة مع ابي عطاء واسمه ابو يزيد وكان قد عقر فرسه فطلب من الشاعر ان يعطيه فرسه ليقاتل به لكن هذا الرجل مضى على وجهه هاربا فقال ابو عطاء في ذلك : (١)

لعمري انني وابا يزيد	لكالساعي الى لعم السراب
رايت مخيلة فطمعت فيها	وفي الطمع المذلة للرقاب
فما اعياك من طلب ورزق	وما اغناك عن سرق الدواب

واخيرا فان هذا الجزء من الشعر الشعبي قليل جدا لاسباب التي ذكرنا وحسبنا منه هذه اللع المتناثرة التي تدل على ان الشعراء استطاعوا ان يتكلموا بالرغم من القمع والجبروت .

وطبعي ان تلجأ السلطة في ذلك العصر الى محاربة هذا النوع من الشعر وحصاره حتى لا يؤثر في الجماهير ويؤذيها عليها .

(١) ابن شاعر الكندي : فوات الوفيات ج ١ ص ١٣٥-١٣٦

تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد - طبع دار السعادة - بدون تاريخ .

وفي ختام هذا الفصل نقول ان تلك الظروف التي تحدثنا عنها في الباب الاول
كان لها وقع ، مهما كان نوعه ، على مواقف الشعراء هذه انان مواقفهم هي نتيجة
انصهار تلك الاوضاع مع نفسيات الشعراء وتكيف هذه النفسيات مع تلك الاحداث ،
وهذا من ذاك .

%%%%%%%%%%%%%%%%%%%%%%%%%%%%%%%%%

%%%%%%%%%

%%%%%

%

الخاتمة

ان بحثنا هذا يهدف في جملة الى نفي تهمة كانت ومازالت توجه الى شعرنا العربي القديم على انه شعر مناسبات وبلاطات وان حضور الشعب فيه كان غائبا . ولهذه التهمة اساس صحيح ذلك ان الشعر المعروف والمتداول بين الناس كان اقلية من نوع المناسبات ، ولكننا نعرف ان هذه التهمة باطلة لان شعرنا القديم لم يكن كله من هذا الطراز بل كان شعرا يتناول جميع هموم الانسان وكانت تنعكس فيه جميع القضايا المطروحة على فكر العربي القديم ووجدانه .

ان هذه التهمة لم تكن وليدة عقلية سلفية للمبادئ العربية ومجل حضارتهم فحسب بل الادهى ان نجد العرب انفسهم يوجهونها الى شعرهم القديم والدليل على ذلك ان بعض طلبة الجامعات واساتذتها يؤكدون هذه التهمة باستمرار . ولقد ساعدت المناهج التعليمية في الاقطار العربية على انتشار هذه التهمة لان الشبان يتعلمون في مدارسها ذلك الشعر الذي سميناه شعر البلاطات من مدح وهجاء وفخر وما الى ذلك . وهذا كله على حساب جانب اخر من ذلك الشعر وهو الشعر الشعبي .

ليست هذه التهمة جديدة علينا ان نجد لها حتى في اقدم عصورنا حيث كانت النخبة المثقفة آنذاك والتابعة للعقلية السائدة في ذلك العصر تضرب حصارا كبيرا على الشعر الشعبي ، فقد كان مؤرخو الادب يترفعون عن ذكره طنا منهم بانه ليس في مستوى النقل والتدوين وهذا ما ادى الى قلة نصوصه التي وصلت الينا وتخطت كل الحواجز .

ونحن لا نلوم القدامى بقدر ما نلوم المحدثين لان الاولين كانوا مشدودين بتلك العقلية السلفية التي اشرنا اليها سابقا ولا يمكن ان نطلب منهم اكثر مما قدموا . اما في عصرنا فان الامور قد تطورت والعقول قد تفتحت وتنورت واصبح لفكرة الشعب مكانة هامة في تفكير هذا العصر وجب معها ان يهتم الباحثون بكل انماجه الفكرى .

ويمكن ان نعم هذه الفكرة على مجالات اخرى غير الادب كالتاريخ مثلا ، فقد دون هو الاخر على طريقة الشعر ان كان المؤرخون ينتقون مناسبات واحداثا معينة ليمزوها اكثر من

غيرها فكان ان اصبح ذلك التاريخ تاريخ مناسبات واشخاص وحوادث مجردة من كل معانيها .
واللوم هنا يوجه الى المؤرخين المحدثين كذلك لانهم تشبعوا بالمناهج العلمية الحديثة
ولانهم ساعدت الاكتشافات الحديثة على تزويدهم بمعطيات لم تكن متوفرة لدى القدامى الامر
الذي يفرض على هؤلاء المؤرخين ان يورخوا للمجتمعات وليس للأشخاص ، وان يعللوا حدوث
تلك الحوادث والاحداث والا يكتفوا بنقلها عارية من كل محتوى اجتماعي او سياسي او اقتصادي .
والحقيقة ان هناك بعض الدراسات حاولت ان تخرج من تلك الطريقة القديمة لكنها غير
كافية لانها تاتي مبتورة وسط خضم من تلك المناهج القديمة ولذا وجب ان تعاد كتابة تاريخنا
العربي كله على ضوء المناهج الجديدة حتى تأخذ كل تلك الامور التي حدثت حقها ومكانتها
وقيمتها اللازمة .

ان المصادر القديمة تحتوي على اشارات بالغة الاهمية في هذا المجال بدليل ان
الشعر الشعبي استطاع ان يصمد امام المواجهات الجديدة بالرغم من الحصار الذي قوسل
به لسبب بسيط وهو ان الجماهير حافظت عليه لما فيه من امور تمس حياتها وواقعها .
وتجدر الاشارة هنا ان الشعر الشعبي الذي نقصده ليس ذلك الشعر العامي وحده كما نفهم
اليوم من هذا المصطلح بل ان فهمنا له يتعدى الى كل ما يمس الجماهير سواء كتب بالعربية
الفصحى ام بغيرها من اللهجات المحلية التي ان هي الا امتداد للفصحى وتطور طبيعي
وحتي لها لان مجتمعا كالمجتمع العربي الاسلامي المتنوع في مكوناته البشرية والطبيعية كان
لابد ان يفرز مثل هذه اللهجات ، فرقعت كانت واسعة جدا في ذلك العصر وهذا يعني ان
الناطق والاقاليم التي انضوت تحت راية الخلافة العباسية كان من المنتظر ان تطبع اللغة
والعادات العربية بعادات وطبائع جديدة بالرغم من ان تلك الاقاليم تتقارب في هومها
- اي تنطبق عليها الظروف نفسها تقريبا - وهذا التنوع كان له دور كبير في تطور الحضارة
العربية في جميع ميادينها ، والذي يهينا في هذا ان الشعر الشعبي الناتج عن ذلك
المجتمع المتنوع اسهم في تطور الشعر العربي عموما فقد اصبح الشعر يتسع ليتناول جميع
الموضوعات التي يفرزها ذلك المجتمع الجديد ، وهذا ما ولحد بدوره القصيدة الجديدة .

التي تختلف عما قبلها في العصرين الجاهلي والاموي ، فقد صارت قصيرة ولم تعد بذلك الطول الذي اشتهرت به قصائد العصرين السابقين . والسبب في هذا ان العقلية قد اختلفت كثيرا ، فقد كان الشاعر الجاهلي وتبعه الاموي في ذلك ، ينظر الى الامور نظرة شعولية ولذا كانت القصيدة تأتي عنده مخصصة لكل تجاربه في الحياة . وكان بإمكان الشاعر ان يكتفى بقصيدة واحدة لانه ان نظم غيرها فيسوف يكرر ما قال من قبل في صيغة جديدة . اما الشاعر العباسي فقد اصبحت ينظر الى الامور نظرة تفصيلية ان لم يعد يصب في القصيدة كل ما عنده من تجارب بل صار يكتفى بتناول الموضوعات واحدا واحدا ، وهذا بدوره يجعل القصيدة العباسية وحيدة الموضوع وهذا لا يعني طبعا ان القصيدتين الجاهلية والاموية لم تكونا وحيدتي الموضوع بل انهما كانتا كذلك الا ان الموضوع فيهما ينطلق من تلك النظرة الشعولية لدى الشاعر .

كانت الوحدة اذا وحدة نفسية تخرج في اطار متنوع فيما كانت العباسية وحدة حالية تخرج في اطار واحد لان تلك المقطوعات تتناول موضوعا واحدا او فكرة واحدة وهذا ناتج عن ان تطور الحياة في العصر العباسي الاول لم يعد يسمح بتلك المطولات التي تشبه امتداد الصحراء . ان وتيرة التطور اصبحت سريعة جدا ما انتج اشكالا فنية تتسم بالسرعة هي الاخرى وهذا ما طور الاوزان بحيث طوعت حتى اصبحت تتماشى مع هذا النمط الجديد من القصائد ، ولذا كثرت الاوزان القصيرة والمجزأة والمهوكة الخ . .

كانت القصائد الجاهلية عامة في نظرتها الى الامور اما العباسية فقد صارت تأخذ الموضوع وتشير اليه دون توسع وتكتفى بذلك في بيتين او اكثر قليلا هذا اضافة الى عوامل اخرى شاركت في ظهور هذه الاوزان كالموسيقى والغناء الذي ازدهر هو الاخر في العصر العباسي ازدهارا كبيرا فقد صار الشاعر ينتقى الاوزان الخفيفة والكلمات الجميلة وهو ينظم القصيدة لانه كان يدرك انها قد تغنى من قبل الناس بعد ان يلحنها احد الملحنين . ونحن هنا لا نتحدث عن الغناء الذي ازدهر في القصور بل الغناء الاخر الذي كان حتما موجودا بين الجماهير .

ومن هنا فلا غربة اذا وجدنا أن خصائص الشعر الشعبي لذلك العصر تتشابه مع خصائص شعره الرسمي ولهذا اسباب كثيرة منها ان الفاصل بين الشعرين لم يكن دائما واضحا وثابتا فكم من شاعر يتقلب بين عشية وضحاها بين الاتجاهين وهنا يجب ان نتذكر اولئك الشعراء الذين كانوا يأتون الى بغداد لينشدوا الخليفة مدائحهم فيه ثم يعودون الى قبائلهم ومدنهم ليعاودوا حياتهم كما كانوا من قبل . ان الاختلاف في المحتوى هو الذى يجعل شعر الشاعر شعبيا أو رسميا وليس في الشعراء فالقسمة اذا قسمة شعر وليست قسمة شعراء . لان الاتجاهين ولدا مجتمع واحد تتفاعل فيه طبقاته وتؤثر بعضها فى بعض تأثيرا متبادلا .

ان الاختلاف في المحتوى يولد بطبيعة الحال اشكالا مختلفة لكنها ليست منفصلة أو متناقضة الى درجة تنعدم فيها المقارنة بينهما .

ومن خصائص الشعر الشعبي المفرقة له عن غيره من الشعر ان اهم موضوع يدور حوله هو تلك الاوضاع الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التي كان حضورها مستمرا فيه ، ففي جميع الاغراض التي تناولها الشعراء الشعبيون تطل علينا تلك الاوضاع ، سواء في المدح ام الهجاء ام الرثاء أم الوصف الخ

وبعد نرجو ان نكون قد وفقنا بعض الشئ في ابراز هذا الاتجاه الذى كان مطموسا والذي لم يحط حقه الا قليلا ، ولا ندعى ابدا اننا بلغنا الغاية فيه بل نحن نعرف مسبقا ان هناك بعض النقص في جوانب عديدة نرجو ان يغفرها لنا القارىء .

طاهر حجار

فهرست المصادر والمراجع

- حرف الالف -

- ١ - ابراهيم ، نيلة : اشكال التعبير في الادب الشعبي .
طبع دار نهضة مصر - بدون تاريخ .
- ٢ - الابشيهي : ابوالفتح شهاب الدين محمد بن احمد : المستطرف
في كل فن مستظرف .
طبع دار الفكر - بيروت ، مصورة عن طبع الاستقامة ،
مصر ١٣٧٩ هـ
- ٣ - ابن الاثير : ابوالحسن عز الدين علي بن محمد (- ٦٣٠ هـ) - الكامل
في التاريخ . طبع دار صادر بيروت ١٩٦٥ م
- ٤ - ابن آدم القرشي يحيى : كتاب الخراج ، تحقيق احمد محمد شاكر
طبع المطبعة السلفية ، القاهرة ١٣٤٧ هـ .
- ٥ - الاصفهاني : ابوالفرج علي بن الحسين بن محمد الاموي (- ٣٥٦ هـ) -
كتاب الاغانى - طبعة مصورة عن دار الكتب .
- (ج ١٧) طبع الهيئة المصرية العامة للنشر والتأليف
تحقيق علي محمد البجاوي القاهرة ١٩٧٠
- (ج ٢٠) طبع دار الثقافة - بيروت ١٩٦٠
- ٦ - الالوسي ، محمد شكرى : بلوغ الارب في معرفة احوال العرب ، شرح وتصحيح محمد
بهجة الاثرى ، طبع المكتبة الاهلية ، طبعة ثانية - مصر
١٩٢٤ م

٧ - انيس ، ابراهيم : موسيقى الشعر ، طبع مكتبة الانجلو المصرية ، طبعة
خامسة ، القاهرة ١٩٧٨ م

- حرف الهمزة -

٨ - بازيار العزيز بالله الفاطمي : ابو عبد الله الحسن بن الحسين : البيزرة .
تعليق محمد كرد علي . طبع مطبوعات المجمع العلمي
العربي بدمشق - ١٩٥٣ م

٩ - بدوى ، عبد الله : الشعراء السود وخصائصهم في الشعر العربي ، طبع
الهيئة المصرية العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٣ م .

١٠ - البهيتي ، محمد نجيب : تاريخ الشعر العربي حتى آخر القرن الثالث الهجري
طبع دار الكتب - القاهرة ١٩٥٠ م

١١ - البيهقي : ابراهيم بن محمد (٣٨٥ هـ - ٤٧٠ هـ)
أ- تاريخ البيهقي ، ترجمة يحيى الخشاب وصادق نشأت (عن الفارسية)
طبع مكتبة الانجلو المصرية - ١٩٥٦ م
ب - المحاسن والمساوي ، طبع دار صادر بيروت ١٩٧٠ م

- حرف التاء -

١٢ - ابن تغرى بردى : جمال الدين ابو المحاسن يوسف (٨٧٤ هـ -) -
النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة . طبع دار الكتب
المصرية ، طبعة اولى ، القاهرة ١٩٣٠ م

١٣ - تيزيني ، طيب : مشروع رؤية جديدة للفكر العربي في العصر الوسيط
طبع دار دمشق ١٩٧١ م

- حرف الثاء -

- ١٤- الثعالبي : ابو منصور عبد الملك محمد بن اسماعيل (- ٤٢٩ هـ)
أ- شار القلوب في المضاف والمنسوب ، تحقيق محمد ابي الفضل ابراهيم
طبع دار نهضة مصر القاهرة ١٩٦٥ .
ب- خاص الخاص تقديم حسن الامين طبع مكتبة الحياة ، بيروت ١٩٦٦

- حرف الجيم -

- ١٥- الجاحظ : ابو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب (- ٢٥٥ هـ)
أ- البرصان والعرجان والعميان والحولان ، تحقيق محمد مرسى الخولي
طبع دار الاعتصام للطباعة والنشر - القاهرة ١٩٧٢ م
ب- البيان والتبيين ، تحقيق فوزى عطوى ، طبع دار صعب ، بيروت ١٩٦٨ م
ج- الحيوان ، تحقيق عبد السلام هارون طبع البابي الحلبي ، طبعة
ثانية القاهرة ٦٥ - ١٩٦٦
د - القول في البغال ، تحقيق شارل بللا طبع مصطفى البابي الحلبي
طبعة اولى القاهرة ١٩٥٥ م
١٦- ابن الجراح : ابو عبد الله محمد بن داود (- ٢٩٦ هـ) الورقة ، تحقيق
عبد الوهاب عزام وعبد الستار فراج ، طبع دار المعارف بمصر
طبعة ثانية القاهرة ، ١٩٥٣ م .
١٧- الجمال ، احمد صادق : الادب العامي في مصر في العصر المملوكي ، طبع
الدار القومية للطباعة والنشر - القاهرة ١٩٦٦ م
١٨- الجهشيارى : ابو عبد الله محمد بن عبدوس : الوزراء والكتاب ، تحقيق
مصطفى السقا وجماعته ، طبع مصطفى البابي الحلبي ، طبعة
اولى القاهرة ١٩٣٨ م .

- حرف الحاء -

١٩- حجاب ، محمد نجيب : معالم الشعر وأعلامه في العصر المباسي الاول ،
طبع دار المعارف بمصر ، طبعة ثانية ، القاهرة ١٩٧٣ م

٢٠- حسن ، ابراهيم حسن :

أ- تاريخ الاسلام الاجتماعي والسياسي والثقافي الخ ...
طبع مكتبة النهضة المصرية ، طبعة رابعة القاهرة ١٩٦٤
ب- النظم الاسلامية لطبع النهضة المصرية طبعة اولى

القاهرة ١٩٣٩ م

٢١- الحصرى القيرواني : ابواسحاق ابراهيم بن علي (- ٤٥٣ هـ) ; جمع الجواهر

في الملح والنوادر (دليل زهر الاداب) تحقيق علي محمد
البجاوى طبع الياسي الحلبي ، طبعة اولى القاهرة ٢٩٥٢ م

٢٢- ابوحيان التوحيدى : (٤١٠ او ٤١٤ هـ) - الامتاع والموائسة - تحقيق
احمد امين واحمد الزين - طبع مكتبة الحياة (مصورة عن
دار الكتب) - بدون تاريخ

- حرف الخاء -

٢٣- الخطيب البغدادي : ابوبكر احمد بن علي بن ثابت (= ٤٦٣ هـ) تاريخ
بغداد ، طبع مكتبة الخانجي طبعة اولى القاهرة ١٩٣١ م

٢٤- ابن خلدون : عبدالرحمن بن محمد (٧٣٢ - ٨٠٨ هـ) المقدمة .
تحقيق علي عبدالواحد وافي ، طبع لجنة البيان العربي
طبعة اولى القاهرة ١٩٥٧ م

٢٥- ابن خلكان : ابو العباس شمس الدين احمد بن محمد بن ابي بكر (٦٠٨ - ٦٨١ هـ) - وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان . تحقيق احسان عباس - طبع دار صادر بيروت بدون تاريخ .

٢٦- خليف ، يوسف : حياة الشعر في الكوفة الى نهاية القرن الثاني الهجري . طبع دار الكتاب العربي للطباعة والنشر ، القاهرة ١٩٦٨ م

٢٧- ابو خليل ، شوقي : هارون الرشيد ، طبع دار الفكر طبعة اولى ، دمشق ١٩٧٧ .

- حرف الـ دال -

٢٨- دعلج بن علي الخزاعي (١٨٤-٢٤٦ هـ) - ديوانه . جمع عبد الكريم الاشر - طبع مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق .

- حرف الراء -

٢٩- الراغب الاصبهاني : ابو القاسم حسين بن محمد (- ٥٠٢ هـ) ؛ محاضرات الادباء ومحاولات الشعراء والبلغاء - بدون ذكر للتاريخ او للطبع .

٣٠- ابن رشيق القيرواني : ابو علي الحسن بن رشيد (٣٩٠-٤٥٦ هـ) ؛ العمدة في صناعة الشعر - تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد طبع حجازى ، طبعة اولى القاهرة ١٩٣٤ م

٣١- رفاعي ، احمد فريد : عصر المأمون ، طبع دار الكتب المصرية ، طبعة رابعة القاهرة ١٩٦٨ م

٣٢- الرفاعي ، انور : الاسلام في حضارته ونظمه طبع دار الفكر ١٩٧٣ م

- ٣٣- الرفيق القيواني : ابراهيم بن القاسم ، المختار من قطب السرور في
اوصاف الانبذة والخبور ، تحقيق عبد الحفيظ منصـور ،
طبع مؤسسات عبد الكريم عبد الله - تونس ١٩٧٦ م
- ٣٤- رياض حسين مظلوم ومصطفى محمد الصباحي : تاريخ ادب الشعب، طبع
مطبعة السعادة ١٩٣٦ م
- ٣٥- ريجارد كوك : بغداد مدينة السلام، ترجمة فؤاد جميل ومصطفى جواد،
طبع مطبعة شفيق ، طبعة اولى بغداد ١٩٦٢ م
- ٣٦- الرئيس ، محمد ضياء الدين : الخراج والنظم المالية للدولة الاسلامية ،
طبع مكتبة الانجلو المصرية ، طبعة ثانية القاهرة ١٩٦١ م

- حرف الزين -

- ٣٧- زكي ، احمد كمال : الحياة الادبية في البصرة الى نهاية القرن الثاني
الهجري ، طبع دار المعارف بمصر القاهرة . ١٩٧١ م
- ٣٨- زيدان، جرجي : تاريخ آداب اللغة العربية ، طبعة دار الهلال - بدون تاريخ

- حرف السين -

- ٣٩- سيديو : خلاصة تاريخ العرب ، ترجم بأمر علي باشا مبارك ، طبع محمد
افندي مصطفى ، طبعة اولى ، القاهرة ١٣٠٩ هـ
- ٤٠- السيوطي : جلال الدين عبد الرحمن بن ابي بكر (- ٩١١ هـ)
أ- تاريخ الخلفاء ، طبع دار الفكر ١٩٧٤ م
ب- المزهر في علوم اللغة وانواعها ، طبع محمد علي صابح
واولاده ، بدون تاريخ .

- حرف الشين -

- ٤١- الشابشتي : ابو الحسن علي بن محمد : الديارات ، تحقيق كوركيس عواد ،
طبع المعارف ببغداد ١٩٥١ م
- ٤٢- ابن شاعر الكندي : محمد بن شاعر بن احمد (- ٧٦٤ هـ) وفوات الوفيات ،
تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، طبع دار السعادة ،
بدون تاريخ .
- ٤٣- الشريف المرتضى : علي بن الحسين : امالي المرتضى (غرر الفوائد -
ودرر القلائد) تحقيق محمد ابي الفضل ابراهيم ، طبع
دار الكتاب العربي ، طبعة ثانية بيروت ١٩٦٧ م
- ٤٤- شعبان ، بهيج : اثر المعدة في الادب العربي ، طبع منشورات عويدات ،
طبعة اولى بيروت ١٩٦٦ م
- ٤٥- الشكعة ، مصطفى : الشعر والشعراء في العصر العباسي ، طبع دار العلم
للملايين طبعة ثانية بيروت ١٩٧٥ .
- ٤٦- شلبي ، احمد : في قصور الخلفاء العباسيين - طبع مكتبة الانجلو-
المصرية القاهرة ١٩٥٤ م
- ٤٧- شلبي ، سعد اسماعيل : الشعر العباسي ، التيار الشعبي ، طبع مكتبة
غريب - بدون تاريخ .

- حرف الصاد -

- ٤٨- صالح ، احمد رشدي : الادب الشعبي ، طبع دار المعارف ، بدون تاريخ .
- ٤٩- الصولي : ابو بكر محمد بن يحيى (- ٣٣٥ هـ) - كتاب الاوراق ، نشره
هيورث دن ، طبع مطبعة الصاوي ، طبعة اولى ، القاهرة

- حرف الضاد -

٥٠ - ضيف ، شوقي :

آ - العصر العباسي الاول - طبع دار المعارف ، طبعة سادسة
القاهرة ١٩٧٦ م

ب - الشعر وطوائفه الشعبية على مر العصور . طبع دار المعارف
بمصر طبعة اولى القاهرة ١٩٧٧ م
ج - النكاهة في مصر طبع دار الهلال ، العدد ٨٣

- حرف الطاء *

- ٥١ - الطبرسي : ابو جعفر محمد بن جرير (٣١٠ هـ) : تاريخ الرسائل
والملوك - تحقيق محمد ابي الفضل ابراهيم طبع
دار المعارف ١٩٦٧ م
- ٥٢ - ابن الطقطقي : محمد بن علي بن طباطبا : الفخرى في الاداب السلطانية ،
طبع المطبعة الرحمانية مصر ١٩٢٧ م
- ٥٣ - ابن طيفور : ابو الفضل احمد بن طاهر (- ٢٨٠ هـ) : بغداد في تاريخ
الخلافة العباسية ، طبع مكتبة المثنى ببغداد ومكتبة
المعارف ببيروت ، طبعة اولى ١٩٦٨ م

- حرف العين -

- ٥٤ - ابن عبد البر القرطبي : (٣٦٨ - ٤٤٣ هـ) : بهجة المجالس ، تحقيق محمد
مرسي الخولي . طبع الدار المصرية للتأليف والترجمة -
بدون تاريخ .
- ٥٥ - عبد الحكيم ، شوقي : الفولكلور والاساطير العربية ، طبع دار ابن خلدون
طبعة اولى بيروت ١٩٧٨ م

- ٥٦ - ابن عدي : احمد بن محمد (- ٣٢٨ هـ) : العقد الفريد ، طبع
لجنة التأليف والنشر والترجمة .
- ٥٧ - ابو المناهيد : (اسعيل بن القاسم) (- ٢١٠ هـ) : الديوان ، تحقيق
شكري فيصل . طبع جامعة دمشق ١٩٦٥ م .
- ٥٨ - ابن عروس ، محمد بن محمد : كتاب تاريخ القضاء في الاسلام ، طبع المطبعة
المصرية الاهلية الحديثة بمصر بدون تاريخ
- ٥٩ - عصور ، جابر احمد : مفهوم الشعر ، دراسة في التراث النقدي ، طبع
دار الثقافة للطباعة والنشر القاهرة ١٩٧٨ م
- ٦٠ - عطوان ، حسين : مقدمة القصيدة العربية في العصر العباسي الاول ، طبع
دار المعارف القاهرة ١٩٧٤
- ٦١ - ابن الصاد : ابو الفلاح عبد الحي (١٠٨٩ هـ) : شذرات الذهب في
اخبار من ذهب ، طبع مكتبة القدسي القاهرة ١٣٥٠ هـ
- ٦٢ - عبارة محمد : نظرة جديدة الى التراث ، طبع المؤسسة العربية للدراسات
والنشر ، طبع ثانية بيروت ١٩٧٩ .
- ٦٣ - عيد ، رجاء : الشعر والنغم ، دراسة في موسيقى الشعر ، طبع دار الثقافة
للطباعة والنشر - القاهرة ١٩٧٥ .

- حرف الخيـن -

- ٦٤ - غرناوم ، غوستاف : شعراء عباسيون ، ترجمة محمد يوسف نجم ، طبع مكتبة
الحياة ، بيروت ١٩٥٩ م

- حرف الفاء -

٦٥- ابو الفداء : الحافظ بن كثير الدمشقي (- ٧٧٤ هـ) : البداية والنهاية ،
طبع مكتبة المعارف ببيروت ومكتبة النصر بالرياض - طبعة
اولى ١٩٦٦ .

٦٦- فهد بدرى محمد : العامة ببغداد في القرن الخامس الهجرى - طبع
مطبعة الارشاد - بغداد ١٩٦٧ م

٦٧- فريضة دانيش : الفكاكة عند العرب ، طبع مكتبة رأس بيروت ، طبعة
اولى ١٩٦٢ .

- حرف القاف -

٦٨- القالي : ابو علي اسماعيل بن القاسم (- ٣٥٦ هـ) : كتاب الامالي وكناب
ذيل الامالي والنوادر - طبعة مصورة عن بولاق ١٣٢٤ هـ

٦٩- ابن قتيبة : ابو محمد بن عبد الله بن مسلم (- ٢٧٦ هـ) : الشعر والشعراء ،
طبع ليدن طبعة اولى (١٩٠٢ م)

٧٠- القفطي : ابو الحسن علي بن يوسف ، (- ٦٤٦ هـ) : المحدثون من الشعراء ،

تصحیح محمد عبدالستار ، طبع مجلس دائرة المعارف

العثمانية ، حيدرآباد ، الهند - طبعة اولى ١٩٦٦ م

- حرف الكاف -

٧١- كراتشكو فسكي ، اغناطيوس : دراسات في تاريخ الادب العربي (منتخبات)

ترجمة محمد المعصراني - دار النشر ، موسكو ١٩٦٥ م

٧٢- الكندي : ابو عمر محمد بن يوسف : القضاة والولاة ، تهذيب رفق كست

طبع الاباء اليسوعيين بيروت ١٩٠٨ م

- حرف الـلام -

- ٧٣ - لوون ، غوستاف : حضارة العرب ، ترجمة عادل زعيتر ، طبع البابي الحلبي ،
بدون تاريخ .

- حرف الميم -

- ٧٤ - ماجد ، عبدالنعم : العصر العباسي الاول - طبع مكتبة الانجلو المصرية ،
طبعة اولى القاهرة ١٩٧٣ .
- ٧٥ - المبرد : ابو العباس محمد بن يزيد (- ٢٨٥ هـ) : الكامل في اللغة
والادب ، طبع مكتبة المعارف ، بدون تاريخ .
- ٧٦ - مجموعة من الاساتذة السوفييت : بحوث سوفييتية في الادب العربي ، ترجمة
خيرى الضامن - دار التقدم ، موسكو ١٩٧٨ .
- ٧٧ - مجموعة من الاساتذة السوفييت : في المادية الديالكتيكية والمادية
التاريخية ، ترجمة خيرى الضامن ، دار التقدم ، موسكو ١٩٧٥
- ٧٨ - المرزباني : ابو عبد الله محمد بن عمران (- ٣٨٤ هـ) : الموشح ، تحقيق
علي محمد الهجاوى - طبع دار النهضة مصر ، القاهرة -
١٩٦٥ م
- ٧٩ - مروة ، حسين : النزعات المادية في الفلسفة العربية الاسلامية ، طبع دار
الغرابي طبعة اولى بيروت ج ١ / ١٩٧٨ - ج ٢ / ١٩٧٧
- ٨٠ - المنزوقي ، محمد : الادب الشعبي في تونس ، طبع الدار التونسية للنشر -
تونس ١٩٦٧ م
- ٨١ - المسعودى : ابو الحسن علي بن الحسين (- ٣٤٦ هـ) : مروج الذهب ومعادن
الجواهر - طبع المطبعة البهية المصرية القاهرة ١٣٤٦ هـ

٨٢ - مصطفى، شاكر : دولة بني العباس (ج ١) طبع وكالة المطبوعات ، طبعة
اولى ، الكويت ١٩٧٣ م

٨٣ - ابن منظور : جمال الدين محمد بن مكرم (- ٧١١ هـ) : لسان العرب .
٨٤ - ابن المعتز : عبد الله بن التوكل بن المعتصم (٢٤٧ - ٢٩٦ هـ) : طبقات
الشعراء ، طبع دار المعارف بمصر ، طبعة ثانية القاهرة

١٩٦٨ م

٨٥ - ابن السعدي ، عبد الصمد : شعر عبد الصمد بن المعذل ، تحقيق زهير
غازي زاهد ، طبع مطبعة النعمان - النجف - العراق -

١٩٧٠ م

٨٦ - المقدسي ، انيس : امراء الشعر العربي في العصر العباسي ، طبع دار العلم
للملايين ، طبعة حادية عشرة بيروت ١٩٧٧ م

٨٧ - المنجد صلاح الدين : مآكل الخلفاء العباسيين ، مجلة الرسالة عدد ٦٥٨

- حرف النون -

٨٨ - النويري : احمد بن محمد بن عبد الوهاب (- ٧٣٣ هـ) : نهاية الارب
في فنون الادب ، طبعة مصورة عن دار الكتب .

٨٩ - النيسابوري : ابو القاسم الحسن بن محمد بن حبيب (- ٤٠٦ هـ) :
عقلاء المجانين ، طبع المطبعة العربية بمصر - ١٩٢٤ م

- حرف الهاء -

٩٠ - هدارة ، مصطفى : اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني الهجري ، طبع
دار المعارف بمصر القاهرة ١٩٦٣ م

- ٩١ - هل - ي : الحضارة العربية ، ترجمة ابراهيم احمد العدوى ، طبع مكتبة
الانجلو المصرية ، القاهرة ١٩٥٦ م

- حرف الـياء -

- ٩٢ - اليافعي : ابو محمد عبدالله بن اسعد بن علي (-٧٦٨ هـ) : مرآة الجنان
وعصرة اليقظان ، طبع دائرة المعارف النظامية ، طبعة اولى
حيدرآباد - ١٣٣٧ هـ .
- ٩٣ - ياقوت الحموي : ابو عبدالله ياقوت بن عبدالله (-٦٢٦ هـ)
معجم الادباء ، طبع دار المأمون .
- ٩٤ - ابويوسف : يعقوب بن ابراهيم : كتاب الخراج ، طبع المطبعة السلفية
القاهرة ١٣٤٦ هـ
- ٩٥ - يونس عبد الحميد : دفاع عن الفولكلور ، طبع الهيئة المصرية للكتاب -
القاهرة ١٩٧٣ .

xxxxxxxxxxxxx*

xxxxxxxxxx

xxxxx